

الإمام محمد أبو زهرة

الخطابة

أصولها . ناريخها في أزهر عصورها عند العرب

ملزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

الخطابة

أصولها . تاريخها في أزهر عصورها عند العرب

الطبعة الثانية

١٩٨٠

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد . فقد كلفت تدريس تاريخ الخطابة العربية بكلية أصول الدين من كليات الجامع الأزهر ، فكتبت مذكرات فيها موجز لما ألقيته من محاضرات ، ولما اعتزمت أن أخرجها كتاباً للناس أردت أن أقدمها بمقدمة شاملة لبعض أصول الخطابة وقوانينها ، ولكن المقدمة استطلت لتشعب المسالك ، ولشعوري بحاجة القراء إلى كل قوانين الخطابة ، ولذلك شملت المقدمة القه لى الأكبر من هذا الكتاب .

ولقد قيدت نفسى فى هذا القسم بالمصطلحات العربية القديمة التى جاءت فى تلخيص ابن رشد لكتاب الخطابة لأرسطو ، وفى قسم الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا ؛ لأن فى ذلك ضبطاً للمسائل ، وجمعاً لها ، وإحياء لتراث السابقين ومجهودهم . ولكنى لم أقيد نفسى بالمعلومات القديمة لأعدوها ، فقد جد فى العلوم النفسية والاجتماعية والخلقية ما يكون غذاءً قوياً صالحاً لذلك العلم . وإن من القديم نفسه ما هو مفيد فى أصول الخطابة ، ولكن لم يضاف إلى بحوثها ، فأضفت الجديد الصالح والقديم المفيد ، وتكون من هذا كله مجموعة من المعلومات أرجو أن يكون فيها ما ينفع الناس .

ولم أقصد بكتابتى فى هذا أن تكون مادة يدرسها الدارس ، فيكون خطيباً ؛ فإننا لا نعلم أن كتاباً يجعل من العيب فصيحاً ، ويفك عقدة اللسان

فيكون طليقاً ، ويث في قارئه شعوراً حياً فياضاً يجري على لسانه عبارات قوية تهمز الحس ، وتملك النفس .

بل قصدت بكتابتي أن تكون مرشدة لمن عنده استعداد للخطابة ويريد أن ينمي ، فهي تنير له السبيل ليسير على هداية ، ويكون على بينة من أمره ، ولا يكون كمحاطب ليل .

وقصدت أيضاً أن تكون كاشفة عن السر في تأثير الخطباء واستيلائهم على مشاعر من يخاطبونهم ، واجتذابهم لنفوسهم ، وإصابتهم لشغاف قلوبهم .

وسيجد القارئ الكريم في كتابتنا هذه فوق ذلك ، ما يصح أن يكون مقاييس تقريبية للموازنة بين أقدار الخطباء اليبانية ، وأقدار الخطب ، والمعاني الخطابية ، والأساليب والألفاظ ، وكل ما هو عدة التأثير ، وطريق الإقناع الخطابي .

أما القسم الثاني (وهو تاريخ الخطابة في أزهر عصورها عند العرب) فقد اتجهت فيه إلى بيان الخطابة في تدرجها علوا وانخفاضاً في تلك العصور متحريراً أن أرد الأمور إلى أسبابها ، والظواهر إلى عللها . وقد حاولت أن أبين في كل عصر ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها وأحوال الخطباء ، موازناً في ذلك بينه وبين العصور الأخرى ، لتكون للخطابة صور واضحة في ذهن القارئ ، وليرى الأدوار التي تعرض للمعاني والأغراض والألفاظ والأساليب تبعاً لحاجات العصر ، ومقتضيات الاجتماع ، وشئون السياسة .

ولذلك صلحت كل عصر بكلمة مصورة للحال الاجتماعية والسياسية والدينية ؛ ليتبين منها السرفيا بطلاً على الخطابة من تغير في ذلك العصر ، ولأن الخطابة أثر لتلك الأحوال ، ولا يعرف الأثر على وجهه إلا إذا عرف المؤثر .

وأنى لأرجو أن ألحق هذا الكتاب بثنان أبين فيه أحوال الخطابة العربية على ذلك النحو في بقية العصور ، ثم ألحق الثاني بثلث أدرس فيه بعض الخطباء الذين لهم في البيان والتأثير قدم جعلتهم مثلاً عالية تؤتسى :

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

مارس ١٩٣٤

محمد أبوزهرة

القسم الأول
أصول الخطابة

علم الخطابة

تعريفه وثمرته :

اعتقد الأقدمون أن للخطابة علماً ، له أصول وقوانين ، من أخذ بها ، أو بعبارة أدق من استطاع الأخذ بها ، والسير في طريقها - عد خطيباً : وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين ، تعرف الدارس طرق التأثير بالكلام ، وحسن الإقناع بالخطاب ؛ فهو يعني بدراسة طرق التأثير ، ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة . وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة . وأساليبها ، وترتيبها ، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ؛ ليربى ملكاته ، وينمى استعداداته ، ويطب لما عنده من عيوب ، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه ؛ ليسير في الدرب ، ويسلك السبيل .

هذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ؛ فهو يرشد دارسه إلى مناهج ، ومسالك ، ولا يحمله على السير فيها ، هو يعطيه المصباح ، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينه رمد ؛ وإن أرسطو واضح كتاب الخطابة لم يكن خطيباً ، بل قال فيه الجاحظ إنه كان بكىء اللسان . وليس علم الخطابة بدعا في ذلك ، فعلم النحو لا يضمن لمتعلمه أن ينطق بالفصحى ما لم يمرس نفسه عليه ؛ وعلم الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكاً قوياً ما لم يرض نفسه على الأخذ به ؛ وعلم العروض لا يكون شاعراً ؛ وعلم المنطق يسن قانوناً لاعتصام الذهن ، ولا يضمن للعالم به عصمة الذهن ما لم يرض نفسه عليه رياضة كاملة .

وهكذا كل العلوم النظرية التي تظهر ثمرتها في العمل ، تعطى من يريدونها قانوناً يساعده ، ولا تضمن له العمل إلا إذا راض نفسه على قانونها .

علاقة علم الخطابة بالمنطق :

عندما ترجم كتاب الخطابة لأرسطو إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري ، اعتبره كثير من الفلاسفة جزءاً متمماً لعلم المنطق . وابن سينا في الشفاء يجعل الخطابة من أقسام المنطق . واستمر ذلك حال الفلاسفة ، ينظرون إلى المنطق بتلك النظرة الشاملة ، إلى أن قصر المتأخرون النظر فيه على صور القياس ، وأشكاله ، وأدواته .

ولم يبعد أولئك الفلاسفة عن الصواب كثيراً ؛ إذ أن كتاب الخطابة لأرسطو ترى فيه المنطق واضحاً وضوحاً تاماً ، ترى الكلام على الحد والرسم والدليل ، وكيف يتكون القياس الخطابي ؛ ثم ترى فيه الكلام على التصديق الذي يكتفى به في الخطابة ، وغير ذلك مما يعد من المنطق . فعلم الخطابة على هذا له صلة وثيقة بالمنطق ، من حيث إن المنطق خادم له ، ومن حيث إن كثيراً من قوانين الخطابة ، يعتمد على المنطق في مبادئه ؛ وفوق تلك العلاقة الواضحة بين المنطق ، وعلم الخطابة ، نرى أن علم المنطق ، قد أخذ يسلك مسلكاً جديداً ، يزيد به على مسلك المتقدمين ؛ إذ صار لا يبحث عن القوانين التي تعصم الذهن عن الخطأ فقط ، بل يستنبط أيضاً ما يرشد الذهن إلى الأخذ بالقوانين السابقة ؛ فهو يبحث أيضاً عن أهواء النفس ، ومخاطرها ، وأسباب القلط ، وتسلل الخواطر ، وكل تلك أمور تساعد الخطيب على أداء مهمته ، وتمتد قوانين الخطابة بمناحي التأثير ، وطرق الإقناع .

والحق أن المنطق ألزم العلوم للخطابة ، وبينهما من وشائج القربى ، وتداخل المسائل ، وتقارب المناهج ، وتداني المآخذ - ما سهل على الأقدمين عدهما علماً واحداً ؛ وما يجعلنا نحن المتأخرين نعهدهما أخوين متحدى النسب .

علاقة علم الخطابة بعلم النفس :

لا يصل الخطيب إلى غايته (وهي إقناع السامعين وحملهم على المراد منهم) -

إلا إذا استطاع أن يثير حماسهم ، ويخاطب إحساسهم . ويتصل كلامه بشغاف قلوبهم ، ولا يمكنه ذلك - إلا إذا كان عليا بما يثير شوقهم ، ويسترعى انتباههم ، وهليا بطبائع النفوس ، وأحوالها . وغرائزها ، وسجاياها ، وذلك لا يكون إلا بعلم النفس ، وإذا كان علم النفس دعامة لعلم التربية ، فهو أيضا دعامة لعلم الخطابة ؛ لأن كليهما يهدى الإنسان إلى وسائل الإقناع ، والتلقين والتأثير ، غير أن الأول لنشره حدث ، والثاني لكبار لهم أفكار ، ومذاهب ، تجعل التأثير فيهم أبعد منالا ، والوصول إلى قلوبهم أعز مطلباً ، والاستيلاء على نفوسهم أشرف منصباً ؛ لذلك نقول : إن علم الخطابة له صلة وثيقة بعلم النفس ؛ إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملاءمة لقوانين هذا العلم ؛ بل يجب أن تستمد منها ناموسها ، وطرقها ، ومناهجها .

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع :

قال الفارابي : إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته ؛ وحسن سياسة نفسه في أموره - فليتوخ طباع الناس وتلون أخلاقهم ، وتباين أحوالهم ، قال أفلاطون : لكل أمر حقيقة ، ولكل زمان طريقة ، ولكل إنسان خليفة ؛ فعامل الناس على خلائقهم ، واتمس من الأمور حقائقها ، واجز مع الزمان على طرائقه .

وهذه قوانين تنفع الخطيب في متصرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته ، ومن دونه ، ومن فوقه على سبيل الإيجاز والاختصار .

وهذا يدل على أن انتصار الخطيب فيما يتقدم في الدعوة إليه - يستدعي إلماما بسياسة الناس ، وما يجب لكل طبقة من المعاملة ، وما يلزم لكل صنف من الناس من خطاب ، يجب أن يكون عليا بروح الجماعة ، دارسا لأخلاقها ، فاهما لما يسيطر عليها ، وإذا كان ذلك جد لازم للخطيب -

فمن الواجب إذن أن تكون قوانين الخطابة متصلة بقوانين الجماعات وناموسها ، مستمدة منها قوة ، ومن مشاربها مسالك ، وأنت ترى من هذا قوة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم الخطابة .

هذه العلوم الثلاثة يناهض صافية ، استمد علم الخطابة منها قوانينه ، وعلى ضوءها سلك طريقه ؛ ولذا اقتصرنا ذكر علاقتها به دون سواها ؛ إذ هي الأنهار التي يأخذ منها هذا العلم ماء الحياة .

تاريخ علم الخطابة :

أول من كتب في هذا العلم اليونان ، بل هم مستنبطو قواعده ، ومشيدو أركانه ، ومقيمو بنيانه ؛ وذلك لأن أهل أثينا في عصر بيركليس ، قويت فيهم رغبة القول ، واشتدت فيهم داعيته ؛ إذ صار يأسرهم القول البليغ دون سواه . قال الميسو شارل سنيوبوس : امتازت أثينا أولاً ببلاغة خطبائها ؛ فكانت حقاً بلد الأدب وحسن الإلقاء ، فبالخطب في مجلس الأمة يقرر شهر الحروب ، وعقد السلم ، ووضع القطائع والضرائب ، وكل الشئون العظيمة ، وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا ، أو يرعون ؛ فالخطباء السلطة ، وعلى الأمة أن تعمل بنصائحهم ومواعظهم ، وربما عهدت إليهم بإدارة شئون المملكة ، فقد عين كليون قائداً ، ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب ، وللخطباء نفوذ كبير ، وكثيراً ما يلجئون إلى بلاغة قولهم للنيل من عدائهم في سياستهم ، وربما أثروا لأنهم ينالون من سوى المآرب ما يرضيهم من المال ؛ ليعاضدوا أحد الأحزاب ، فقد أخذ إشبيل مالا من ملك مقدونيا ، وقبض ديموستين دنانير من ملك الفرس . ثم إن بعض الخطباء كانوا ينشئون خطباً ، ليلقيها غيرهم ؛ إذ لا يسوغ لمن كانت له قضية أن يرفعها بوكالة محام كما هو الحال عندنا ، بل تقضى شريعة البلاد أن يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات ، فمن ثم كان عليه أن يقصد إلى أحد الخطباء ، يلتمس منه تأليف خطاب له يحفظه ليتلوه في

مجلس القضاء ، وكثيراً ما كان بعض الخطباء يجوبون البلاد اليونانية ، ويتكلمون في موضوعات ، توحىها إليهم الخيلة ؛ فتحفل لذلك المحافل ، وتعقد الأندية والمؤتمرات .

وإذا كان التسابق البياني وصل إلى ذلك الحد - فلا عجب إذا رأينا أن من لم يكن قديراً على فنون القول ، يحاول أن يتعلمها ؛ ولذا اتجه الناس إلى تعلم الخطابة ، والدربة عليها ، والتمرين على الإلقاء ، وتعويد اللسان النطق الصحيح ، والبيان الفصيح ؛ لذلك أخذ العلماء يستنبطون قواعد الخطابة وقوانينها بملاحظة الخطباء ، وطرق تأثيرهم ، وأسباب فشل من يفشل منهم .

ويظهر أن أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون ؛ فإنهم كانوا يعلمون الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي ؛ وكيف يغالطونهم ؟ وكيف يلبسون عليهم الحقائق ؟ ويمرنونهم على القول المبين ، والإلقاء المحكم ؛ وطبعي أن يتجه من نصبوا أنفسهم لذلك إلى استنباط قواعد وقوانين من أخذ بها أمن العثار ، وسبق في الخصام . ولقد قبل إن أول من وضع هذه القواعد ثلاثة من هؤلاء السوفسطائيين وهم ، پرويكوس (١) القوسي المتوفى سنة ٤٣٠ ق م ، وبروتاغوراس (٢) (٤٨٥ - ٤١١) ق م ، وجورجياس (٣) (٤٨٥ - ٣٨٠ ق م) .

وقد جاء من بعد هؤلاء أرسطو فجمع قواعده ، وضم شوارده ،

(١) كان سوفسطائياً يأخذ أجراً باهظاً في تعليم الخطابة وقد أنفق كل ما جمع على ملاده وقد حكم عليه بالإعدام بالمسم لأنه قال إن الآلهة من مخترعات العقول .
(٢) أثرى من الأجور التي كان يأخذها وكان يقول : (لا أستطيع أن أعرف أتوجد آلهة أم لا .
(٣) فتح مدرسة تعلم فيها الخطابة فأثرى واشتهر . وكان يقول : لا يوجد شيء وإن وجد لا تمكن معرفته ، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن تعريفه .

فى كتاب أسماء الخطابة ، كان أصلاً لذلك العلم ، ومرجعاً يرجع الخطباء والمؤلفون فى الخطابة إليه ، وصدرأ يصدرّون عنه ، ويردون موارده .

وقد جاء بعد أرسطو عصر نشط فى الخطابة عند الرومان نشاطها عند اليونان ، قال المسيو شارل الآنف الذكر :

كان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع ، حيث تلتئم مجالس الأمة فى أواخر عهد الجمهورية . يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوى القوم ، وشيرون أعظم أولئك الخطباء ، وهو الوحيد الذى بقيت بعض قطع من خطبه .

ويقول فى شأن المدارس فى عهد الإمبراطورية الرومانية : والمدارس العامة تقبل الشبان الأغنياء خاصة ، يرسلهم أبائهم إلينا ؛ ليتعلموا فيها الخطابة . وإلغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم فى الخطابة ، ومرانهم عليها ؛ ولذلك بدأ المفوهون والخطباء يكثرون ، ويعلمون الناس طريقة الأداء ، فافتتحوا منذ القرن الأول فى روما مدارس ، يقبلون فيها الفتيان الأغنياء ، وكان بعضهم يمرن تلاميذه على إنشاء المرافعات فى موضوعات خيالية فى الخطابة . وقد حفظ لنا الخطيب سينيك عدة من هذه الدروس وموضوعها أطفال مخطوفون ، وشطار من اللصوص . ولهذا النشاط وجدت عدة مؤلفات أخرى فى علم الخطابة ينسب بعضها لشيرون ، وألف كونيلىان (٤٢ - ٩٥ م) كتاباً سماه تهذيب الخطيب . وألف انجينوس الحمصى (٢٤٠ - ٢٧٣ م) كتاباً سماه الملق .

ولترك الآن الحديث فى اليونان والرومان ، ولنول وجهنا شطر العرب . فلما قد وجدنا أن الخطابة فى صدر الإسلام — وصلت إلى الذروة وبلغت كمال أوجها . وجاء العصر الأموى ، فوجدت الخطابة لها غذاء من الفتن والثورات التى أظلت ذلك العصر ، وقد أخذ الفتيان والكهول يتبارون فى الخطابة ، ويتسابقون فى ميدانها . وكان مكان ذلك للوفادة ، ومجالس الخلفاء والأمراء

والولاة . وقد نشأ من هذا أن وجد أناس يعلمون الشبان الخطابة ، ويمرنونهم عليها : وقد ظهر ذلك واضحاً كل الوضوح في العصر العباسي الأول ، فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ وفي العقد الفريد لابن عبد ربه : أن بشر ابن المعتز - مر بآبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب ، وهو يعلم فتياهم الخطابة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره ، وتنميته وفي هذه للصحيفة وصف جيد لأساليب الخطابة ، وألفاظها ومعانيها . وصنن خلاصتها في موضعه إن شاء الله تعالى .

ويظهر أنهم لم يقتصرُوا على استنباطهم العربية ، بل كانوا يستعينون بما في آداب الأمم الأخرى ، ليعاونهم ذلك في استنباطهم ، ويمدهم بما ليس عندهم ، وينبههم إلى ما عساه يعزب عن خواطرهم . ومن ذلك ما جاء في البيان والتبيين والصناعتين : قال معمر أبو الأشعث قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لأحسن ترجيحها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة ؛ فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة ، فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة : وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح إلى آخر ما فيها من وصف جيد للخطيب . والأسلوب الخطابي .

الأترى من هذا ما يدل دلالة راجحة على استعانتهم بالآداب الأجنبية ، وتغذيتهم بها ؟ وقد استمر البحث في الخطابة ، وأصولها ، ينمو ، ويكثر ،

(١) إبراهيم بن جبلة كان من أصحاب عبد الملك بن مروان وعمر إلى خلافة المنصور ومن ذلك تعرف أن ابتداء استنباط قواعد الخطابة كان في آخر العصر الأموي .

ما كانت الخطابة ناهضة . وكان أكثر من يقوم به أئمة المعتزلة الذين احتاجوا إليها ليجتازوا مجالس المناظرات ، ويتغلبوا على خصومهم من ذوى الجدل ؛ ولذا نبغ فيهم خطباء كثيرون ، ومنهم من يعرف بعض أصول الخطابة ، وقوانينها ، كعمرون بن عبيد ، وبشر بن المعتمر ، وثمامة ابن أشرس ، وإبراهيم النظام ، والجاحظ ، وغير هؤلاء كثيرون .

غير أن بحوث أولئك الأدباء لم تجمع في كتاب مستقل ، بل كانت تثيراً في الكتب ، وعلوم اللغة ، ولم يعن أحد بتدوينها في كتاب مستقل ؛ لتكون علماً قائماً بذاته ، حتى ترجم اسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو ؛ وشرحه الفارابي : وقد عد من المنطق كما ذكرنا .

جاء في الفهرست لابن النديم في أثناء سرد ما كتبه أرسطو في المنطق : الكلام على ريتوريقا ، ومعناه الخطابة ويصاحب بنقل قديم ، وقيل : إن اسحق نقله إلى العربي ، ونقله إبراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابي أبونصر : رأيت بخط أحمد بن الطيب هذا الكتاب نحو مائة ورقة بنقل قديم . وقد أتى ابن سينا في كتاب الشفاء بلب كتاب الخطابة لأرسطو مع تصرف غير ضار :

وبنقل كتاب الخطابة لأرسطو صار في العربية قواعد للخطابة مدونة في بحث مستقل ، وإن كان جزءاً من علم المنطق على ما رأيت . وهنا نلاحظ ثلاثة أمور .

أولها - أن تلك الترجمة صادفت عصراً قد ركدت فيه الخطابة ونحدت ، وأصبحت مقصورة على الوعظ ، وصار الخطباء ممن لا يجيدونها ؛ فاقتصروا على خطب يحفظونها ويلقونها ويتوارثونها بنصها ، يلقي الخلف ما كان يلقيه سابقه ، وإن تصرف في دائرة محدودة ، ووسط أقطار من جمود ؛ فكان طبعياً ألا تستفيد الخطابة من تلك الترجمة ؛ لأنها فقدت روحها ، وذهبت الرغبة في السبق فيها ؛ فبقيت القواعد هيكلًا من غير لحم .

ثانيها - أن كتاب الخطابة صار جزءاً من الفلسفة ، ولم يصف إلى الأدب ، وإن كان الأدباء قد قبسوا منه ، ونالوا أشطراً ؛ إذ هو مع ذلك لم يخرج

يقواعده كلها عن نطاق الفلسفة ، إلى حيث يتناوله الأدباء بالبحث ،
والنقد ، والتقرير ، أو التزييف ، بل بقي حيث الفلسفة وعمقها ، وجفافها ،
ولعل السبب في ذلك خود ربح الخطابة ، وضعف شأنها .

وإن الفلسفة ذاتها من بعد ابن سينا ، وابن رشد ، أخذت تهجر كتاب
الخطابة ؛ فقد انفصل عنه المنطق ، وصار أمره يصغر ، وشأنه يهون ، حتى
سماه الزمن بحر عليه ذيل النسيان ، لولا أن سجل خلاصته ابن سينا في
كتاب الشفاء ؛ فصار مرجعا يرجع إليه عند الحاجة .

ثالثها - أن علم الخطابة المترجم لم يربط باستشهادات من الأدب العربي
السبب في ذلك عدم خروجه عن نطاق الفلسفة ، ولو أنه خرج عن ذلك
النطاق ، وتناوله بحث الأدباء بالتأييد أو الرد ، لوجدت الشواهد على قواعده ،
ولا تنتقل إلى علم عربي ، ولبس حلة قشبية من ذلك البيان .

هذه هي الأمور الثلاثة التي نلاحظها على تلك الترجمة وزمانها ؛ ومنها
نترى أن الخطابة ذاتها لم تفد من تلك القواعد ، ولم تتغذ من هذه العناصر ؛
لأنها قد ضارت صورة من غير روح .

ولما استيقظت الخطابة في العصور الحديثة ، وعظم أمرها ، وصارت
سبيلا من سبل المجد ، وطريقا من طرق الغلب والسبق ، في ميادين السياسة ،
وفي المجالس النيابية ، وفي دور القضاء ، انجبه بعض الباحثين إلى إحياء المقبور
من قوانينها ، ونشر المدفون من آراء العلماء فيها ، وأظهر كتاب ظهر في
ذلك كتاب علم الخطابة للعالم الباحث لويس شيخو ؛ فقد جمع في هذا الكتاب
خلاصة ما كتبه أدباء العرب ، وفلاسفتهم ، وما ترجم إلى اللغة العربية من
قوانين الخطابة ؛ وقواعدها ، غير أننا نلاحظ أن فيما كتبه كثيرا مما يتعلق
بمنطق ، قد وضعه في الخطابة ؛ ونلاحظ جفافا في الكتابة يجعله غير قريب

للمتناول ؛ ونلاحظ أيضاً أن المؤلف في أكثر المسائل لم يقدم لنا رأيه ؛ بل يتركنا وسط نقول وآثار : ومهما يكن من شيء فله فضل الباحث المنقّب ، والكاتب السابق ؛ إذ غيره له لاحق :

وقد كتب بعض الذين تثقفوا بثقافات أوروبية بحوثاً قيمة على النحو الذي وجدوه في أوروبا ، ولكل منهم ناحية فيما كتب ، فبعضهم اتجه إلى مخارج الحروف ، وبعضهم اتجه إلى الإلقاء ، وبعضهم زاد عن هذين قليلاً من البحث في أساليب الخطابة ، ولكل فضل فيما عني به .

وأرجو أن يوفقني الله جلت قدرته إلى أن يكون في بحثي هذا نفع بمقدار ما أبغى ، وفائدة بمقدار ما أقصد . والله المستعان .

محمد أبو زهرة

الخطابة

تعريفها . أقيستها . موضوعاتها . فائدها . طريقة تحصيلها .

الخطابة مصدر خطب يخطب أى صار خطيبا ، وهى على هذا صفة (١) راسخة فى نفس المتكلم ، يقتدر بها على التصرف فى فنون القول ، لمحاولة التأثير فى نفوس السامعين ، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم ، وإقناعهم ، فالخطابة مرماها التأثير فى نفس السامع ، ومخاطبة وجدانه ، وإثارة إحساسه للأمر الذى يراد منه ؛ لينال للحكم ، لإذعانا ، ويسلم به تسليما .

وقد قال ابن سينا : إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق ؛ لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق ، فإن أوقع التصديق يقينا - فهو البرهان ، وإن أوقع ظنا أو محمولا (٢) على الصدق - فهو الخطابة (٣) - أما الشعر فلا يوقع تصديقا ، لكنه لإفادة التخيل الجارى مجرى التصديق ؛ ومن حيث أنه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا ، عد فى الموصل إلى التصديق . والتخيل عنده إذعان للتعجب ، والالتذاذ ، تفعله صورة الكلام .

وترى من هذا أنه يضع المنطق ، والخطابة ، والشعر ، فى ثلاث مراتب فالأول يتجه إلى اليقين ، والثانية تتجه إلى الأقيسة الظنية ، والشعر يتجه إلى

(١) عرف الخطابة المنطقيون والحكماء بأنها القياس المؤلف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم . والمظنونات الأمور التى يحكم العقل فيها حكما راجعا اتباعا لغلبة الظن . كقولك فلان يطوف الليل فهو لص ، والمقبولات هى الآراء التى يكون مصدر التصديق فيها - وقوعها ممن لا شبهة فى صدقها مع كونها قابلة للإنكار - وتطلق الخطابة بمعنى الخطبة وهى الكلام المنثور المسجوع أو المزدوج أو المرسل الذى يقصد به التأثير ، والإقناع .

(٢) المراد من المحمول على الصدق ما يقبله الإنسان لصدوره عن عرف بالصدق .

(٣) الخطابة هنا معناها الخطبة .

إثارة الخيال والإعجاب ، والالتذاذ بصورة الكلام ، ونحن نخالفه في غير المنطق ، وبهنا ما نحن بصدده وهو الخطابة ؛ فليس بصحيح أن أقيسة الخطابة ، لا تعتمد إلا على الظن ، بل كثيراً ما تعتمد على أقوى الأدلة إلزاماً ، وأشدّها قطعاً في الاستدلال ، ومن أبلغ الخطب ما جملت حقائقها بأقيسة المنطق ، وبراهينه ؛ إذ يجتمع فيها دقة المنطق ، بجمال الأسلوب .

وقد يكتفى فيها بالأمور الظنية ، وقد يستعان فيها بأقوال من عرفوا بالصدق ، وبعد النظر ، والحكمة الصائبة ، وإن كان الاحتجاج بها في ذاتها لا ينتج يقيناً في نظر العقل المجرد ؛ وقد يتجه الخطيب إلى تصوير الحقائق في صورة تثير الخيال ، وتعجب بذاتها ، ويضع الحقائق في أسلوب شعري ؛ ليجمع التصديق مع إثارة الخيال ، ويلتقى الإذعان وإثارة الوجدان .

فالخطابة في الحقيقة قد تستمد قوتها من العناصر الثلاثة ، وتكون تلك العناصر كالينابيع تمدها بماء الحياة ؛ قد يعتمد الخطيب إلى المنطق ، وأقيسته اليقينية ، ويقتصر على ذلك إذا كان يخاطب أقواماً ، قد غلب على حياتهم للفكر والعقل ، لا يرضيهم إلا الحقائق عارية ، وقد يعتمد إلى الظنيات ، وأقوال من عرفوا بالحكمة ، إذا كان من مخاطبهم ممن يقدسون أولئك الذين نقل عنهم ، وقد يضيف إلى الظنيات صوراً كلامية ، تثير الخيال ، وتنفعل في النفس ما يفعله الشعر . ومن الخطب ما تجتمع فيها تلك العناصر الثلاثة ؛ فتبلغ القمة من التأثير ، والروعة ، والجلوة .

موضوعها :

قال ابن رشد ناقلاً عن أرسطو : ليس للخطابة موضوع خاص ، تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فإنها لا تنحصر في كل العلوم والفنون ، ولا شيء حقيراً كان أو جليلاً معقولاً أو محسوساً إلا يدخل تحت حكمها ؛ وينحصر لسلطان لسانها ؛ ومن ثم يترتب على الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف ، بل ينبغي له أن يوسع كل يوم نطاق مداركه ، وذلك حتى لا يرب فيه ؛ فإن كل مسألة عامة ، أو لها صلة بشأن عام ، يصح أن تكونه

موضوع الخطابة : كحب الوطن ، وإقامة العدالة والنظام ، وتسكين الفتن ،
والتمسك بالفضيلة ، وغير ذلك ، بل من المسائل الخاصة ماهو موضوع للخطابة
كالخصومات ؛ فإن المحاكم ميدان الخطابة ، والقول البليغ . وكثير من القضايا
ليست لإمسائل خاصة كالعقود والمدائنات ، ونحو ذلك . بل إن ابن رشد
يقول في تلخيصه لكتاب أرسطو : كل واحد من الناس يوجد مستعملاً لنحو
من أنحاء البلاغة ومنتبهاً منها إلى مقدار ، وذلك حق ؛ فالناجر ينادى لسلعته
بشيء من البيان بلغته يستعمل فيه كل وسائل الإغراء ؛ وكل ذى رغبة في
أمر ، يجتهد في استخدام عبارات خاصة ، يجتذب بها من يريد حمله إلى ما ينبغي
ويريد . ولو تسامحنا لسمينا ذلك النحو من الكلام خطابة . وعلى أية حال هو
يدل على مقدار عموم الموضوعات الخطابية وأنها ليست مقصورة على ناحية
خاصة من النواحي ؛ وإن كان الناس قد اصطالحوا على الخطابة في موضوعات ،
وجعلوها أقساماً لها ، وأنواعاً ، كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

فالدتها :

قال ابن رشد ناقلاً عن أرسطو : ليس كل صنف من أصناف الناس
ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها ؛
وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق ، فإذا سلك نحو
الأشياء التي نشأ عليها - سهل إقناعه ؛ وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول
البرهان أصلاً ؛ وإما لأنه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه
وقوع التصديق فيه ، فهذا الصنف الذي لا يجدى معه الاستدلال المنطقي ؛
تهديه الخطابة إلى الحق الذي يراد اعتناقه ؛ لأنها تسلك من المناهج ، ما لا
يسلك المنطق .

وهذه أول ثمرة من ثمرات الخطابة ؛ وللخطابة فوق ذلك ثمرات
كثيرة ؛ فهي التي تفض المشاكل ؛ وتقطع الخصومات ، وهي التي تهدى
النفوس النائرة ، وهي التي تثير حماسة ذوى النفوس الفاترة ، وهي التي
ترفع الحق ، وتخفف الباطل ، وتقيم العدل ، وترد المظالم ، وهي صوت
المظلومين ، وهي لسان الهداية . ولأمر ما ، قال موسى عليه السلام عندما

بعثه ربه تعالت حكمته إلى فرعون : « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي
أمرى ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » . ولا يمكن أن ينتصر
صاحب دعاية ، ومناد بفكرة ، وصاحب إصلاح إلا بالخطابة .

والخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة ، والثورات
الكبيرة التي نقضت بنيان الظلم ؛ وهدمت قصور الباطل ؛ فهذه الثورة الفرنسية
قامت على الخطابة ، وهي التي كانت تؤجج نيرانها ، وتذكى لهبها . والخطابة
قوة تثير حمية الجيوش ، وتدفعهم إلى لقاء الموت ، وتزيد قواهم المعنوية ؛
ولذلك كان قواد الجيوش المظفرين في القديم ، والعصور الحديثة خطباء
مصاقع ؛ فبيركليس ، ويوليوس قيصر ، ونابليون ، خطباء ، وعلى
ابن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ، خطباء مصاقع ،
حملوا معهم سلاحاً معنوياً بجوار السلاح الحديدي .

والخطباء هم المسيطرون على الجماعات ، وهم الذين يقيمونها ، ويقعدونها .
وفي الحكومات الشورية ، يكون الخطباء هم القالين ؛ تصدع الأمة بإشاراتهم ،
وتخضع لسلطانهم ؛ لأن الغلب في ميدان الكلام ، والسبق في حلبة البيان
لهم ، فأراؤهم فوق الآراء ، لأنهم يستطيعون أن يلحنوا بحجبتهم ، ويسبقوا
إلى غاياتهم ؛ وفي ذلك نشر لسلطانهم ، ورفعة لهم . فالخطابة طريق للمجد
الشخصي كما أنها طريق للنفع العام .

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الراقى تحيا برقي الجماعة ،
وتخبو بضعفها . ولقد قال ابن سينا في فائدها إن صناعة الخطابة عظيمة
النفع جداً ؛ وذلك لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل
نفعاً ، وأعم على الناس من أضدادها فائدة ؛ لأن نوع الإنسان يعيش
بالتشارك ، والتشارك ، محوج إلى التعامل والتحاور ، وهما محوجان
إلى أحكام صادقة ؛ وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون
مقررة في النفوس ، ممكنة في العقائد ، والبرهان قليل الجدوى في
حل الجمهور على الحق ؛ فالخطابة هي المعنية بذلك . انتهى بتصرف قليل .

وقال في الخطيب : إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه ؛ ويقم له مراسم لتقويم عيشه ؛ والاستعداد إلى معاده .

طرق تحصيلها :

لا شك أن الخطابة منصب خطير ، ومرتقى صعب المثال ، لا يصل إليها طالبها ببسر ، بل يحتاج مبتها إلى زاد عظيم ، وصبر ومعاناة ، واحتمال للمشاق ؛ ليصل إلى تلك الغاية السامية . وطرق تحصيلها في الجملة ما يأتي :

١ - فطرة مواتية وسليقة تلائم الخطابة :

بأن يكون الخطيب خالياً من العيوب الكلامية ؛ من فأفة ونحوها ، وأن تكون مخارج حروفه صحيحة ، وأن يكون فصيحاً ، طلق اللسان ، ثابت الجنان ، ذكي القلب . وقد يكون بعض الناس مستعداً كل الاستعداد للخطابة ؛ إذ يكون قد منحه الله كل مؤهلاتها من صوت جهورى ، وعقل ألمعى ، وقلب ذكى ، ونفس متوثبة ، ولسان مبين ، وخاطر حاضر ، وبدية مستيقظة ، وفراصة مدركة ، ونظرات نافذة ، ومثل هذا لا يحتاج إلا إلى التعليم والممارسة ، وتنمية مداركه ليكون خطيباً مصقفاً ، ومدافعاً مدرهاً .

٢ - دراسة أصول الخطابة :

لا شك أن هذه الأصول لابد لها من عوامل أخرى ؛ إذ هي وحدها لا تكفى ؛ بل لابد أن يكون معها استعداد كامن ، أو رياضة ومران شديد . قال ابن سينا في منزلة أصول الخطابة في تحصيلها : هذه الصناعة قد يتعاطى أفعالها كل إنسان ، بأن يتأمل ما يختلفون فيه من مدح أو ذم أو شكاية أو اعتذار أو مشورة ؛ فمنهم من يكون تصرفه في بعض هذه المعاني ، ومنهم من هو متصرف في جميعها ، ومنهم من يبعد في ذلك بملسكة حصلت له من غير أن تكون القوانين الكلية محصلة عنده ، ومنهم من يجمع إلى الملكة الإعتيادية ملكة صناعية ، حتى تكون القوانين حقيقة عنده وهو الذى أحاط بهذا الجزء من المنطق (الخطابة) علماً واكتساب

الملكة بالمزاولة . والملكة الاعتيادية وحدها ، إن تنجح فلا عن بصيرة ،
فالقوانين على هذا هادية مرشدة ، تساعد في تحصيل الخطابة بإنارة السبيل
ولا تكون وحدها الخطيب ، بل هي مهذبة للفطرة ، مساعدة لها .

٣ - قراءة كلام البلقاء :

دراسته دراسة متعرف لمناحي التأثير ، وأسرار البلاغة ، ومتنوع
لما فيها من جمال الأسلوب ، وحسن التعبير ، وجودة التفكير ، قال
ابن الأثير في المثل السائر : إن في الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم
والمنثور فوائد جمّة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ،
ويعرف به مقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت به صناعته في ذلك ؛
فإن هذه الأشياء مما تشدّد القريحة ، وتزكى الفطنة . وإذا كان صاحب
هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكرت ، وتعب في استخراجها
كالشيء الملقى بين يديه ، يأخذ منه ما أراد ؛ وأيضاً ، فإنه إذا كان
مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق
إليه . ومن المعلوم أن خواطر الناس (وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة)
فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير . فقراءة
كلام البلقاء تقدم للقارئ أرسالا من المعاني والأساليب ينال منه بيسر
وسهولة من غير معاناة ولاكد ذهن .

٤ - الاطلاع على كثير من العلوم التي تتصل بالجماعات :

كالاقتصاد والشرع ، والأخلاق ، والاجتماع ، وعلم النفس ، والأديان ؛
فإن الاطلاع على هذه العلوم فوق أنه ينمي فكره ، ويوسع مداركه ، يجعله على
بصيرة في مهمته ، ويضع أمامه المصباح الذي يهديه إلى طرق التأثير ؛ فيصيب
غايته ، وينال غرضه .

٥ - الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب :

يحفظ كثير من خطب من اشتهر باللسن والبيان ؛ فإن الخطابة تحتاج
إلى تعابير كثيرة ، تحتاج إلى أن يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات ،

وأساليب متغايرة ؛ لكيلا تذهب جدة المعنى ، ويصيب السأم النفوس . ولا يمد الخطيب بالعبارات المتغايرة المتحدة المعنى لإثروة في الألفاظ والأساليب ؛ وحفظ كثير لأقوال المتقدمين ، واستيلاء تام على نواحي البيان .

٦ - ضبط النفس واحتمال المكاره :

إن الخطابة منصب خطير ؛ إذ قد تعترض الخطيب زوايع من كل ناحية ، وقد يقابل بالسخرية والاستهزاء ، وقد يكون المخاطبون ممن يتقصون عوراته ، ويتسقطون هفواته ، وكلهم له رقيب عتيد . فإذا لم يدرع الخطيب بضبط نفسه وسيطرة تامة على إحساسه ومشاعره ، لم يستطع السير إلى غاياته . وقدما قال خطيب عربي : لقد شينني ارتقاء المنابر ، وهو قول يدل على مقدار ما كان يعانيه ذلك الخطيب في الاستيلاء على نفسه حتى لا تجمش ولا تنجش ، وحتى لا يضطرب ، ولا تأخذه الحبسة ؛ لذلك نقول يجب أن يربي مرید الخطابة نفسه على احتمال المكاره والحلم ، وضبط الإحساس ، ومحاربة مظاهر الاضطراب والوجل ؛ فإن الاضطراب يورث الحيرة ، والحيرة من أسباب الارتاج ، والوجل يضعف أثر الخطبة في نفوس السامعين ، إذ تهون عليهم لو أن قائلها .

٧ - الارتياض والممارسة :

إن الفطرة والاطلاع ، وثروة الألفاظ ، والقراءة الكثيرة ، والعلم بالأصول الخطابية لا تكفي في تكوين الخطيب ؛ لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة ، بل لابد لمريدها من المعاناة . والممارسة والمران ؛ لكي ينمي مواهبه ، إن كانت فيه فطرتها ، ولكي يطب لعيوبه إن كان فيه عيوبها . فإن وجدت في نفسك أول الأمر نقصا خطايا فكله ، ولا يوثسك إعراض الناس عنك من النجاح ؛ فإن كثيراً من الخطباء الممتازين كانت فيهم عيوب كلامية ، فأصلحوها .

جاء في كتاب تاريخ الحضارة في الحديث عن ديموستين خطيب اليونان : إنه عندما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالتهقئة ؛ إذ كان صوته ضعيفاً جداً ، ونفسه قصيراً ، فتوافر عدة سنين على رياضة صوته .

ويروى أنه كان ينقطع شهورا طويلة ونصف رأسه مخلوق ؛ لثلا يحاول الخروج . وكان يلقي خطبا وفي فمه حصي ، وهو على شاطئ البحر ؛ ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس . ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته . وقد كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل إلقائها ؛ ولذا صار أرق خطيب ، وأعظم مفوه في بلاد اليونان . وكانت تلك حال كثير من خطباء العرب الممتازين ؛ فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ : ويقال إنهم لم يروا قط خطيبا بلديا إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصفا أيام رياضته كلها إلى أن يتوقع وتستجيب له المعاني ، ويتمكن من الألفاظ - لإشبيب بن شيبه ؛ فإنه ابتدأ بحلاوة ، ورشاقة ، وسهولة ، وعذوبة ؛ فلم يزل يزداد منها ، حتى صار في كل موقف ، يبلغ بقليل الكلام ، ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . ورياضة النفس على الخطابة ، تكون بأمور كثيرة ، بعضها يتعلق بالإلقاء ، وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة ؛ لأن الخطابة فكرة ، وأسلوب ، وإلقاء محكم ، ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة ؛ أن يعود نفسه ضبط أفكاره ، ووزن آرائه ، وعقد صلة بينها وبين ما يجري في شئون الناس ، وعامة أمورهم ؛ ليكون على أهبة القول الخطابي إن وجدت دواعيه . ومنها أن يكون كثير التأمل في شئون الحياة ؛ عميق الفكرة فيها ، كثير الدراسة لأحوالها ؛ وأن يعود نفسه الاتصال بالناس ؛ ليخلط نفوسهم بنفسه ، فيحس بإحساسهم ، ويكون قريبا منهم ، إن وجد ما يدعو إلى خطابهم . ومن الرياضة التي تتعلق بالأسلوب أن يتحدث بجيد الكلام ، أو يكتبه كثيراً ، وأن يكون في مرآته الخطابي محاكاة البلغاء في أساليبهم ؛ أو مقتبساً منهم ، أو سائراً في مثل درجهم . ومن الرياضة التي تتعلق بالإلقاء أن يعود نفسه لإخراج الحروف من مخارجها ، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع ؛ مصوراً بصوته معاني ما يقرأ ؛ بتغيير النبرات ، ويرفع الصوت وخفضه ، وأن يغشي الجماعات والمخاغل التي تكون ميادين قول ، وإذا عنت له فكرة ووجد الفرصة سانحة - فليقل غير هياب ولا وجل ولا مستحي ؛ فإن الاستحياء في هذا نوع من الضعف ، وهو يجر إلى الحبسة ،

وموت المواهب ؛ وعليه أن يقول مرتجلاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإن ضعف أسلوب ارتجاله ، أو أصابته خبسة مرة لا يئأس من أن يجيد مرتجلاً ، ويتسبب سيب بلاغته مرة أخرى ، بل قد يصير ذلك له عادة ، وشأناً .

والقول الجملى ، يجب على المرید أن يروض نفسه على الخطابة الجيدة ؛ حتى يصير له شأناً . وقد قال الجاحظ في هذا كلمة محكمة ، فقد جاء في البيان والتبيين : « وأنا أوصيك ، ألا تدع التماس البيان والتبيين ، إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك ، فيستولى الإهمال على قوة القريحة ، ويستبد بها سوء العادة ، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة ، وبقوة المنة يوم الحفل ، فلا تقصر في التماس أعلاها في البيان سورة ، وأرفعها في البيان منزلة » ، وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة ، بل هي لازمة لمن شدا فيها ، وعظم أمره ، وعد من أفصح الخطباء ، فقد كان شيشرون أخطب خطباء الرومان بتمرن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها . وكانت تلك حاله حتى قتل .

أصول الخطابة

تكوين الخطبة

مقدمة : لاشك أن من يريد إلقاء خطبة في موضوع ، يجمع العناصر أولاً ، ثم يرتبها ، ويضع كل عنصر في موضعه اللائق به ، ثم يعبر عن ذلك . وقد تحدث منه تلك الأعمال الثلاثة في أسرع وقت ، وأقصر زمن ، كما ترى في الخطب الارتجالية ، وفي الجوابات ، والمناقشات الخطابية . وقد تحدث بعد تروية وإمعان وتفكير وفي زمن طويل ، وذلك في الخطب التي تهيأ وتحضر ، وتعد إعداداً . ومهما يكن من حال الخطيب والخطبة فتلك الأعمال الثلاثة لا بد أن تكون . وقد جاء في كتاب علم الخطابة للعالم لويس شيخو قال ابن المعتز والشيبياني : إن البلاغة بثلاثة أمور : أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر ، وتتأمل لوجوه العواقب ، وتجمع بين ما غاب وما حضر ؛ ثم يعود القلب على ما أعمل الفكر ؛ فيحكم سياق المعاني ، والأدلة ، ويحسن تنضيدها ؛ ثم تبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها ، واستعمال محاسنها . قال بعض الحكماء : العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، وبيان مبصّر ، ولسان معبر .

ويسمى العمل الأول إيجاداً أو اختراعاً ، والثاني التنسيق ، والثالث التعبير ، وتلك هي الأركان ، التي تقوم عليها الخطبة ، والعناصر التي تتحد في تكوينها .

الإيجاد

وهو إعمال الفكر لاستنباط الوسائل التي من شأنها إقناع السامع واجتذابه ، وإثارة حماسه إلى ما يدعو إليه المتكلم . إن عمل الخطيب أن يقدم حقائق ، أو ما يشبه الحقائق ، ويجب أن يكون عند تقديمها بحال لا تمنع من قبول كلامه ، بل يجب أن يكون بحال تجذب الناس إليه ؛ وتدفعهم إلى الإنصات له ، وتقبله بقبول حسن ، وأن يجتهد في حمل

السامعين على الإذعان لما يقول ، والتسليم به ، وإثارة حماسهم له . قال ابن
حسین فی الشفاء : التصديقات الصناعية التي يحتال لها بالكلام ثلاثة أصناف :
الأول العمود ، والثاني حال المتكلم عند تأدية الكلام في سمته كما يتفق
أن يكون ، سمت صالح متخضع فاضل ، أو سمت صادق جاد ، أو خلاف
ذلك ، أو يكون له لطف في تأديته . والثالث : استدراج السامعين ، ويجب
أن يكون الإيجاد شاملاً لكل هذه العوامل ؛ ولذا قالوا إن الإيجاد يشملها ،
وسموا الأول الأدلة ، والثاني الآداب الخطابية ؛ والثالث إثارة الأهواء .

الأدلة

الدليل ما يتوصل به إلى بيان صحة الحكم سلباً أو إيجاباً ، والأدلة الخطابية
لا يلزم أن تكون قطعية موجبة لليقين ، بل يصح أن تكون ظنية توجب في
حالاتها الظن ، ولكن بما يستخدمه الخطيب من وسائل يرفع ذلك الظن في نفوس
السامعين إلى مرتبة اليقين ؛ بل يجعله في أعلى درجاته ، ومثال الأدلة القطعية
في الخطب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، في بيان قدرة الكائنات ، وبغير
مجاور قدرة الله سبحانه وتعالى : بلا قدرة . منها كان ابتداء خلقها ، وبغير
امتناع منها كان فناؤها ؛ ولو قدرت على الامتناع ، دام بقاؤها .

فهذا الدليل قطعي إلزامي ، ولا شبهة فيه عند أهل النظر . ومثال الأدلة
الظنية قوله لعمر ، عندما استشار الصحابة في سفره على رأس الجيش لفتح
خارس : مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز ، يجمعه ، ويضمه
في إذا انقطع النظام ، تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجمع بخدا فيرة أبداً .
والعرب اليوم (وإن كانوا قليلاً) فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع ؛
فكن قطبا ، واستدرالرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ؛ فإنك
إن شخصت من هذه الأرض ، انتفضت عليك العرب من أطرافها ،
وأقطارها ؛ حتى يكون ما تدع وراءك من العورات ، أهم إليك مما
يعن يدبك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً ، يقولوا هذا أصل

للرب ؛ فإذا قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلهم عليك ؛
وطمعمهم فيك .

وترى أن كل ما اشتمل عليه هذا الكلام من أدلة ظني ؛ ولكنه مع ذلك
يسوق النفس إلى الإقناع كرها ، لا طوعا .

والأدلة الخطائية سواء أكانت إلزامية أم إقناعية ، تحذف في الغالب
إحدى مقدماتها ؛ لأن الأساليب الخطائية تتجافى عن الأساليب المنطقية
الجافة ؛ إذ يقبح الأسلوب المنطقي فيها إلا إذا كانت الخطابة قضائية ؛ فإن
الأسلوب المنطقي قد يحسن ، وقد يكون مجملا لها . وقد قال ابن سينا في علة
حذف إحدى المقدمات في الكثير الشائع : إن الخطابة إنما تحذف الكبريات
فيها ؛ لأنها لو صرح بها لزال الإقناع ؛ لأن تلك الأحكام إذا حصرت
بالكلية ، علم كذبها ، وخصوصا في المشوريات منها .

والأدلة لها ينايع تصدر عنها ، وتستنبط منها ، ويتجه إليها عند طلبها ؛
وتسمى (مواضع) وقد ذكرها الأقدمون من اليونان ؛ ليسهل على الخطباء
والمجادلين الحصول على ما يبرهنون به دعاويهم ؛ ولتجنبوا بها قضاياهم التي
يسوقونها ؛ وقد قال ابن سينا فيها : إن الحجج في الخطابة تكتسب من
المواضع ؛ فمن طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل ، يسعى
على غير هداية ؛ لا لبخل من الموجود ، بل لنقصان في الاستعداد .

المواضع

المواضع هي المصادر التي يمكن الخطيب أن يتخذ منها ما يستدل به على
دعواه ، كالتعريف ؛ فإن الخطيب يمكنه أن يتخذ منه في بعض الموضوعات
مصدرا لاستدلاله ، فإذا كان مثلاً يدعو إلى الصدق ، يصح أن يبرهن على
ضرورة الأخذ به ، بتعريفه ، وذكر خواصه ، ولوازمه التي من شأنها أن
تبينه نافعا ؛ وكالتشبيه ؛ فإن الخطيب يستطيع أن يعقد صلة بين شيء غير مسلم
به ، وآخر مسلم به من السامعين ؛ ويتخذ من تلك المشابهة دليلا على ضرورة
ما يدعو إليه وصدقه ، وهكذا . وقد قسم العلماء المواضع إلى ذاتية وعرضية ؛

المواضع الذاتية

فالداتية تؤخذ من ذات الموضوع ، لا من شيء خارج عنه ، كأن يبين فوائد العلم ، بذكر خواصه اللازمة له ، وقد ذكر الفلاسفة عدداً من المواضع الذاتية ، نكتفي ببيان ما نراه كثير الشيوع على ألسنة الخطباء قديماً وحديثاً ، ومن ذلك :

١ - التعريف :

تعريف الشيء ، يكون دليلاً خطابياً ، أو بعبارة أدق مقدماً لدليل خطابي . ولذلك طرق عدة منها :

١ - أن يعرفه بخواصه التي تفيده فيما يدعو إليه ، كقول علي رضي الله عنه داعياً إلى الأخذ بهدى المتقين ، واصفا لهم :

« والمتقون هم أهل الفضائل ، منقطعهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء ، كالتى نزلت في الرخاء (١) ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفه عين شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب » .

٢ - ومنها أن يعرفه بالاستعارات أو التشبيه أو نحوها ، كقول شبيب ابن شبيب في مدح خليفة : « ألا إن لأمر المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخادر (٢) ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ، فأما الأسد الخادر ، فأشبه منه صولته ومضاءه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه ، وأما القمر الباهر ، فأشبه منه نوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر ، فأشبه منه حسنه وبهائه » .

(١) معنى هذه الجملة أنهم في البلاء كما هم في الرخاء لا يمتنون ولا يحزنون لألمهم في الله ، وطمأنهم في رحمته ، وصبرهم وخشوعهم .

(٢) الخدر : يطلق على أجمة الأسد ، فأسد خادر مقيم في أجمته .

٣ - ومنها أن يعرفه ببيان أنواعه ، وذكر أقسامه . ومن ذلك قوله على رضى الله عنه فى بيان الرزق « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأت أذاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك ، كفاك كل يوم على ما فيه ، فإن لم تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك من كل غد جديد ، ما قسم لك ، وإن لم تكن السنة من عمرك ، فما تصنع بالهم لم ليس لك . ولن يسبقك إلى رزقك طالب ، ولن يغلبك عليه غالب ، ولن يبطئ عنك ما قد قدر لك » .

ومرى من هذا أن طرق التعريف الخطائى ليست هى الطرق المنطقية وحدها ، بل تكون بها وبغيرها ، مما لا يقره المنطق تعريفاً مصوراً للموضوع .
والتعريف يكون موضعاً خطائياً :

١ - عندما يرى الخطيب أن التعريف كاف لفض النزاع ، وإنهاء الخصومة ، إذ يكون تعيينا لموضع النزاع ، وبذلك يسير فى طريق مجتمع فيه الخصمان ، فلا تنشعب مسالكهما ، إذ فى تشعبها توسيع لهوة الخلاف ، وتطويل لمداها .

٢ - وعندما يرى أنه يستطيع استنباط الدليل من خواص الشيء ، إذ تكون هى مناط الحكم ، كما إذا ادعى أن العدل محمود ، فإنه يذكر صفاته وخواصه النافعة ، ويكون ذلك دليلاً على جدارته بالترفضيل وإعلاء مكانته .

٣ - وعندما يريد مدحاً أو ذماً لأحد من الناس ، فيذكر صفاته الحسنة ، كما رأيت فى وصف شبيب بن شيبه للخليفة مادحا .

٤ - أو يريد حضماً على أمر ، أو تنفيراً منه ، فإنه يذكر صفاته الحسنة إن أراد الأول ، وصفاته القبيحة إن أراد الثانى :

٥ - وعندما يريد إيضاح أمر أشكل فهمه على السامعين ، فيعمد إلى تعاريف كاشفة ، تجتذب القلوب إليه ، وتوضح للسامعين ما أشكل عليهم أمره .

٢ - العجزة :

المراد بالتجزئة أن تنج في الحكم إلى الجزئيات تتبعها بالحكم الذي تريده جزئياً جزئياً ، حتى تستخلص النتيجة التي تريدها ، ولها طريقتان :

إحداها - أن تتبع الجزئيات ، لتستنبط منها حكماً واحداً لكليهما . وذلك مثل قول قطري بن الفجاءة في وصف الدنيا :

« كم واثق بها قد أفجعت ، وذى طمأنينة إليها قد صرعت ، وذى نخوة قد ردتته ذليلاً ، وكم من ذى تاج قد كبته لليدين والفم ، سلطانها دول ، وغيتها رنق (١) ، وعنيها أجاج (٢) ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام (٣) ، وأسبابها رمام (٤) ، وقطافها سلع (٥) ، حياها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب (٦) ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحاكم العدل ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

ألا تراه في ذلك قد تتبع الجزئيات ، ليتخذ من حالها حكماً كلياً ، على ما في الدنيا ، فإنه إلى زوال ، ومن فيها إلى الموت ، والوقوف بين يدي الحاكم العدل ، وبأنها لا يصح أن تكون غاية العباد ، ومطلبهم الأسمى .

وثانيتهما - أن تتبع الجزئيات لتخص واحداً من بينها ، بحكم لزيادة الثنية على خصائصه ، ولحث على الأخذ به ، أو التنفير منه ، كقول جامع البحار للحجاج ، وقد شكك إليه سخط أهل العراق عليه : « أما إنهم لو أحبوك ،

(١) رنق : معناها كدر .

(٢) أجاج : معناها مر .

(٣) سمام : جمع سم .

(٤) الأنساب الخبال . ورمام : معناها بالية ، واهية .

(٥) القطاف : الثمر . وسلع : مر .

(٦) المحروب : المسلوب .

لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ،
فدع ما يبعدهم عنك ، إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية ممن دونك ،
تعطها ممن فورك ، وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك ،
فترى من هذا أنه استقرى أحواله حالا حالا ، ونفى عنها السبب في الكراهية ،
ثم قصر السبب على الحكم ، وأشار إليه إشارة في قوة التصريح ، ثم أخذ ينهيه
إلى ما يجب ، وما من شأنه إدناء القلوب النافرة :

وترى من ذلك كله أن التجزئة منهج خطابي ، يعتمد إليه الخطيب عندما
يريد المبالغة في إثبات الحكم ، والحرص على تأكيده ، وتقريره في نفوس
السامعين . وهي لا يعتمد إليها إلا في مقام الإطناب ، ولا يتجه الخطيب إليها
في مقام الإيجاز ، لأن غيرها يغني عنها ، ففي كلمة المحاربي السابقة لو كان
يقصد إلى الإيجاز ، لقال له من أول الأمر : إن السبب في السخط حكك ،
ثم بنى عليه ما أراد ، ولكنه بدأ بالثني عن الأحوال السابقة واحدة واحدة ،
ثم خص الحكم بالسبب ، فكان ذلك دالا على مزيد العناية به وذلك من نوع
الإطناب المفيد .

٣ - التعميم ثم التخصيص :

هذا مقابل التجزئة ، إذ يبدأ فيه بذكر العام ، ويحكم عليه بما يراد ،
ثم ينزل منه إلى الخاص . وذلك كثير على ألسنة الخطباء ، يبتدئون خطبهم
بقضايا كلية مسلم بها ، أو في منزلة المسلم به ، للتقرير ، ثم يخصصون بعد ذلك
بعض الجزئيات بالذكر ، وما الحكم الرائعة التي يبتدئ بها كثير من الخطباء
خطبهم ، إلا من ذلك النوع ، ولقد قال ابن سينا في هذا : « جملة ما يقال
في ذلك ، إن الخطباء قد اعتادوا أن يأتوا في صدر خطبهم بنظر عام في
مقصدهم ، لما يأتون في خطبهم » . ومن أبلغ التعميم ثم التخصيص قول النبي
صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « أما بعد أيها الناس ، اسمعوا مني ،
أبين لكم ، فإنني لا أدرى ، لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقعي هذا ،

أيها الناس ، إن دماءكم ، وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدها إلى الذي ائتمنه ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

فترأى صلى الله عليه وسلم ، يبتدئ بحكم عام ، فيسقط الربا كله ، ثم يخص ربا العباس بالإسقاط ، ليبين للناس أنه يبتدئ بتنفيذ الأحكام على أقرب الناس إليه ، فيكون في ذلك أسوة حسنة . ثم يبين أن دماء الجاهلية ساقطة ، وأول دم يسقطه دم من يعد هو من أوليائه ؛ ليكون أول الآخذين بحكم الدين . وفي هذا ترى الانتقال من العام إلى الخاص على أبلغ وجه .

ومن الابتداء بقضايا كلية مسلم بها ، لتكون تمهيداً للمطلوب قول الأحنف بن قيس في وفادته لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرص قائد الحرمان ، فاتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قتيلاً ولا قاتلاً ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود ، واستراحة الممتاح » .

٤ - العلة والمعلول :

التعليل روح الاستدلال ، فالعلة الباعثة على الفعل ، والغاية المنشودة منه ، طريق للحكم عليه بأنه خير ، أو شر ، وبأنه صحيح ، أو باطل ، وبأنه سائق ، أو غير سائق ؛ لذلك يعتمد الخطباء إلى ذكر البواعث على الأفعال ، والدوافع إليها ؛ ليتخذوا منها سنداً في الحكم عليها . وأخص من يفعل ذلك المحامون ، ورجال النيابة ، فإنهم يتخذون من الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيف العقوبة ، أو دليلاً على وجوب التشديد فيها ، ويتخذون من البواعث على الإقرار ، أو الإنكار دلائل موجبة

أوسالبة . ومن ذلك ما جاء في مرافعة أحد المحامين الفرنسيين في إثبات أن الدافع لإقرار المتهم ، يحمل على عدم الأخذ به ، فقد قال : تقولون إنه لا بد من الحكم ، لأنه أقر ، وتقولون إن هذا الإقرار حر ، أما رأيتم كيف وُصف لكم الشهود ذلك المنظر ؟ ألم يظهروا لكم التأثير الذي كان المتهم فريسته ؟ ألم يظهروه لكم يقاوم ، ويبكى ، ويقع على الأرض ، ويجذب شعر رأسه ؟ ألم تروا أن العذاب النفسى الذى وقع المتهم فريسته هو الذى دفعه ، لأن يقر ، ثم ما كاد ينهض على قدميه حتى لجأ لكل إنسان يحاول أن يسترد إقراره ، فأسرع إلى محاميه ، وطلب منه بكل الطرق أن يدفع به للمحاكمة ؛ وصار يصيح فى كل فرصة ، وفى كل مكان :

إننى برئ ، إننى برئ ... افرضوا يا حضرات المحلفين ، أن نظام التعذيب كان لا يزال قائماً ، وجاءكم المتهم وأثر الحديد فى يديه ، وقد أفلت من قسوة معذبه ، فهل كنتم تقولون له أنت مذنب ؛ لأنك اعترفت ؟ إنه يقول لكم : لقد رأيت دى يتساقط ، وسمعت عظامى تتحطم ، فغلبنى الألم . وقال الطيب إن الموت قاب قوسين أو أدنى ، فغلبنى الخوف ، فأقررت ، ولكنى برئ ؛ أكان منكم أنتم الذين تحاكمونا ، أو أنتم الذين تهموننا - أكان منكم من يقول لله : لقد أقررت وأنا أحكم عليك بإقرارك ؟ لا ، لا ، ليس فيكم هذا الشخص .

ففى هذا الدفاع القيم ، ترى أن ذلك اللدرة المحيد قد اتخذ علة الإقرار ، والداعى إليه حجة على بطلانه ، ودليلاً على أن الواجب عدم الأخذ به .

وقد يتجه الخطيب إلى المعلومات والآثار ؛ للدلالة على أن الفعل لا يضح أن يقع ، وإن وقع ، فهو محل اللوم ، بحسب الإقلاع عنه ، وأخذ الأبهة لمقاومة من هم واقعون فيه ، أو من يدعون إليه ، ويحثون عليه .

ومن ذلك خطبة ديموستين التى يبين لليونان فيها آثار فتح فيليب المقدونى لبلادهم ؛ وهى التضييق على الحرية ، وموت الديمقراطية اليونانية :

وأقد قال فى تلك الخطبة : إن أخشى ما أخشاه فيلبس ، ومقت ما عيقته ، هو حريتنا ، هو نظامنا الديمقراطى ؛ فلكنى يقضى على

هذه الحرية ، وهذا النظام ، يهيج جميع شراكه ، ويدبر جميع تدابير ، أو
ليس يجرى على مبدأ واحد في كل أعماله هذه ؟ إنه يعرف تمام المعرفة ، أنه
لو أخضع بلاد الإغريق كافة ، وعملها بفتوحه ، فإنه يظل غير آمن ، مادامت
ديمقراطيتكم صحيحة ، لم تمس ، وهو يعرف أنه إذا أصابته هزيمة من تلك
الهزائم التي تقدرها الأقدار لبني إنسان ، فإن جميع الأمم التي قرنها عنوة إلى نيره
تسارع إلى الانضواء إليكم . . . أفي العالم أمة مقهورة تحتاج إلى رد حريتها
إليها ؟ هاكم أثينا ، وإنما ذكر التضيق على الحرية ، وضياح الديمقراطية وحدهما ؛
لأنهما أعز شيء عند اليونان ، فذكرهم بهما ؛ ليحفز همهم إلى مقاومة فيليب ،
ومحاربه ، فترى من هذا أنه استخدم الآثار في الاستدلال على وجوب
المقاومة ، ورد الأعداء ، وترى كيف استخدم العلول في الاستدلال على
المطلوب .

٥ - المقابلة :

بين شيئين ؛ ليبين الحق فيهما ؛ فإن الأشياء تتميز بأضدادها وتعرف
بمناظرتها . وهي معين للاستدلال الخطابي ، وفوق ذلك تعطى الكلام
جلاوة ، ورواقا ، ويتخذ الخطباء منها حججهم بطريقتين .

(إحداهما) أن يذكر الخطيب الشيء ومقابله ؛ ويذكر صفاتهما ؛
ومن ذلك يتبين الحسن منهما كما قال الإمام علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس
في فضل الصبر « إن صيرت عليك القدر ، وأنت مأجور ، وإن جرعت
جرى عليك القدر ، وأنت موزور » .

(ثانيتهما) أن يبرهن على بطلان المقابل ؛ فيثبت المطلوب كما فعل
الإمام علي رضي الله عنه عندما ناقشه الجوارح ؛ واعترضوا عليه بإباحة أموال
أهل الجمل دون النساء والذرية ؛ فقد قال : إنما أبحث لكم أموالهم بدلا
عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم ؛ والنساء
والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ، ولم يكن

منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر . وبعد لو أبحث لكم النساء أيكم يأخذ عائشة في سهمه ؟ فحجل القوم . فترى من هذا كيف أفحهم ذلك الخطيب العظيم ؛ إذ أبطل لهم دعواهم سبي النساء بتلك الحججة البالغة ؛ وهي أن السبي لو كان حقا . لكان من الحق سبي عائشة أم المؤمنين ، ومثل ذلك لا يعقل من مؤمن . وإذا بطل هذا ، ثبتت صحة ما فعل ، وهو منع سبي النساء والذرية .

ولا يعمد الخطيب في إثبات دعواه بإبطال نقيضها — إلا إذا كان إبطال النقيض أسهل عليه ، وأيسر من إثبات الدعوى ، من أول الأمر . وفي الحق أن تلك كلها أسلحة لديه ، يستعمل منها ما يراه أسهل ، وأدنى إلى الإقناع ، وأقرب إلى الإجابة ، وأحرى بالتأثير ، وامتلاك ناصية القول .

٦ — التشابه وضرب الأمثال :

(١) يعمد الخطباء إلى تقريب الأمور التي يدعون إليها من نفوس الجماهير ؛ ليأخذوها قضية مسلمة ، لا يناقشون فيها ، ولا ينظرون إليها نظرة فاحصة كاشفة ؛ ويتخذون لذلك طريقا ، من سلكه وصل إلى غرضه ، وهو عقد صلة بين ما يريدون وأمر معروف ، ويسمى ذلك التشابه أو المشابهة أو التمثيل ، وهو أن يقيس الأمر الذي يدعو إليه على أمر معروف عندهم ؛ مقبول لديهم ؛ فيقبلوا الجديد لقبول القديم ؛ وينسحب شرف القديم شرفا للحديث ، أو يعمد إلى الموازنة بين الحال التي يدعو جماعته إليها ، والحال التي هي في مكان المسلم بها عند جماعات أخرى ؛ كما فعل المغفور له « مصطفى كامل » في بعض خطبه الحماسية إذ قال : لقوا أيها السادة بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة ، تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ، وينوذ عن حوض بلاده — أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه ، بل هو يرضاهما ضحية للوطن ، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمها لإعلاء شأن بلاده ، وبعد الموت لأجل الوطن حياة ، دونها الحياة البشرية ، ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصري على هذا الطراز ، ووطنه أجمل الأوطان ، وأحقها تمثيل هذه الحجة الشريفة الطاهرة .

ومن أبلغ أنواع التشابه الخطائي قول أبي عبيدة عامر بن الجراح ،
ينذر أهل الشام عند فتح بلادهم : لا يغرنكم عظم مدينتكم ، وتشديد
بنيانكم ، وكثرة زادكم ، وهول أجسامكم ؛ فإننا نزلنا بلاداً أخصب
من بلادكم ، وفنحنا أمصاراً ممصرة ، ومدائن أحرز من مدينتكم ،
وخرج غلبنا أعلاج (١) موفورة أقواتهم ، مدرعون ، مرسون ، فصلد
نجمهم ، وذهب أماننا ريحهم ، ورددناهم على الأعقاب ، لا يلوى أولهم
على آخرهم .

(ب) وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البياني المعروف ، لالتحسين الكلام
وتزيينه ، بل للاستدلال الخطائي ، وتقريب المعاني التي يريد بها ، وسوق ذلك
سوق البرهان ، وذلك يكون عندما يتقدح الرأي في النفس ويستولى عليها
استيلاء تاماً ، ويرى صاحبه أن النفوس تفهم بالتشبيه ما حاك في الفؤاد ،
وجال في القلب ، واستولى على النفس .

ومن أبلغ ذلك ما جاء على ألسنة بعض الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ،
عندما استفتاهم الفاروق عمر رضي الله عنه فيما يستحقه الجند من التركة .
مع الأخوة .

وقد قال زيد بن ثابت في تأييد رأيه من أن الأخوة أولى (٢) : لو أن
شجرة تشعب من أصلها غصن ، ثم تشعب في ذلك الغصن خوطان (٣) ؛ وذلك
الغصن يجمع الخوطين دون الأصل ، ويغذوهما ؛ ألا ترى يا أمير المؤمنين ،
أن أحد الخوطين أقرب إلى أخيه ، منه إلى الأصل .

(١) الملقب : الرجل من المعجم غير المسلمين .

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم .

(٣) الخوط : الغصن الناعم .

(ج) وقد يتجه بعض الخطباء إلى ضرب الأمثال ؛ ليقربوا إلى الناس ما يريدون من الأمور ، فيشبهون حال جماعتهم أو حالهم بحال مفروضة للجامع يجمعها ، كما فعل عمر رضي الله عنه في إحدى خطبه في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ قال :

أيها الناس اتقوا الله في سريرتكم وعلايتكم ، وأمروا بالمعروف ، وانهاؤا عن المنكر ، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة ، فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه ، فنظر إليه أصحابه ، فمنعوه ، فقال هو موضعي ولي أن أحكم فيه ، فإن أخذ على يده سلم ، وسلموا ، وإن تركوه هلك ، وهلكوا معه . وهذا مثل ضربته لكم ، رحمنا الله ، وإياكم .

وقد يقول قائل أين هذا من الاستدلال وسوق البراهين ؟ ونقول في الإجابة عن هذا : إن ذلك المثل قد تضمن أبلغ أنواع الاحتجاج ؛ فهو قد بين لهم بطريقة قريبة من نفوسهم ، موضحة لعقولهم ، خالية من جفاف المنطق ، أن ترك الأمر بالمعروف في الأمة مؤد إلى فساد الأمر ، واضطراب حاله ، والضرر حينئذ لا يقع على مرتكب الإثم وحده ؛ بل يعم ولا يخص . وذلك دليل موضح لوجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وقد ذكره الفاروق في أبلغ عبارة ، وأوجز بيان ، وأقرب القول إلى النفوس والمدارك .

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته ، بذكر مثل خيالي ، لا يتصور العقل وقوعه ، كذلك الأمثال التي نجى على ألسنة البهائم ، ومن ذلك ما جاء في بعض خطب الإمام على رضي الله عنه ، فقد قال :

إنما مثلي ، ومثل عثمان ، كمثل أثوار ثلاثة كبن في أجمة : أبيض ، وأسود ، وأحمر ، معهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شيء ؛ لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا بدل عنيئنا في

أجتمنا إلا الثور الأبيض ؛ فإن لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركنا
أكله ، صفت لنا الأجمة . فقالا : دونك ، فكله ، فأكله فلما مضت أيام ،
قال للأحمر : لوني على لونك ؛ فدعني أكل الأسود ؛ لتصفولنا الأجمة ،
فقال ، دونك ، فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني أكلك ، لا محالة ،
فقال دعني أنادي ثلاثا ، فقال : افعل - فنادى . ألا إني أكلت يوم أكل الثور
الأبيض ، ثم قال على رافعا صوته ألا إني وهنت يوم قتل عثمان .

وذلك النوع من الأمثال ، يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر في بعض كلامه
فلا يصرح ببعض الأشخاص ، أو يصور المعاني خالية من كل علاقة لها
بأشخاص ؛ أو يريد بها تقريب الأفكار من النفوس ، مع تمليح الكلام وتزيينه .

المواضع العرضية

هي مصادر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع ؛ وذلك لأن المخاطب أحيانا
لا يدرك ما في ذات الموضوع من خصائص ، ومزايا ، وثمرات ؛ فيصعب
عليه أن يقتنع بأدلة ، تستمد قوتها من تلك الخصائص ، فيستعان على إقناعه
بأمور خارجية ؛ هي عنده صادقة ، وهو لها مدعن ، فيبين له الخطيب أن
تلك الأمور تؤيده ، ونحث على ما يدعوا إليه ؛ فيسلم بما يقدم له من غير جدل ،
ويدعن من غير نقاش ؛ لأن الأمر أحيل على ما هو عنده في مرتبة التقديس .
وأكثر تلك المواضع قوة أو أثرا أمور منها :

١- الدين :

إذ هو أكثر الأمور سيطرة على القلوب ، خصوصا قلوب العامة ،
فإنه لهم المرشد الأمين ، والمعزى لمن يرحب بهم الآلام ، والمسلئ لمن
نزلت بهم الهوم ، والمهذب لمن لا معلم له ، والمربي للوجدان ، والموقف
للضائر ، والمتدينون لا يخضعون لشيء كما يخضعون لدينهم ، ولا يصدعون

إلا بحكمه ، فإذا أيد خطيب في جماعة متدينة قضاياه بالدين ، وربط بينها وبين دينها صلة ، ووثق عرا الألفة بين ما يدعو إليه وبين ذلك الدين أجابت ندائه ، ولبته في حماسة وقوة وشعور دافق وحمية ، وخطباء العرب في صدر الإسلام ، كانوا يحلون خطبهم بشيء من القرآن الكريم ، والحديث الشريف لتكون لهم الحجة البالغة ؛ إذ كانوا مخاطبون قوما كل مجدهم جاء من الدين الإسلامي الحكيم ، ولأن القرآن الكريم في منزلة من البلاغة دونها أى كلام ، والحديث الشريف في المنزلة الكاملة لبلاغة البشر ، وسيجىء إليك ذلك واضحا في تاريخ الخطابة .

وقد عد الاستشهاد بالدين من المواضع الخارجة ؛ لأنه ليس من ذات الموضوع ولا مشتقا من خصائصه ، ولكن جاء شيء خارج عنه ، وهو يفيد اليقين والجزم ، وإن كان من شيء خارج عن الموضوع ، لأن مسائل الدين في مكانة من اليقين ، لا تعد لها مكانة ، فإذا استشهد به استشهدا صادقا ، حلت دعوى الخطيب في القلب ، فلا تنزع منه ، لأنها تصبح جزءا من أوامر الدين ، فتكسب منه تقديساً .

٢ - العادات :

كل جماعة من الناس لها عادات تشودها وتسيطر عليها ، وهي متمكنة من نفوسها ، ومستولية عليها ، وقد قال العلامة باسكال في سيطرة العادات على نفوس الناس ، وقوة ما يشتق منها من أدلة : ماذا تكون مبادئنا الفطرية ، إذا لم تصدر عن العادة ، فالعادة هي طبيعة ثانية تقوض أركان الأولى ومنها تأخذ أشد أدلتنا قوة ، وأكثرها فيضا ، وهي التي تعين وجهة النفس دون أن يفكر الإنسان ؛ وبها يصبح الانسان نصرانيا ، أو وثنيا ، أو تركيا ، أو محترفا ، أو جنديا .. الخ ، ثم بها تستعين النفس وقما تعثر على مكان الحقيقة .

وقال العلامة جوستاف لوبون : لو أن قدرة خارجة جعلت الإنسان أو الشعب يهرب من تأثير عاداته ، لأصاب الفالاج حياته فجأة ، لأن العادة هي التي تملئ علينا كل يوم ما يجب أن نقوله ، ونفعله ، ونفكر فيه .

وإذا كان لعادات الأمم هذه القوة ، وذلك السلطان على القلوب ؛ فيجب أن يعتمد عليها الخطيب في مقام التأثير ؛ بأن يقرب ما يدعو إليه ، مما يalfون من عادات ، وما اصطالحوا عليه من عرف ؛ ليسكنوا إلى الأمر ، ويخضعوا له ، ويطمثوا إليه ؛ لأن إقبال الناس يكون شديداً على الأمور التي تكون من جنس ما يalfون .

وقد كان الأحنف بن قيس وهو من أبلغ البلغاء ، والخطباء المسودين ، ممن يجيئون إلى قلوب العامة من ناحية عاداتهم وما يalfون ، قيل له : ثم سدت ؟ قال : لو أن الناس كرهوا الماء ما شربته . ومعنى هذا أنه يحترم العرف ، ويعرف سلطانه ؛ فهو يتخذ طريقاً لسيادته ، ولتأثير بيانه .

ومن الخطباء الذين كانوا يلجأون إلى العادات أحياناً في التأثير المغفور له سعد زغلول « باشا » ؛ ومن ذلك خطبته في الأزهر الشريف ، إذ جاء فيها :

جئت اليوم لأؤدى في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة ، ولأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة ، تلقيت فيه مبدأ الاستقلال ؛ لأن طريقته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس ؛ فالتلميذ يختار شيخه والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل تابع فيه .

الأنراه في هذا أخذ يستدرج سامعيه بتقريب ما يرمى إليه (وهو نشر فكرة الاستقلال) مما ألفوه ، وما يعرفونه ، وما اعتادوه :

٣ - تتبع آثار السلف :

لآثار سلف الأمة قوة في نفوس الأحياء منها ؛ وسلطان كبير في قلوبهم ، وقد كان المشركون ، لا يجدون أمراً يتخذونه تكأة لخالفه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أنهم يتبعون الآباء ؛ إذ كانوا يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » . وما كان هؤلاء البلغاء

الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم خصمون ، يعمدون إلى ذلك الاحتجاج ، إلا لما يعرفونه من تأثير آراء السلف في الخلف ، ولو كان الأولون على ضلال ، لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون .

وأقوى الأفكار أثرا في النفوس ، ما جاء متصلا بآثار السلف ، مؤثلا معها .

قال العلامة جوستاف لوبيون : تقدم علم تركيب الأجسام ، من يوم أن بين علم التكوين مقدار تأثير الماضي في تطور الكائنات ؛ وسيتقدم علم التاريخ أيضا حينما ينتشر هذا ؛ لأن انتشاره لم يعم ؛ بدليل أن كثيرا من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي ؛ ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها ، وتنشئ نفسها من جديد غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده ، وفاتهم أن الأمة جسم منظم ، أوجده الماضي ، فهي كغيرها من الأجسام ، لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور ، إلا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل .

ولذا يحسن أن يقرب الخطيب بين فكرته ، وبين ما أثر عن سلف الجماعة التي يخاطبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما دام سلف تلك الجماعة لم يشتهروا بباطل ، ولم يعرفوا بسوء هـ

ومن أحسن الخطباء الذين سلكوا ذلك المسلك الحسن البصري ، فقد كان في خطبه بنجه في تأييد أفكاره إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عنهم .

ومن خطبه في ذلك قوله : أيها الناس ، إن لله عبادا قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا الأيام القلائل ، لما رجوه في الدهور الأطول ؛ أما الليل فقامعون على أقدامهم يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون في فكاك رقابهم ، تجرى من خشية دموعهم ، وتحقق من الحرف قلوبهم ، وأما النهار فحلماء أتقياء أخفاء ، يحسبهم الجاهل .

أغنياء من التعفف ، تخافهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض ؛ ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ؛ وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم ، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تغذبوا على سيئاتكم . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

٤ - أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة :

وذلك باب واسع من الاستدلال ، يتجه إليه الخطيب ليحلى به خطبته ؛ فان لكلام الحكماء المشهورين ، والأئمة المعروفين روعة وهزة في النفس ، وهي ثمرات تجاربهم ، ومخزون أفكارهم ، وهي في منزلة المسلم بها ؛ وكثير من الخطباء قديما وحديثا يتدثرون خطبهم بحكمة مشهورة ، أو قول حكيم عرف بالعلم ، والفكر الناضج ، ويحملون خطبهم بذلك النوع من الاستدلال .

ومن ذلك قول الحسن البصري في دعوة المسلمين إلى التآزر والتناصح ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :

إن المسلم مرآة أخيه المسلم ، يبصره عيبه ، ويغفر له ذنبه ، قد كان من قبلكم من السلف الصالح يلقي الرجل الرجل ، فيقول يا أخي ما كل ذنوبي أبصر ، ولا كل عيوبي أعرف ، فإذا رأيت خيرا فرتني ، وإذا رأيت شرا فأنهني ، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول . رحم الله امرأ أهدي إلينا مساوينا .

ومن أبلغ الكلام الخطابي المشتمل على ذلك النوع من الاستدلال ، وإن لم يجه في خطبة ، قول المسعودي في حب الأوطان :

إن من علامة الرشيد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط الرأس تواقفة . وقد ذكرت العلماء : أن من علامة وفاء المرء ، ودوام عهده ، حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه .

قال ابن الزبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم ، أقتنع منهم بأوطانهم .
وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الأوطان ، وقالت الهند : حرمة
بلدك عليك مثل حرمة أبويك ، لأن غذاءك منهما وغذاؤهما منه ، وقال
آخرون : أولى البلدان بلد رضعت مائه ، وطعمت غذاءه .

وقال آخر : ميلك إلى موضع مولدك من كرم محنتك . وقال بقراط :
يذاوي كل عليل بعقاقير أرضه ؛ لأن الطبيعة تتطاع بهوائها ؛ وتنزع بغذاها .

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها . وقال جالينوس : يروح
العليل بنسيم أرضه كما تثوب الجنة ببيل القطر ، وللنفوس حنين إلى الأوطان ،
وإن لم يطب ماؤها وهوائها ؛ ولذا يقول بعض الأعراب يصف وطنه .

وكنا ألفناها ، ولم تك مألفا وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها هواء ولا ماء ، ولكنها - وطن

٥ — الشهادات والمواثيق :

وهي الركن الركين للاستدلال في الخطابة القضائية ؛ فان الشهادات باب
واسع للتقاضى ، وهي طريق القرائن ، والوسائل لمعرفة الأحوال . وفي بعض
القضايا تكون هي نقطة الحوار ، وسبب الخلاف ، وتباعد مطارح الأنظار ،
هذا يعمل على تزييفها ، وذلك يعمل على تأييدها .

وأما اليهود فقد قال فيها ابن سينا : إنها شريعة المتعاهدين ؛
فكلاهما مأخوذ بها ، مقيد بالسير في سبيلها ، مفعم إذا قدمت إليه ، أو ذكر
بها ؛ إذ فيها فصل الخطاب ؛ ولذا إذا اتخذها أحد الخصمين دليلا ، وكان
صادقا ، لحن بالحجة ، ووصل إلى الغاية ، ونال المطلوب .

والشهادات والمواثيق من المواضع العرضية ، لأنها لم تشتق من
خصائص الموضوع ، وذاته ، بل هي أمور خارجة عنه ، مؤيدة له ،
مثبتة لصدق الحكم ، وإن لم تكن من ذات الموضوع ، وليست علة لوجوده ،
ولا خاصة من خواصه .

ومن الخطب العامة التي كانت الشهادة ركنها ؛ خطبة زياد بن أبيه عندما شهد الشهود بنسبه من أبي سفيان فقد قال : هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين : ما بلغكم وشهد الشهود ما سمعتم ؛ فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا . وأما عبيد فإنما هو والد مبرور وريب مشكور .

٦ - القوانين :

وهي الحجة الأولى في الخطب القضائية ؛ إذ كلا المتنازعين يجتهد في أن يتخذ من القانون حجة لدعواه ؛ أو طريقا للخلاص من ورطة الاتهام . ويريد كلاهما أن يفسره تفسيرا يتفق مع غرضه ومقصده ، ومصلحة من نصب نفسه مدافعا عنه . والخطب التي كان القانون محورا لاستدلال فيها ، والحجة المنشودة والغاية المقصودة كثيرة ، وكل مرافعات النيابة والمحامين من ذلك النوع من الخطب ، وتلك الطريقة من الاستدلال .

وكانت القوانين من المواضع العرضية لأنها ليست وصفا ملازما للموضوع ، ولا خاصة له ، ولا علة لوجوده ، ولكنها أمر خارج عنه حاكم عليه ، مرتب على الفعل آثارا حسنة ، أو آثارا سيئة لمن أوقعه . ومن أبلغ الخطب القضائية التي اشتملت على الاستدلال القانوني . مرافعة نائب عام فرنسي في إثبات الجريمة على رجل متهم بقتل نفسين إذ قال : إنني أمام هاتين الجثتين ، أمام هذين الجرحين الناغرين أشعر بالنفور والاشمئزاز بملآن نفسي ، وبخيل إلى أني أرى حول تلك الدار الحزينة بجوار ذلك الزوج الذي يدعو زوجه ؛ وتلك الطفلة التي تنادى أمها ، فلا تجيب ، مدينة بأسرها في حزن شامل عام ، وأرى ذلك المشهد الرهيب الذي تبعه أهل البلد جميعا يشاركون أسرة الفقيد في حزنها ، ولكن لا ، لا ، إني أشيح بوجهي عن هذا المنظر الحزن ، وأخلو إلى نفسي أسائلها ، ورائدي مهمتنا المشتركة المقدسة ، وأوجه تبعة خطيرة ، فلا أشعر بأقل شك أو تردد ، وأسمع صوت ضميري ، يقول لي : إن هذا الرجل مذنب ، مذنب أمام الله .

يومئذ أمام الناس ، ومذنب لا عذر له . وهذه الجرائم الخطيرة تقتضى عقوبة زاجرة رادعة ، فالعدالة تقتضى والقانون ينص عليها ، ومصلحة المجتمع تدعو إليها ، ويقدر ما أنا مؤمن بأنى أؤدى واجبى حين أطلب منكم تطبيق تلك العقوبة الكبرى ، أوقن بأنكم تؤدون واجبككم ، حين تنطقون بها .

هذه المواضع العرضية بين يدى الخطيب يشجعه إليها ، إن لم تجده فى مهمته المواضع الذاتية ، أو وجد هذه أقرب مسلكا من تلك ، وأهدى ، سيلا وأكثر تأليفا . وقد يجمع بين الطريقتين إن اقتضى المقام ، وساعدت الأحوال ، وتبيأت الأسباب .

وعند الاختصار على العرضية ، يجب أن يختار أحرارها بإظهار المطلوب ، وأقربها إلى أفهام الجمهور . (إن كان يخاطب الجمهور) ، وأحسنها وقعا فى النفوس . ويجب عليه الابتعاد عما يستغلق على العقول إدراكه ، أو يصعب فهمه ، إلا إذا كان يخاطب قوما ، تغنيهم الإشارة عن العبارة ، والتلويح عن التصريح ؛ فلا مانع من أن يخاطب بالدقيق العميق ؛ ليكون فى ذلك متعة فكرية لهم . والله ولى التوفيق .

الأداب الخطابية

الآداب الخطابية هى التى يجب أن يتحلى بها الخطيب عند اللقاء الخطبة ، وما يجب أن يتخذه فى سياسة السامعين ، وملاحظة أحوالهم . وهى على ذلك تحسان : قسم يتعلق بحاله هو عند الخطبة ، وقسم يتعلق بالسامعين ، وما يجب أن يطب له بما أوتى من عقل أريب .

آداب الخطيب الخاصة به :

يجب أن يظهر فى الخطيب عند الخطبة ثلاثة مظاهر :

١ - سداد رأى .

٢ - صدق اللهجة .

٣ - التودد للسامعين .

١ - فأما سداد الرأي ، فيكون بدراسته دراسة تامة للموضوع الذي يخطب فيه ، فإن الرأي المحكم لا يكون إلا بدراسة عميقة ، وإحاطة تامة ، وإطلاع واسع ، وعلم غزير ، وفكر قوي . وليس معنى ذلك أنه لا يخطب إلا إذا كان محضراً ، مهيباً للكلام ، بل المراد ألا يتكلم إلا في موضوع سبق له دراسته ؛ والإحاطة به ، حتى يكون كلامه مسدداً ؛ سواء أكان يلقي الخطبة بعد تهيئة ، أم يلقي الكلام ارتجالاً من غير سابقة تحضير ؛ فإن المرجح لا يحسن ارتجاله في كل الأحوال ، بل لا يحسن إلا إذا ألقى كلاماً قيمياً فيه آراء محكمة ؛ ولا يتم له ذلك ؛ إلا إذا كانت له سابقة إطلاع على ذلك الموضوع ، أو ماله به علاقة تمكنه من أن يدلي فيه برأى قيم له شأن ؛ فعلي الخطيب ألا يخوض في حديث ليس له به علم ؛ حتى لا يشط ؛ فيبدى رأياً فطيراً ؛ والرأي الفطير مبسر لا ينال الحق من كل نواحيه ، وقد يكون مع الحق على طرفي نقيض . ومما يساعد على تكوين الرأي الناضج بعد الدراسة التامة . سلامة الفكر من هم قاطع ، وغيم شاغل ؛ لأن من شغل بالهم لا يخلص له رأى ولا فكر ، وقد قال الغزالي : إن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ، ولا يستقيم له خاطر ، وكان كسرى إذا دهمه أمر بعث إلى مزاربته ؛ فاستشارهم ، فإذا قصروا بالرأى ، ضرب قهارمته ، وقال : أبطأتم بأرزاقيهم ؛ فأخطئوا في آرائهم . وقال بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع . فصفاء الذهن وصحوه لها أثرهما ، في إحكام الرأي ، وإجادة اللفظ .

من هذا علمت في الجملة ، كيف ينبغي للخطيب رأى سديد في الموضوع الذي يخطب فيه ؟ ثم اعلم أن سداد الرأي دعامة الخطب الأولى ؛ لكي (م. ٤) - الخطابة .

يثق الجمهور بفكره ، ويتجه إلى رأيه . ويرى بعض (١) علماء الاجتماع أن سداد الرأي ، وقربه من الحق ، ليسا شرطا في تأثير الخطيب ؛ بل يزعم ذلك القائل : أن قواد الجماعات ، وخطباءها يجب أن تغلب عاطفتهم عقولهم ؛ وأنهم ليسوا إلا مسحورين بفكرة قريبة من الحق ، أو نائية عنه ، وقد تكون معادية له . ولو سلمنا ذلك القول ، لكان على الخطيب أن يدرس الفكرة التي يدعو إليها وأن يحيط بها خبرا ، وأن تكون الجماعة واثقة به ، مطمئنة إليه ، معتقدة أن ما يقول هو الحق المبين ، وإن كان في الواقع باطلا ، فالغاية المنشودة ألا يكون كلامه في ذاته حقا ؛ بل أن يظهر كذلك في نظر السامعين ، والمظاهر التي ترى الناس أن الأمر حق كثيرة منها :

- ١ — أن يورد الأمر في صيغة جلية واضحة قريبة من أفهامهم ؛ مصورة لهم بصور تثير خيالهم ، وتوضح لهم المبهم .
- ٢ — وأن يورد الأدلة التي يراها موجدة للجزم في نفوسهم ؛ وإن لم توجد الجزم في ذاتها .

٣ — وأن يجتهد في استدراك ما عساه يرد عليه من اعتراض قبل إيرادها كما قال النائب العمومي في مرافعته في قضية مقتل بطرس « باشا » غالى ؛ وقد توقع أن الدفاع سيطنع في تقرير الأطباء ، لم يكن من قصدى أن أطيّل الكلام في الجريمة من حيث ثبوت أركانها ؛ فإن المتهم مجل على نفسه بإقراره سواء في التحقيق ، أم أمام قاضي الإحالة أنه قتل المرحوم بطرس « باشا » عمدا بعد سبق لإصرار على القتل والترصد له ؛ ولكن الدفاع أسمعنا في الجلسة الماضية ثلاثة وثلاثين شاهدا ، سمعت شهادتهم ، وفكرت فيها ، فألفيتها نحوهم من بعيد حول نقط يريد الدفاع أن يدرأ بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة .

(١) زعم هذا الرأي في العصور الحديثة جوستاف لوبون قال في كتابه روح الاجتماع : ليس القواد غالبا من أهل الرأي والحصانة بل هم من أهل العمل والإقدام وهم قليلو التبصر على أنهم ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراء .

خاصة ، وتحفظ بها الجنائية من جهة عامة ؛ فكان لابد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين ، وإن كنا لا نرى هذه الطريقة التي يسلكها الدفاع ، إلا بعيدة جداً في التأدية إلى هذه الغاية . إذا نظرنا نظرة عامة إلى أقوال الأطباء الذين جاء بهم الدفاع ؛ ليتوصل بشهادتهم إلى إثبات أن الجاني غير مسئول عن نتيجة جنايته (وهى القتل) لا يسعنا غير القول بأننا لا يمكننا أن نجعل لها من الأثر ما يعارض شهادة أطباء الاتهام ؛ نحن لا نريد بذلك أن نعرض بكفاءة فريق وتفوق الفريق الآخر عليه فيها ، ولا سيما ما يقال ، من أن هناك أسباباً بعثت إلى هذا الخلف بين الفريقين ، حتى في الأشياء المحسوسة ، فنحن نجعل كلا الفريقين ، ونحترم لكل فريق رأيه من الوجهة العلمية .

٢ - صدق اللهجة :

وهو أن يظهر الخطيب مخلصاً فيما يدعو إليه ، حريصاً على الحقيقة فيما يعمل ، فإنه إن ظهر كذلك ، وثق الناس به ، وصدقوه فيما يدعو إليه ، وأحسوا بأنه شريف تجب إجابته لشرفه وشرف ما يدعو إليه ، ومن أجل أن يكون الإخلاص بادياً ، يجب أن يكون من حاله ما يطابق مقاله ، فلا يتجافى عمله عن قوله ، بل يكون أكثر الناس أخذاً بقوله ، كما فعل طارق بن زياد عندما دعا جيشه إلى الإقدام على القتال ولو كان فيه الموت ، إذ جاء في خطبته : « وإن انتهز الفرصة فية للممكة إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، إلا وأنا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالألفة الألد طويلاً . »

ومما يظهر الحرص على الحقيقة ، والاتجاه إليها ، ألا يسرف في مدح ولا ذم ، ولا في وعد ، ولا وعيد ، فإن الإسراف مظنة الكذب ، والاعتدال مظنة الصدق ، ومن أطلق لسانه بالوعد أو الوعيد ، تخلف عمله عن قوله ، واستنقل العمل ، حيث سهل عليه القول . ومما يظهر استقامة العمل الابتعاد عن هجر القول . وقد قال الماوردي في آداب المتكلم : « أن يتجافى هجر القول ،

ومستقيج الكلام ، وليعدل إلى الكتابة عما يستقيح ضريحه ، ويستعجن فصيحته ،
ليبلغ الغرض ولسانه نزه ، وأدبه مصون . وإن نراه اللسان تدل في عرف الجماهير
على نراه القلب ، واستقامة العمل ؛ لذلك يجب على الخطيب ألا يكون فاحشا
في تعبيره ، ولا متجها إلى الألفاظ المايحة في خطبه لأنه إن فعل ذلك ، دل به
على عدم استقامة عمله ، وذلك يمنع صدق لهجته ، وتصديقه في خطبته .

ومن أمثل الخطب الواضح فيها صدق اللهجة: خطبة عمر بن عبد العزيز التي
قال فيها : أيها الناس الحقوا ببلادكم ، فإن أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم ،
ألا وإن استعملت عليكم رجلا ، لا أقول هم خياركم ، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة ،
فلا إذن له على (١) ومن لا يظلمه فلا أرينه . ألا وإن منعت نفسي وأهل بيتي
هذا المال ، فإن ضننت به عنكم إلى إذن لضنين . والله لولا أن أنعش سنة ،
أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فواقا (٢) .

٣ - التودد من السامعين :

ويكون بالتواضع لهم ، وأن يكون ممن يالفون ، ويؤلفون ؛ فلا يكون
جافيا خشنا قاسيا ، وأن يمدح الجماعة التي يخاطبها ، ويذكرها بأحسن صفاتها .
وقد قال ابن سينا : من رحم كان أدنى إلى التصديق ، ومن أحب كان أخلق
بأن يميل إلى معاونة المحبوب ، ومن مدح أو أعجب بنفسه ، كان ميله إلى مادحه
الذي أعجبه بنفسه . وتصديقه إياه أكثر ، ومن أغضب على إنسان كان أخرى
أن يكذبه ، ومن تمكنت منه القسوة . كان أجدر ألا يدعن للرحمة .

ويجب على الخطيب في تودده للجماهير أن يبين لهم أنه يسعى لمصلحتهم وأنه
يؤثرهم على نفسه ، وأن يظهر أنه لا غرض له شخصي ، فإن الغرض إذا ظهر
من الخطيب ، جعل الرية تتطرق إلى قوله .

(١) معنى هذه الجملة والتي تليها أن من ظلم يدخل عليه من غير إذن . ومن لم يظلم لا يصح
أن يراه لأنه لا يفتح بابه إلا للمظلوم .
(٢) الفواق هنا الزمن بين فتحة اليد وقبضتها ، والمراد أن أحببت أن أعيش زمنا يسيرا
تد فواق .

ومن الخطيب التي اجتهد الخطيب فيها في التودد ، ونفى الغرض الشخصي عن نفسه ، خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك التي قال فيها : أيها الناس والله ما خرجت أشرا ، ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرء نفسي وإني لظلوم لها ، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي ، ولكني خرجت غضبا لله ودينه ، وداعيا إلى الله وسنة نبيه ، لما هدمت معالم الهدى ، وأطفئ نور التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدق بالثواب والعقاب ، وأنه لابن عمي في النسب ، وكفني في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد بحول الله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

آداب الخطيب مع السامعين :

صناعة الخطيب من شأنها الاتصال بنفوس من يخاطبهم ، والقرب من قلوبهم ، والناس مختلفون ، مشارب وعادات ، وأخلاقا وسنا ، ومهنة ومرتبة ، ولكل طائفة من الناس أحوال ، تقتضي نوعا من الخطاب ، لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى ؛ وعلى الخطيب أن يلبس لكل حان لبوسها ، ويعالج كل طائفة بأنجح دواء لها ؛ ليستقيم له الطريق ، ويصل إلى غرضه ؛ فالشباب يثير حماسهم ويوقظ قلوبهم ، ويدفع إلى إقناعهم كلام لا يثير عاطفة الشيوخ ؛ لأن المناسب لهؤلاء نوع غيره ، فعلى الخطيب أن يقصد إلى النوع الذي يوافق جماعته شيوخا ، أو شبابا .

والأغنياء يرضى كبرياءهم نوع من الكلام ، لا يقتضيه مقام الخطبة لمن ليسوا كذلك ، والعلماء يجتنبهمثناء الحسن ، وطيب الأحداث ، والتوقير والتعظيم ، وأن يكون الكلام الذي يلقي عليهم أقرب إلى العمق والدقة ليسترعى انتباههم ، فعلى الخطيب أن يعرف ذلك ، ليصل إلى موضع التأثير في قلوبهم . والشخص الشديد التدين يرضيه السمى والوقار من الخطيب ؛ فعلى هذا ألا يظهر

بين يديه إلا وقوراً ظاهر التمسك بالدين وزوجه ، لكي ينال تقديره ، ويجتذب نفسه . ونحاطبة الرؤساء تقتضى تجملاً بالحياء ورزاة وهذوءاً وابتعاداً عن مظاهر التملق المزرى ، لكيلا ينتذل ، كما تقتضى ابتعاداً عن أى مظهر من مظاهر التعالى ، وأخذاً بالتلطف وحسن المدخل ، وألا يعترض صراحة بل تلميحا إن كان ما يقتضى الاعتراض ، كما لا يصح له أن يقر على قبيح بل ينبه في رفق وفي تودة وحذر . وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب ، وعلى الخطيب أن يجيء إليها من ناحيته ، لتكون معه فيما يدعو إليه .

وقد قال الفارابى فى إحدى رسائله : إن أنفع الطرق التى يسلكها الخطيب تأمل أحوال الناس ، وأعمالهم وتصرفاتهم ، ما شهدا ، وما غاب عنها ، ما سمعه ، أو تنأى إليه منها ، وأن يمعن بالنظر فيها ، ويميز بحاسنها ومساوئها ، ويبين النافع والضار لهم منها ، ثم ليجتهد فى التمسك بمحاسنها ، وحض الناس على طلبها ، لينالوا من منافعها .

ويقول أيضاً : إن الخطيب لا ينجو فى جميع متصرفاته من أن يلقي الجمهور ماثلاً إلى أمر محمود ، أو آخر مذموم ، وله فى كل واحد من الأمرين فائدة ، وموضع رياضة للتصرف ، وهو أن يحاول دفع السامعين إلى ذلك الأمر المحمود الذى يلقاه ، إن وجد السبيل إلى الدفع إليه ، وينبهم على فضيلته ، ويوجب عليهم التمسك به ، متى وجد فرصة لذلك . وإذا تلقاه الأمر المذموم ، فليجتهد فى التحذير منه ، والتجنب عنه ، وإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً ، فلينبهم على الاعتبار بمن نالهم مضار مثلها . فقد ظهر أن للخطيب فى جميع أحواله جلها ودقها ، خيرها وشرها . موضع الرياضة لنفسه وإرشاد الجمهور ، وإذا تبين ذلك ، فينبغى أن يقدم على سياسة الأحوال بقلب قوى ، ونية صادقة ، وصدر واسع ، وثقة أن ما يأتيه من ذلك وإن قل ، يجدى عليه نفعا مجل .

فعلى الخطيب أن يدرس الجماعة دراسة عميقة متغلغلة ، وأن يعرف حالها معرفة الخير الدقيق النظر ، وأن يكون كلامه على صورة ملائمة لأخلاقها ،

ومألفها ، وإن كان ما يدعو إليه يتنافى مع طبيعة الجماعة التي يخاطبها ،
اجتهد في التأليف بينهما ؛ فان سددت خطاه فيما أراد ، فهو ممن أوتوا الحكمة
وفصل الخطاب .

صفات الخطيب

وإذ قد بينا لك ما يجب أن يدرك به الخطيب عند ملاقة الجماهير ،
وما يجب أن يلاقيهم به ، وجب أن نذكر لك صفات الخطيب الكامل ،
أو القريب منه ، التي رسخت في نفسه الخطابة ، حتى صارت ملكة فيه
أو كالمسكات ، والتي بمجموعها يمتاز الخطباء عن غيرهم من المتكلمين ،
والتي هي مناط القدرة على كل ما يوضع في عنق الخطيب من تكاليف البيان ،
وها هي ذه .

١ - قوة الملاحظة :

ليدرك أحوال السامعين عند إلقاء خطبته أهم مقبلون عليه ؟ فيسترسل
في قوله ، ويستمر في نهجه ، أم هم معرضون عنه ؟ فيتجه إلى ناحية أخرى ،
يراها أقرب إلى قلوبهم ، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم . فيجب أن تكون
نظرات الخطيب إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة ؛ يقرأ من الوجوه خطرات
القلوب ، ومن اللمحات ما تكنه نفوسهم نحو قوله ؛ ليجدد من نشاطهم ،
ويذهب بفتورهم ، ولتتصل روحه بأرواحهم ، ونفسه بنفوسهم .

٢ - حضور البديهة :

لتسعه بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم إعراضا ، والدواء الشافي
إن وجد منهم اعتراضا ، وقد يلقي الخطيب خطبته فيعقب بعض السامعين
معترضا ، أو طالبا الإجابة عن مسألة ، فإذا لم تقدم البديهة الحاضرة كلاما
قيما يسد به الخلة ، ويدفع به الزلة ، ضاعت الخطبة ، وآثارها :

يروى أن عتبة بن أبي سفيان بعد أن ألقى خطبة بمكة ، صاح به
أعرابي ، فقال : أيها الخليفة ، فقال لابه ، ولم تبعد ، فقال : يا أخاه ، فقال

سمعت ، فقل . فقال : تالله إن تحسنوا ، وقد أسأنا خيراً من أن تسيئوا
وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستقامه ، وإن كان
منا فما أولاً كم بمكافأنا . رجل من بني عامر بن صعصعة يلقيكم بالعمومة ،
ويمت إليكم بالحنولة ، قد كثره العيال ، ووطئه الزمان ، وبه فقر ، وفيه
أجر ، وعنده شكر . فقال عتبة : أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ،
قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك .

فانظر إلى الجواب المسدد الذي هيأته البديهة الحاضرة ، ولولا المسارعة
به لذهب أثر الخطبة ، ومهابة الخطيب .

٣ - طلاقة اللسان :

اللسان أداة الخطيب الأولى ، فلا بد أن تكون الأداة سليمة كاملة ،
ليتسنى له استعمالها على أكل وجه وأتمه ، وزلاقة اللسان ، وذربه عنوان
الفصاحة ، وطريق البلاغة ، وقد بالغ الناس في مكانها حتى عدها بعض
المتساعخين ركن الخطابة الوحيد ، وجعل غيرها بالخل الثاني . ونحن وإن
كنا لا نوافق صاحب هذا القول ، نعد طلاقة اللسان من ألزم صفات
الخطيب ، وأشدّها أثراً في انتصاره في ميادين القول .

٤ - رباطة الجأش :

يجب أن يقف الخطيب مطمئن النفس ، غير مضطرب ولا وجل ،
ولأنه لم يستطع ملاحظة السامعين ، وأثر كلامه فيهم ، وهم إن أحسوا بضعفه
واضطرابه ، صغروا في نظرهم ، وهان هو وكلامه في أعينهم ، فلا يستطيع
إثارة حماسهم ، ويذهب كلامه هباء منثوراً ، والاضطراب يورث الحيرة
والدهش ، وقد جاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري : الحيرة
والدهش يورثان الحيرة والحصر ، وهما سبب الارتاج والأفحام .

٥ - القدرة على مراعاة مقتضى الحال :

مراعاة مقتضى الحال لب الخطابة ، وروحها ، فلكل مقام مقال ، ولكل
جماعة من الناس لسان تخاطب به ، فالجماعة النائرة الهانئة تخاطب بعبارات هادئة ،

لتكون بردا وسلاما على القلوب . والجماعة الخنسة الفاترة ، تخاطب بعبارات مثيرة للحمية ، موقظة للهمم ، حافزة للعزائم . والجماعة التي شطت وركبت رأسها ، تخاطب بعبارات فيها قوة العزم ونور الحق ، فيها إرعادة المنذر ، ويقظة المنقذ ، واعتزامة الأيد القوي ، وفيها روح الرحمة ، وحسن الإيثار ، ليجتمع الترهيب مع الترغيب ، ومع سيف النعمة ، ريحان الرحمة ، لذلك وجب أن يكون الخطيب قادرا على إدراك الجماعة وما تقتضيه ، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمه .

هذه الصفات الخمس لا يعد الخطيب خطيباً إذا لم تكن فيه كاملة ، أما الصفات الآتية فتفاوت فيها أقدار الخطباء بمقدار ما ينالون منها . وما هي ذه :

١ - قوة العاطفة :

لا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعوه إليه ، واعتقاداً بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان ، وكما أن الماء الذي علا سطحه ، ينساب في المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية ، والحماسة الشديدة ، هو الذي ينحدر من فيه الشعور ألفاظاً ، والعواطف عبارات وأساليب ، تلهب الحس وتوقظ النفس ، وتثير الحمية ، وتحفز الهمة ، فلا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه ، ليفيض عليهم ، وبروى غلثهم ، وإلا أحسوا بفثور نفسه ، فضاع أثر قوله .

٢ - النفوذ وقوة الشخصية :

هي هبة من الله سبحانه وتعالى ، يهبها بعض الناس ، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه ، وعظم نفسه ، فتستمد كلماته من نفسه قوة ، نظراته شعاع ينفذ إلى القلوب ، وصوته يهز النفس هزات روحية تجعلها تلقف عباراته ، فتنتطبع فيها مكبرة . وإذا وهب الله خطيباً تلك الروح ، قاد الجماهير ، وساقها بعضاً موسى ، فلا تشرذ منه شاردة ، ولا يتخلف عن قافلة الجماعة السائرة إلى الأمام بهديه متخلف ، فهي كما ترى صفة للنوع

الكامل من الخطباء ، وقد آتى الله بعض خطباء العرب أشرافاً من هذه القوة ، كأحمد بن حنبل في الجاهلية ، وأبي بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى ابن أبي طالب ، والحسن البصري في الإسلام ، ونأهيك بما كان عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قوة الروح ، فذلك نور النبوة ، وعبقه قدسية ، وقبس رباني .

٣ - أن يكون ثقة :

إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعو إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله ، فيضعف تأثيره ، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره ، ويشك السامعون في قوله ، ويرتابون في صدقه ، ولا يذهب بروح الخطبة شيء أكثر من الارتياب في نية الخطيب ، والتشكك في طويته ، فالريب معول يهدم أثر البيان هدماً ، وينقض ما يغزل الخطيب بقوة أنكاثا ، والخطيب الذي لم يمنح الثقة ، عليه عملان مرتقاها صعب : عليه أن يجتهد في جلب الثقة ، ودون ذلك خطر الفتاد ، وعليه بعد ذلك أن يسوق كلامه في صورة محبة مثيرة ، وذلك في قدرته إن تمكن من الأول .

٤ - التجميل في الشارة والملابس :

قال أستاذنا الشيخ محمد المهدي بلل الله ثراه : هذا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة أمر تجب العناية به ، لأنه مطمح الأنظار ، والنظر يفعل في القلب كما يفعل الكلام في السمع ، فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية ، ألا ترى أن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه وهيبته حتى اضطر النخار إلى أن يقول : إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها .

٥ - سعة الاطلاع :

قال أستاذنا المهدي رحمه الله : إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه وهو بمعزل عن غيره ، بل ترتبط بكل شيء من شئون الناس في

دينهم وديناهم . ومسالك القول فيها متشعبة ، كتشعب مسالك الكتابة ، فكما يكون الكاتب ملما بكل صنف من صنوف المعارف ، كذلك يكون الخطيب .

والواقع أن الخطيب سواء أكان اجتماعيا ، أم سياسيا ، أم دينيا ، أم شوريا ، يجب أن يكون ملما بكل ما له صلة بالجماعة التي يخاطبها ، ليعرف نواحي التأثير والمواطن التي يطرق حسها من ناحيتها ، فالخطيب الديني يجب أن يكون ملما بالاجتماع والاقتصاد والسياسة والشرائع ، ليستطيع أن يصل إلى قلوب السامعين ، بربط صلاحهم الدنيوي في كل نواحيه بصلاح دينهم وقلوبهم .

والخطيب الاجتماعي يجب أن يكون عالما بدين الجماعة التي يخاطبها ، لكيلا يصدر عنه ما ينافيه ، فتفر منه القلوب ، وهو يعمل على استدنائها . وهكذا كل خطيب يجب أن يكون ملما بكل ما له صلة بالجماعات ، وطرق التأثير فيها ، والابتعاد عما ينفرها ، لكيلا يجعل قلوبها عنه متحافية .

العيوب البيانية

وإذ قد بينا صفات الخطيب ، يجب أن نبين العيوب التي تتصل بالبيان ، لنكي نعلم مريد الخطابة إلى معالجتها ، إن كانت فيه ، وكانت المعالجة في استطاعته .

وهذه العيوب ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يتعلق ببيان المراد ، والوصول إلى الغرض ، وهو ما كان منشؤه عدم السير على قوانين الخطابة ، وعدم ملاحظة فن الإلقاء ، كعدم مراعاة مقتضى الحال ، أو عدم انتظام الإشارات ، أو النقص في إثارة حماسة السامعين ، وكون الصوت عند الإلقاء جاء مطرداً على وتيرة واحدة ، من غير أن يكون مصوراً للمعاني تمام التصوير ، وكالسرعة الزائدة ، وهذه كلها يكفي في الابتعاد عنها المعرفة التامة بأصول هذا العلم ، وحمل النفس على الأخذ بها ، والاسترشاد بهديها ، والمران والممارسة .

القسم الثاني : عيوب النطق : وهي كثيرة . وأكثرها شيوعا : اللثغة ،
والتمتمة ، والنفأفة ، واللفف ، والحبسة .

ولنتكلم على كل منها ، ثم نذكر بعض الطرق لمعالجتها ، إن كان ذلك
في الإمكان .

أما اللثغة فهي تعذر النطق بحرف ، والنطق بحرف آخر بدله . وقد بين
الملاحظ الحروف التي دخلتها اللثغة فضل بيان . وهذا ها كتبه بتصرف
واختصار قليلين :

الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف : القاف ، والسين ، واللام ،
والراء . فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط ، لأنه
ليس من الحروف المعروفة ، وإنما هو مخرج من الخارج ، والمخرج لا يخصى ،
ولا يوقف عليها . . . واللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء ، كما يقولون
بثرة ، إذا أرادوا بسرة . وبأثم الله ، إذا أرادوا باسم الله . وأما اللثغة
التي تعرض للقاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء : فإذا أراد أن يقول :
قلت . قال : طلت . وإذا أراد أن يقول : قال لى . قال : طال لى .

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل
قوله : اعتلت : اعتيت ، وبديل حمل جمى .

وأما اللثغة التي تقع في الراء ، فإن عددها يضعف على عدد لثغة
اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من إذا أراد أن
يقول : عمر ، وقال عمى ، فيجعل الراء ياء ، ومنهم من إذا أراد أن يقول :
عمرو قال : عمغ ، فيقلب الراء غينا ، ومنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو
قال : عمد فيجعل الراء ذالا ، وإذا أنشد قول الشاعر :

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مدة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء ظاء

وأما اللثغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء ، وسليمان بن يزيد

العدوى الشاعر في الرء ، فليس إلى تصويرها سبيل . هذا ما يقال في اللثة
بالإجمال .

وأما التمتمة فهي التمتع في التاء ، ويقال لمن كانت فيه هذه الحال تمتام :
والفأفة هي التمتع في الفاء ، ويسمى من كان فيه هذا العيب فأفاء
قال الشاعر :

لست بفأفاء ولا تمتام ولا كثير الهجر في المنام
وأما اللف فقد قال فيه أبو عبيدة إنه إدخال بعض الكلام في بعض ،
ومن كان كذلك سمي ألف .

وقد قال الشاعر :

كان فيه لففا إذا نطق من طول تحييس وهم وأرق
وقد قال بعض الباحثين إن منشأ هذا العيب في بعض الأحوال أن الألفاظ
بسبب سعة الخيلة تسبق القصد ، فالمتكلم يستعمل اللفظ ثم يتركه إلى سواء قبل
أن يتم تكونه :

وأما الحبسة فهي ثقل النطق على اللسان ، من غير أن يتردد في حروف
بعضها كالفأفاء ، والتمتام ، وقد يكون السبب في ذلك عدم وضوح ما يريد
أن يقوله ، أو الحياء والحجل :

هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جثافي أصاب الجسم ،
كاللثة التي تكون بسبب فقد بعض الأسنان ، أو بعض حميات يكون لها أثر
في أعصاب اللسان ، وكإنهاك شديد للأعصاب ، كذلك الحال التي وصفها
الشاعر في اللف الذي كان منشؤه الهم والأرق والتحييس . وعلاجها في هذه
الحال يكون أولاً بعلاج ذلك العارض والطب له بما عند الأطباء من دواء .

وإذا لم تكن هذه العيوب مما يتناوله علم الأطباء فبعضها يتعذر التخلص
منه كاللثة الفاحشة التي تكونت في الصغر ، ونمتها العادة ، وصليت بكبر
السن ؛ فإن المعالجة حينئذ تكون فوق الإمكان ، وأعظم من مستطاع
الإنسان ، وإن كان في قدرة الخطيب القادر المالك لعنان القول سرها ، كما

فعل ديموستين في لثغته ، فقد كان يسعى إلى سترها بوضع حصي في فمه عند الكلام ؛ ليكون مخرج الرائ على حقيقته ، وكما فعل واصل بن عطاء ، فقد حذف الرائ من كلامه حذفاً تاماً ، لما تعذر عليه الإقلاع عن لثغته .

وقد قال الجاحظ في شأنه : ولما علم واصل بن عطاء أنه ألغ فاحش اللغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالته ، ورئيس نخله ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل ، وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الخلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجلالة ، والفخامة ، وأن ذلك من أكبر ما تسبب به القلوب ، وتثني إليه الأعناق ، وتزين به المعاني ، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن ، والقوة المتصرفة ، كنهوما أعطى الله نبيه موسى من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى ، وطباع النبوة ، رام أبو حذيفة (١) إسقاط الرائ من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقته ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأق لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ، ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً ، لما استجزنا الإقرار به ، والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يشمل الصنعة ، وإنما عنيت بحاجة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان .

فاللغة التي تكونت بمضى الزمن ، ولم تعالج قبل استقرار العادات من

(١) كنية واصل بن عطاء .

المتعذر الإقلاع عنها إقلاعا تاماً (١) ، وإذا كان ذلك كذلك فليجتهد في سترها بالإقلال من الألفاظ التي تظهر عيب لسانه .

ولا نطالبه بما أخذ به واصل نفسه ، فإن ذلك فوق طاقة إنسان غير ممتاز ، ولكن لا نكلفه شططا إذا طالبناه بأن يتجنبها في الخطب التي يكتبها قبل لقائها .

وإن اللغة العربية من أغزر اللغات ألفاظا ، وأكثرها مترادفا ، وبعيد أن ترى معنى ليس له عدد من الألفاظ يدل عليه دلالات خطابية .

هذا ويجب على المصاب بلثغة فاحشة أن يجتهد أيضا في تخفيفها ، فإن ذلك في قدرته ، وإن كان عاجزا عن محوها محوآ تاماً ، والرياضة تسهل الصعب ، وتجعل البعيد في قدرة المتناول .

أما ما عدا اللثغ من العيوب السابقة ، فللإرادة دخل عظيم في معالجته ، وليس من شك في أن الرياضة البيانية ، تفيد أكبر فائدة ، وخصوصا إذا لوحظ أن أكثر هذه العيوب ، سببه السرعة في الكلام ، وعدم التروي والتدقيق ، والحجل في الصغر ، والكبر قد زادها رسوخا وقوة ، فعلى المتكلم الذي يروض نفسه أن يباعد الحياء في المقامات البيانية ، فإنه فيها عجز وضعف لا يلبقان ، ولا يستحسنان ، وأن يأخذ نفسه بالتأني ، والتوقف ، والتثبت عند القول ، وأن يقصد إلى كل كلمة قصداً خاصاً ، كأنها المراد من بيانه ، والغاية المقصودة من كلامه ، وإذا اعتراه عيبه ، سكت حتى تعود إرادته مسيطرة سيطرة تامة ، ثم ينطق بالكلمة ثانية . وإذا أخذ نفسه بتلك المزاولة حيناً بعد حين ، وكررتلك الممارسة وقتاً بعد آخر ، وواتته طبيعته ، وأعانتته

(١) يقول الجاحظ في لثغة الرأء التي تقلبها غينا : وأما التي على النين فهي أيسرهن . ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده وأخذ لسانه وتكلف مخرج الرأء على حقها والإنصاح بها لم يكن يمتدأ أن تجيبه الطبيعة .

الفطرة القويمة ، انتبهر على هذه العيوب .

فالتأني في النطق يفيد في هذه العيوب عموماً ، واللفظ خصباً ، فإن المتكلم إذا أخذ نفسه به ، وحملها عليه ، كان النصر من نصيبه حتماً .

يحكى أن مطرباً كان به لقف أخذ نفسه بمعالجته بالتأني والبروية ، حتى صار لا يظهر في تغريده ، ولكن إذا تحدث أو تكلم ظهر واضحاً ، لأنه إذا تحدث لم تحكم إرادته ، لعدم الحاجة إلى ذلك ، فتساب نفسه ويظهر عيبه ، وإذا غنى حكمت إرادته فأخفى عيبه ، واستمرت الحال كذلك ، حتى كان الإخفاء عادته في غناه دون حديثه ، فالرياضة هي العماد في دواء هذه العيوب ، والإرادة هي السلاح الوحيد الذي يقم به حرباً عواناً عليها ، تنتجها الفوز حتماً ، ما لم يقل ذلك السلاح ، أو يلقي في غمده .

القسم الثالث - العيوب الصوتية :

كأن تكون رنات الصوت مزعجة أو لا تكون من القوة بحيث تسرعى الانتباه ، أو يكون بالخطيب ضيق تنفس ، بحيث لا يستطيع أن يقول كلاماً مفيداً ، من غير أن يقطع النفس بيانه ، ويفسد عليه استرساله . وهذه العيوب بعضها يعالج بالمران ، وبعضها يستعان عليه بالطب مع المران .

وقد كان قدماء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصوت ويجعلونها فناً قائماً بذاته ، له أساتذة قد خصصوا لدراسته ، يربون الشبيبة على السيطرة على أصواتهم ، والقلب عليها ليجعلوا رناتها ملائمة للمقامات البيانية المختلفة ، وليجعلوا من المران دواء للعيوب الصوتية . وأدل شيء على أن المران له الأثر الواضح في معالجة تلك العيوب حال ديموستين ، فقد كان ضعيف الصوت ، فلما أراد أن يكون خطيباً راض نفسه ، فأخذ يقوى رثبه وصوته بالصياح ، وهو يصعد الجبل الوعرة أو على ساحل البحر محاولاً أن يكون صوته أعلى من صخب الأمواج ، وقد كان له ما أراد بتلك المحاولات .

وستكلم على الصوت كلاماً أوسع من هذا عند الكلام على الإلقاء .

إثارة الأهواء والميول

مقدمة في الإقناع الخطابي

مرى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط ، بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته ، وجعله يتعصب للفكرة التي يدعو إليها الخطيب ، ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الاقتضاء ، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية ، تساق جافة ، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية ، بل بذلك ، وبإثارة العاطفة ، ومخاطبة الوجدان ، وإن الخطيب قد يستغنى عن الدلائل العقلية ، ولا يمكنه في أية حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية ، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم مخاطبة وجدانهم ، والتأثير في عواطفهم .

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات : مع قلة اطلاعنا على سنن المنطق العاطفي ، فإن الاستقراء يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعظم الخطباء في أغلب الأوقات ؛ إذ أنهم بدل أن يقضوا أوقاتهم في تنظيم الأدلة . وتنميق البراهين التي إن أقنعت ، لا تؤثر في السامعين ، يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفنون في تنويعها لعلمهم أن ما يوجد أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهن ، وينقد . وهم باستدراج لبق ، وكلمات ساحرة وصوت عذب يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطاتهم وترى من هذا أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير لا يعول في خطبه على المنطق بمقدار ما يعول على خلق جو عاطفي مهيا لقبول ما يقدم له من آراء .

٢ - وإن أكثر علماء الاجتماع يذهبون إلى أن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية ، ولا تلتزمها ، ولا تقبل البراهين العقلية بل تسأماها ؛ إذ أن الذي يظل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء - العاطفة ، لا العقل ، ولو كان أحادها من ذوى الفكر الصائب ، والفعل الناضج ؛ فإن هؤلاء إذا انضبوا تحت لواء الجماعة ، غلب عليهم روحها العام ، وسرت إليهم

عاطفتها ، واستولت عليهم مشاعرها . ولقد قال بعض الباحثين في أحوال الجماعات إن الخطيب إذا خاطب العاطفة أَرْضَى ثمانين في المائة من السامعين ، وأثار اهتمامهم .

وقال جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع : إن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات ، ولهذا كان الخطباء الذين يعرفون كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها ، دون العقل ، لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها ، فلأجل إقناع الجماعة ، ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها ، والتظاهر بموافقتها فيها ، ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازنا صغيرة عادية ، تشخص أمامها صوراً مؤثرة . وينبغي أن يكون قادراً على الرجوع القهقري ، متى وجد المقتضى ، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه كلما مست الحاجة . وهذه الضرورة التي تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل ، لأن الخطيب يتبع هذه الحالة سلسلة أفكاره لاحتركة ففكر سامعيه ، فلا يكون لكلامه أقل تأثير فيهم . أما المناطق فلا تهم تعودوا الاقتناع بالأدلة المسلسلة الدامغة ، لا يمكنهم الخروج عن عاداتهم هذه إذا خاطبوا الجماعات ، لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم .

من هذا السياق تعرف مقدار العاطفة في التأثير الخطابي ، وأنها قطب الرحى في الإقناع الذي يصبو إليه الخطيب ، ويجعله هدفه الذي يصبو إليه سهامه .

وإذا كان ذلك كذلك كان من الواجب أن يجعل الخطيب الركن الركين في خطبته العمل على إثارة الأهواء والميول ، وكان من اللازم علينا ونحن نبحث في أصول الخطابة أن نقدم لمريدها طرائق للوصول إلى عاطفة الجماهير ، ومخاطباتها ، وتهيئتها لما يريد من غرض ، وما نحن أولاء آخفون في بيان ما يتيسر الأخذ به منها :

قواعد عامة لإثارة الأهواء والميول

إن طرق الاتصال بقلوب الجمهور من السامعين كثيرة متشعبة ، وكثير من الخطباء يسلكها بذكاة نفسه ، وقوة قريحته وحسن استعداداته وصدق إحساسه وقوة فراسته ، فلا يحتاج إلى تبين مبين ، ولا تذكير مذكر ، ولكن ذكرها يفيد الشادى ، وينير السبل أمام الاستعداد القوى ، ويجعله على بينة من أمره .

وهذه الطرق مع تشعبها ، ترجع إلى أمور أعظمها أثراً ، وأوضحها مظهراً .

١ - الاعتقاد بصحة ما يدعو إليه :

يجب أن يكون الخطيب شديد الثقة بقوله ، فلا يكون مضطرباً خائراً النفس غير قوى الإيمان وإلا سرى ذلك الضعف إلى سامعيه ، فإنه لا يؤثر إلا المتأثر ، وما كان من القلب يصل إلى القلوب .

تكلم رجل عند الحسن البصرى بمواعظ نجمة ، ومعان تدعو إلى الرقة ، فلم ير الحسن قد رقى ، فقال الحسن : إما أن يكون بنا شر ، أو بك ، يشير إلى أن النفس المطمئنة الواثقة بما تقول المدعنة له ، لا بد أن يصل كلامها إلى شغاف القلوب ، ما لم يكن المخاطب في قلبه شر يمنعه من السماع ، وإجابة داعى الحق ، والاطمئنان إلى قول القائل .

ويقول بعض علماء الاجتماع إن إيمان الخطيب كجبال الجاذبية التي تجتذب إليه الجمهور ، وتوثق عرا التأثير بينهما ، فأى شك أو ضعف في إيمانه يقطع تلك الجبال ، فينفض الجمهور من حوله . وقد قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع في وصف قائد الجاعة وخطيبها : إنه يكون مسحوراً بالفكرة التي صار يدعو إليها ، حتى استولت على نفسه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها ، وأن كل ما خالفها وهم باطل ، كما جرى للزعيم « روبسبير » أسكرته أفكار روسو ، فقام يدعو إليها ، وقال بعد بيان أن ضعاف الإيمان

تأثيرهم سريع الزوال : أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات ، وحركوها ، مثل (بطرس الراهب) ، (ولوتر) ، و (سافونا رول) ، ورجال الثورة الفرنسية ، وغيرهم ، فإنهم لم يتمكنوا من خلب العقول ، واجتذاب الأرواح ، إلا بعد أن سكبوا بخمر المذهب الذى اعتقدوه ، وبذلك توصلوا إلى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس ، وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله . فترى من هذا كيف كانت قوة اعتقاد الخطيب من أسباب إثارة عواطف السامعين لقوله :
وفى الحق إن قوة الاعتقاد تكسب الكلام حرارة ، والصوت رنان مؤثر ، والألفاظ ، قوة ، والمعاني روحاً ، وتجعل من الملامح والنظرات نوراً يشع شعاعاً ، يصور ما فى القلب من إيمان قوى ، وإخلاص عظيم ، وكل هذا يخلق جوّاً عاطفياً حول الخطيب ، يجعل كلامه متصلاً بالوجدان .

٢ — المشاركة الوجدانية :

قال مكدوجل فى بيانها : إنها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التى تكون عند الإنسان إذا وجد إنساناً آخر متأثراً ، فتجعله يشعر بنفس شعوره ، كما لو انتقل هذا الشعور بطريق العدوى (١) .

فيجب أن يحس الخطيب بإحساس الجماعة ، ويشعر بشعورها ، يغضب لما يغضبها ، ويفرح لما يفرحها ، ويحزن لما يحزنها ، ويسر لما يسرها ، آلامها آلامه ، ومصائبها مصائبه ، ليكون الاتصال الروحى أداة تأثير فيها ، ويستخدمه فى استفزاز مشاعرها أو تهدئة ثائرتها ، وليلقى عليها ما يريد من آراء ، إذ أن ذلك الإحساس المشترك بينهما يجعله قادراً على إثارة ميولها ، وإصابة أهوائها (٢) ودفعها لما يرى . وإذا رأى الجماعة متحمسة لأمر يراه باطلاً ، لا يفجؤها بالمخالفة ، ولا يصدمها بالمعارضة ، لأن ذلك يبعد عواطفها عن عواطفه ، وميولها عن ميوله ، بل يسايرها ، حتى تلوح له الفرصة ،

(١) من كتاب فى علم النفس للأستاذة حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الأبراشي ، ومحمد مظهر سعيد .

(٢) لعل هذا هو السر فى أن الذين يعيشون ارستقراطيين ليس منهم خطباء إلا نادراً .

ويرى أنه قد استدرجهم إلى ما ينبغي ، فيهمج بفكرته ، وذلك ليكون الحبل بينه وبينها ممدوداً ، ولا تتقطع الأسباب ، فيذهب التأثير .
ذكر الدكتور جوستاف لوبون حادثة رآها في أثناء الحرب السبعينية فقال :
رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراى اللوفر ، حيث مقر الحكومة ، والناس أكداس من حوله ، يزجرون ، ويتميزون غيظا ، وهم يهتمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ، ليبيعه للبروسيين ، فلما وصلوا به ، خرج أحد أعضاء الحكومة ، وكان خطيباً ذائع الصيت ، ليخطب في الناس ، وهم ينادون : الموت ، الموت عاجلا ، وكنت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة ، بقوله :

إن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون ، وإن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب ، غير أنني بهت ، إذ سمعته على نقض ما ظننت يقول ، وهو يتقدم نحو الجموع : سيأخذ منه العدل أخذاً لارحمة فيه ، فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة ، تم التحقيق الذى بدأتموه ، وسنزجه في السجن حتى حين .

قال هذا ، فرأيت الثورة قد سكنت ، وتفرق الجمع ، ولم يمض ربع ساعة حتى كان الفريق في داره ، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطرى من الأدلة المنطقية التى اعتقدتها دامغة ، لمزقوه إربا .

فانظر إلى الخطيب اللبق كيف أدرك أن مصادمة الجماعة قد تذهب بحياة قائد عظيم من قواد الدولة ، فلم يفعل ، وأظهر الموافقة ، فتم له ما أراد .

ومما يصح الاستشهاد به في هذا المقام ، لأنه صورة واضحة لاستخدام المشاركة الوجدانية وسيلة لتنفيذ المراد تصوير شكسير لجماعة من الرومانيين في موقفهم من مقتل يوليوس قيصر ، فلننقل لك بعض ذلك الفصل (١) ، وهو ما جاء على لسان أنتوني في رثاء يوليوس قيصر مع الثناء على بروتس قاتله فقد قال : أيها الرومان ، بنى وطنى ، أعيرونى أسماعكم ، فإنى ما جئتكم للتمدح بقيصر ومناقبه ، ولكن لأواريه

لحده وأهيل عليه التراب ، فقد جربنا على أن ما يعمل الإنسان من شر يخلقه ، وما يعمل من خير يرسم معه ، في غمار الرمم ، ولقيف الرفات ، وهذا شأن قيصر معنا اليوم ، نتناسى مناقبه ، ونعدد معاييه .

قال لكم بروتاس ، وهو رجل الشرف الصميم : إن قيصر فيه طمع ، فإذا كان كذلك ، كان ذنبه يوجب الأسى والأسف ، كما كان جزاؤه أدعى للحزن والشجن . إنى أقف بينكم الآن في جنازة قيصر بإذن من بروتاس ، وهو رجل التبل والفضل ، وبإذن زملائي الآخرين ، وكلهم مثله أجلاء فضلاء ، ولكن قد كان لى في قيصر صديق حميم ، وبركريم ، لم أعهد فيه الطمع الذى يرميه به بروتاس ورجل الفضل والشرف .

أتاكم قيصر بالأسرى مكبلين ، فلأت دياتهم بيت المال ، فهل كان فى عمله هذا ما ينبىء عن طمع .

كان قيصريكى شفقة ورحمة كلما ذرفت الفقراء دموع الفاقة والإملاق ، وعهدى بذى الطمع أخشن طبعاً ، وأغلظ كبدأ ، ولكن بروتاس يقول إنه ذو طمع ، وبروتاس ، كما تعلمون رجل الفضل والشرف . ألم تروا أنى قد عرضت عليه التاج ثلاث مرات فى لوبركال ، فكان يرفضه فى كل مرة ، فهل كان هذا الطمع فيه ؟ . ومع ذلك فإن بروتاس يقول . إنه ذو طمع ، وبروتاس رجل الفضل والشرف .

لا أريد أيها السادة أن أدحض دليل بروتاس ، ولا أن أقارعه بالحجة بالحجة ، وإنما أقول ما أعرفه من الحق الصراح . لقد كنتم كلكم تحبون قيصر حباً جماً ، فهل كان ذلك من غير داع ، وبلا مسوغ ، إذن ما الذى يمنعكم الآن أن تقيموا عليه شعار الحداد . يا للعدالة ، لقد أويت إلى قلوب الوحوش الضارية ، فغادرت الإنسان جباراً عتياً ، فاقد الرشد والصواب . عفواً ، سادتى ، إن قلبى مدرج مع قيصر فى أكفانه ، فأمهلونى حتى يرتد إلى .

أحد السامعين : الظاهر أن فى كلامه شيئاً من الحق .

آخر : إنك إذا نظرت فى الأمر بلا تحيز ، وجدت قيصر مظلوماً .

ثالث : أجل ، وإنى لأخشى أن يعقبه شر خلف .

رابع : ألاحظكم هذه العبارة : أنه لم يأخذ التاج ، فكفى بهذه دليلا على أنه لم يكن فيه طمع .

الأول : إذا ثبت كذبهم ، فلا بد من الانتقام له .

الثاني : مسكين أنتوني ، إن عينيه تتقدان من البكاء .

الثالث : ليس في روما أخلص من أنتوني .

الرابع : ها هو ذا قد عاد للكلام :

أنتوني : بالأمس كانت كلمة يفوه بها قيصر تقيم العالم ، وتقعده ، أما الآن فيها هو ذا طريق الثرى ، لا يأبه به أحقر فقير .

ثم يستمر في كلامه ، ولا ينتهى من خطبته إلا وقد تحفزت الجماعة للانتقام من قتلة قيصر .

وترى من هذا كيف استطاع الخطيب بمشاركته للجماعة في وجدانها ظاهراً أن يصل إلى غرضه ، ولذا نقول إن الخطيب يتقاد ليقود : ويطيع ليطاع ، ويأخذ ليعطى ، يساير إرادة الجماعة ، لملي إرادته عليها ، وكل ذلك بالمشاركة الوجدانية ، فليرعها الخطيب حق رعايتها ، وليعرف أن ذلك ليس معناه أن يكون سيقاً لا رأى له ، ولا فكر ، بل معناه أن يجتهد في ألا يهاجمها فيما تألف ، دفعة واحدة ، بل يمهّد لما يرى ، ويربط بين ما يدعو وإحساسها . وقد رأيت كيف استدرج أنتونيو الجماعة ، وأملى عليها إرادته من طريق موافقتها في شعورها وهواها ، وقد نقلها من النقيض إلى النقيض .

٣ - النفوذ :

لنفوذ الخطيب الأثر الفعال في تحريك الميول . وإيقاظ المشاعر ، فهو عامل عظيم من عوامل إثارة الأهواء ، بل ربما كان أقربها نجاحاً ، وأدناها إلى الإجابة ، وقد عرفت شيئاً من ذلك في صفات الخطيب الكامل ، والآن نوضح ما أجمعنا هنالك فنقول :

إن النفوذ يجعل صاحبه متحكماً في أهواء ومشاعر من يخاطبه . وقد قال

فيه جوستاف لويون يمكن أن يقال : إن النفوذ سلطة ، أو عمل أو فكر يستولى بها على العقول ، وتلك السلطة النفسية تعطل ملكة النقد ، فتملأ النفس دهشة واحتراما ، ويمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور ، إلا إنه لا بد أن يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسيا .

والنفوذ نوعان : ونفوذ شخصى طبعى ، ونفوذ كسبى ، والأول يكون هبة يهبها الله بعض الأشخاص ، فيؤثرون بأنفسهم ، من غير أى أمر خارجى يعرض لهم ، ومن ذلك ما آتاه الله العظماء الممتازين ، كعمر بن الخطاب ، وأبي بكر الصديق ، ونابليون . والنفوذ الكسبى ما جاء من سمعة حسنة ، أو اشتهار بنيل ، أو شجاعة ، أو منصب ، أو لقب ، أو تحمل بوسام ، أو ثروة فى بعض الأحيان ، ولا شك أن بعض هذه الأنواع فى استطاعة مريد الخطابة أن يكون من أهلها ، وبعضها من الواجب عليه أن يكون متحلياً بها ، فيجب أن يكون الخطيب من ذوى السمعة الحسنة ليس فى ماضيه ما يشين .

ولقد كان ميرابو الخطيب المشهور فى الثورة الفرنسية مع ما أوقى من نفوذ شخصى ، وشهرة بالبيان ، يرى ماضيه السيئ فى شبابه حرج عثرة يمنعه أن يصل إلى التمام فى قيادة الجموع ، ولذا كان يقول : ويل للماضى .

والنفوذ الشخصى الطبعى أقوى عملا ، وأشد تأثيرا ، فمن آتاه الله ذلك النفوذ ، ملك من النفوس ، والمشاعر والأهواء ، ما يجعله يقول فيطاع من غير أى اعتراض ، بل من غير تفكير فيه ؛ يتأثر بقوله أشد الناس بغضاً له .

يحكى أن بعض أعداء نابليون ذهب للقائه . فقال لصاحبه ، وهو ذاهب إليه : أيها الصديق ، إن لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست أدركه ، حتى إنك لترانى إذا اقتربت منه تأخذنى الرعدة ، كالطفل الصغير ، ويخيل إلى أنه قادر على إدخالى فى سم الخياط ، وإجراقى بالنار . ويجب على من لم يؤت ذلك النفوذ أن يسعى فى كسب نفوذ ، أياً كان ، من طريق شريف ، فإن النفوذ له أثر فى كل مقام ، وقد وصف (ديكوب) وكان من النواب الفرنسيين ومن علماء النفس ، الخطيب الثيافى المجهول الذى

لا نفوذ له فقال : إذا استوى على منبر الخطابة ، أخرج من محفظته أوراقا ، فنشرها أمامه على الترتيب ، وشرع يخطب مطمئنا ، وهو يفتخر في نفسه بأنه سيثبت عقيدته ، لتسكين روح سامعيه ، لأنه وزن أدلته ، وحررها وأعد شيئا كثيرا من الإحصاءات والحجج ، وأيقن أن الحق في جانبه ، وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة الذي يأتي بها : وهكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه ، واصفا إخوانه ، لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا الحق .

وبينا هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين ، ثم يتقزز بالفضواء الناتج ، من ذلك الاضطراب ، ويتساءل ، لم لا يسود السكون ؟ وما السبب في هذا الانصراف العام ؟ وما الذي يدور على ألسنة أولئك الذين يتحدثون فيما بينهم ؟ وما السبب القوي الذي يحمل ذاك على ترك مجلسه ؟ يتساءل الخطيب هكذا ، والحيرة تعلو جهته ، فيفرك حاجبيه ، ويمسك عن الكلام ، ويشجعه الرئيس ، فيعود بصوت مرتفع ، فيزيد الأعضاء في عدم الإصغاء إليه ، فيجهر ، ويهتز ، فترداد الجلبة حواليه ، ويعود لا يسمع نفسه ، فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات الأقفال ، فيرجع إلى خطابه بما فيه من قوة ، وهناك تعلو الجلبة ، ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون .

فانظر إلى الخطيب الذي لا نفوذ له ، وليست له سمعة جاذبة للنفوس كيف يلقى الصعوبات وقد بذلها ، وقد يرتد دونها خاسئا ، وهو حسير .

٤ - اللذة والآلم :

(أ) اللذات والآلام هي المسيرة للإنسان في هذه الحياة ، فهو يعمل إجابة لداعي اللذة ، ويمتنع توقيا للآلام . وهما في الحقيقة النعصران المحركان للعالم الإنساني سلبا وإيجابا ، غير أن اللذات تختلف باختلاف الأشخاص ، فإنسان لذته حسية عاجلة ، وآخر لذته في المعنويات ، أو في الحسيات الآجلة ، فالمثقفن ، والعالم ، والمخترع ، والشاعر ، والكاتب ، كل الأفعال ،

أولئك مندفعون بقوى اللذات المعنوية التي يجدونها فيما يقومون به من عمل ، وإن اللذة التي وجدها نيوتن عندما كشف الستار عن قانون الجاذبية لاتعدها في نظره لذة ، واللذة التي وجدها آينشتاين في كشف قانون النسبية ، لاتعدها أيضاً في نظره أية لذة حسية ، ولذة الصوفي التي يجدها في فئاته في الذات العلية ، هي كل الوجود في زعمه . وإن كثيراً من الناس يؤدون الفرائض ، ويطيعون الديان رغبة في ثوابه ، واثقاء لعقابه ، وقليل من المؤمنين من يطع الله لأنه يجد لذة في الطاعة ، لاطمعا في جنة ، ولاخوفاً من نار .

والخطيب اللبق هو من يعرف هذه الحقيقة ؛ فيخاطب الناس بما يثير لذاتهم ، وما يرون في الأخذ به اتقاء لآلام متوقعة ، فهو يلوح بالمنفعة التي يراها مطلباً لهم ، ويبين لهم أن الآلام في نقيض ما يدعوا إليه .

انظر إلى طارق بن زياد في خطبته المشهورة ، فقد حرق السفن ، ثم حثهم على القتال مبيناً لهم أن لاقوت لهم إلا ما أخذوه من عدوهم بسيوفهم وأنهم قد صاروا كالأيتام على مأدبة اللئام ، وقد كان الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو الخطيب العظيم يقول : إن للقلوب شهوات ، وإقبالا وإدباراً ، فأتوها من قبل شهواتها ، وإقبالها ، فإن القلب إذا أكره عمى .

ولقد عرف هذه الحقيقة أولئك الذين كانوا يحركون المسيحيين في الحروب الصليبية ، فما كانوا يكتفون بإثارة الروح الدينية ، بل كانوا يقولون في الأرض المقدسة : إنها تفيض لبناً وعسلاً .

(ب) إن الرغبة نتيجة اللذة ؛ فالإنسان يرغب فيما يجد فيه اللذة ، ويرهب ما يجد فيه الألم ، ويظهر أن الرغبات الإنسانية هي المتحركة في الآراء والمعتقدات . ولقد قال الفيلسوف سينيوزا : نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا بصيرتنا ، وإذا كان ذلك كذلك ، فعلى الخطيب أن يتعرف رغبات الجماعة ، التي يخاطبها ، ثم يعقد صلة بينها وبين ما يدعوا إليه ، ويبين أنهما من مشرب واحد ، ومن طريق واحدة ، وإن في دراسة رغباتها تعرفاً لذاتها وآلامها ؛ فليدرسها ؛ ليعرف من أي جانب بطرق حسها ، وليعرف لذاتها وآلامها ؛ فيصل إلى وجدانها . وإن رغبة الأمة أو الجماعة من الناس هي التي تشكل

مثلها العليا ؛ فالمثل العليا للأمة عنوان الرغبات ، ومن طريقها يستطيع الدارس لأمة معرفة رغباتها ؛ فإذا رأيت أمة مثلها العليا في طلب استقلالها ، والمحافظة على كيائها ، فاعرف أن رغبتها في ذلك الاتجاه ، وأن تلك الرغبة مظهر لآلام الاعتداء ، ولذة الحياة الحرة المستقلة ، وإذا رأيت أمة مثلها العليا في حب السلام والدفاع عن المظلوم ، فاعلم أن رغبتها في تلك الناحية ، وأن لذتها في نفع بني الإنسان ، وآلامها في آلامهم .

ومن أجود الخطب التي استخدمت فيها آلام الأمة ، ورغباتها ، ومثلها العليا في إثارة ميولها إلى ما يريد الخطيب ، خطبة الرئيس ولسن رئيس الجمهورية الأمريكية في مجلس الشيوخ ، يدعوه إلى الموافقة على دخول أمريكا في الحرب العالمية ، فقد جاء فيها : إن هذه الحرب هي ضد جميع الأمم ، لقد أغرقت مراكب أمريكية ، وأعدمت نفوس كثيرة من الأمريكيين ، بطرق تأكدت لدينا فظاعتها ؛ فكان لها وقع مخيف ، ولكنا رأينا أن نفس تلك الطرق تستعمل لإغراق مراكب ، وإبادة نفوس من أمم أخرى كثيرة من المحايدين ، والأصدقاء ، بدون فرق ، كأنما هذه الحرب قد شهرت ضد جميع الناس على السواء ، فما دام الأمر كذلك ، وجب على كل أمة أن تقدر لنفسها خطة ، تقابل بها ذلك العداء ، وخطتنا التي يجب علينا أن نختارها الآن ضرورية جداً ، ولا تقبل التأخير .

وجاء فيها إن واجبي الذي أتممته الآن أيها السادة هو واجب محزن ، وصعب جداً . إن من المحتمل أن يكون أماننا عدة أشهر ، لنقوم في أثنائها بتجارب صعبة ، وتقديم ضحايا عظيمة ، إنه لأمر شديد الخطورة ، أن نقود شعبنا العظيم المسالم إلى حرب هي أفظع الحروب ، وأشدّها هولاً ، يقف فيها التمدن نفسه في كفة الميزان ، غير أن الحق فوق السلم ، والحق الذي ندافع عنه هو المحافظة على أقرب الأشياء إلى قلوبنا ، المحافظة الديمقراطية على الشعوب المهضومة الحقوق ، ليتمكنوا من الاشتراك في حكم أنفسهم ، هو المحافظة على حقوق وحرية الأمم الصغيرة ؛ وهو المحافظة على توطيد أركان حق عام ، أساسه اتحاد الأمم الحرة ، اتحاداً يضمن الطمأنينة لجميع الأمم ، ويجعل العالم كله حراً .

إننا أمام واجب كهذا لانضن بحياتنا ومالنا ، بل نقدم أنفسنا وما نملك ، وسيرى العالم أنه قد جاء اليوم الذى سنحت فيه لأمريكا الفرصة ، لكى تنفق قوتها ، وتسفك دماء أبنائها ، فى سبيل المبادئ التى كانت سبب وجودها ، والسلام الذى صانته طول حياتها ٥

انظر إلى الخطيب كيف أثار النعمة بذكر آلام الاعتداء على السفن الأمريكية ، ثم كيف ذكر الجماعة برغبتها فى السلام ونصرتة ، وكيف نهىها إلى مثلها الأعلى ، وهو توطيد أركان الحق العام ، وجعل أساسه اتحاد الأمم الحرة اتحاداً يضمن الطمأنينة لجميع الأمم ، ثم اتخذ من تلك القواعد دعائم لدعوته ، وهو الدخول فى تلك الحرب ، ومعونة من زعمهم مظلومين ، معتدى عليهم .

والخطباء الذين يستخدمون آمال الأمة ، وأمانها ، فى إثارة أهواء السامعين إلى رغبتهم وكثير ما هم ، إنما يستخدمون اللذات ، والرغبات ، والمثل العليا ؛ لأن أمل الأمة ليس شيئاً غير لذتها المرجوة ، والمطلب الأسمى الذى يسعى الجميع إليه .

والقول الجملى : إن اللذات ، والآلام ، والرغبات ، والآمال ، والمثل العليا ، أمور تنبع من معين واحد ، وكلها يستطيع الخطيب استخدامه فى إثارة أهواء الجماعة ، وميوها لما يدعو إليه .

٥ - الغرائز :

إذا اجتمع عدد من الناس متحدة مشاعرهم ، كانت لهم وحدة فكرية تجمعهم ، وهى فى كل واحد منهم بقدر مشترك ، لا تفاوت بينهم فيها ، وتلك الوحدة الجامعة التى لا يتفاضلون فيها مصدرها الغرائز ؛ ولذا قال علماء الاجتماع : إن الزعيم الذى يملك قلوب الكثرة فى الأمة لا يخاطب الذكاء بل يخاطب الغرائز ؛ لأنها الوحدة الجامعة ، والقدر المشترك فى الجميع وقد عرف بعض علماء النفس الغريزة بأنها ميل فطرى فى النفس يدفع الإنسان لأن يسلك مسلكاً خاصاً ، أو لتصدر عنه حركات مؤتلفة ،

تؤدي إلى غاية معينة ، وإن لم يشعر بها الإنسان نفسه ، وهذه الحركات ليست نتيجة خبرة أو تعلم ، ويتصل بها انفعال نفسى ، يكون واضحاً بارزاً فى كثير من الأحيان .

فالغريزة سلوك فطرى ، يكون من غير خبرة سابقة ، ويرى إلى ما فيه مصلحة الشخص والجنس (١) .

والغرائز كثيرة ، ولها أقسام عدة ؛ وليس هذا المقام مقام تفصيلها وبيانها ، فلذلك علم قائم بنفسه ، هو علم النفس ، وبهتينا فى هذا المقام أن نقول : إن منها غريزة الهرب ، وغريزة المقاتلة وحب الخصام . والأبوة والأمومة ، والاستغاثة ، والاستطلاع ، والسيطرة ، وحب الظهور ، والثناء ، والاجتماع ، والضحك ، وغيرها .

ويمكن الخطيب أن يتخذ من بعض هذه الغرائز سلاحاً فى ميدانه يثير به الأهواء والعواطف نحو قوله ، فغريزة المقاتلة (٢) يستطيع أن يستخدمها الخطيب فى استفزاز الجماهير ، إذ يحثهم على قتال أعدائهم ، كما فعل الإمام على رضى الله عنه ، عندما دعا جيشه إلى قتال مخالفه ، بعد أن قتلوا عامله على الأنبار ، فقد خطب خطبة كلها إثارة لتلك الغريزة ، وجاء فى تلك الخطبة : هذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار ، وقتل حسان البكرى ، وأزال خيلكم عن مسالحها (٣) ، وقتل منكم رجالاً صالحين ، وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة (٤) ،

(١) من كتاب أصول علم النفس للأستاذ أمين مرسى قنديل .

(٢) قال الأستاذ قنديل فى كتابه أصول علم النفس فى هذه الغريزة « هى التى تدفع الأفراد والقبائل إلى الكفاح والاستماتة فى الحرب لأحق الأسباب وأتفهمها ، ولا تزال كذلك فعالة قوية فيهم . ظاهرة كل الظهور فى الأطفال وفى الكبار أيضاً على الرغم من تغير أشكالها . ومظاهرها ، تحت تأثير الرق الاجتماعى ، والعقل المدرب والوازع القانونى والخوف ، ولكن أثرها مع ذلك لا يزال يبدو واضحاً فى الجماعات أكثر منه فى الأفراد . فقد يثير حفظة الأمة وغضبها سبب ما ، فتندفع جميعاً طالبة غسل الدم بالدم . فى أحضان هذه الغريزة . الراسخة فى النفوس . نشأت الجماعات المتحضرة اليوم .

(٣) المسالج جمع مسلحة بالفتح . وهى الثفر حيث يتوقع مجيء العدو .

(٤) المعاهدة الذمية .

هينزع حجلها (١) وقلبا ، (٢) ورعاشها (٣) ، ثم انصرفوا وافرین (٤) ،
ما نال رجلا منهم كلم ، (٥) ولا أريق لهم دم ، فلو أن رجلا مسلماً
مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً ، بل كان عندى جديراً .

فوا عجباً من جد هؤلاء في باطلهم ، وفشلهم عن حقهم ، فقبحاً لكم
حين صرتم غرضاً (٦) يرمى ، يغار عليكم ، ولا تغيرون ، وتغزون
ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون . فانظر إلى الإمام على كرم الله وجهه
كيف أثار غزيرة الغضب والمقاتلة فيهم ، بذكر إباحة الحمى ، وانتهاك
الحرمات ، وقتل النساء والذرية ، وبيان أنه لا يرضى بهذه الحال ، إلا من
يرضى بالمنزل الهون ، وكل هذه إثارة لتلك الغريزة على أبلغ وجه
يستطيعه بليغ .

وقد يربط المتكلم فكرته بهذه إذا كانت متغلغلة بقوة في نفس الجماعة
التي يخاطبها كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الحث على الصبر والثؤدة ،
والحلم : « ليس الشديد بالصرعة (٧) إنما الشديد من يملك نفسه عند
الغضب » ، وكقول أبي بكر رضى الله عنه في رجوعه من إحدى الغزوات :
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . يريد رضى الله عنه جهاد
النفس بمنعها من سوء . فكان هذا وذاك ربطاً لتلك المعاني النفسية العالية
السامية بغريزة المقاتلة ، تلك الغريزة المتغلغلة في النفس العربية والتي لا تعدل
بها شيئاً سواها . وبذلك الربط تستفيد تلك المعاني قوة وجلاء .

وغريزة حب الثناء يستطيع الخطيب أن يستخدمها في إثارة الأهواء لما
يدعو إليه بأن يبين أن الشرف والحمد والسلطان فيه كما فعل المغفور له سعد
« باشا » زغاول في حفل الطلبة لتحيته سنة ١٩٢١ إذ جاء في خطبته فيهم :

- (١) الحجل بكسر الحاء وسكون الجيم الخللخال .
- (٢) القلب يضم القاف السوار .
- (٣) الرعاش جمع رعشه بفتح الراء وهى القرط .
- (٤) وافرین أى تأمین .
- (٥) الكلم الجرح .
- (٦) الغرض ما ينصب فيرمى بالسهم ونحوها .
- (٧) الصرعة القوى الذى يصرع غيره .

أتوجه والخشوع بملأ جوارحي إلى تلك الأرواح الطاهرة ، أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا بالحق ، والحق منكر ، ففاضت أرواحهم وألسنتهم تردد ذلك النداء ، فاضت ، وقد شرفونا بأقدامهم ، وألزموا الكل باحترام مصر واسمها ، وبيضوا وجوهنا ، والآن فليناموا هادئين ؛ فقد انبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم ، وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء ، يبيض الله برحمته أجدادهم ، وأسكنهم جنات العلا ، وأرضى عن أعمالنا أرواحهم ، وأراحهم بتحقيق آمالنا . لله در الشيبة ما فعلت ؛ فإنها قد فتحت ماضيت صدورنا من كنوز الفتوة ، وملأت قلب البلاد عزة وحماسة ، وملأت رعوسها حكمة ، وملأت حركاتها نظاماً ، تلك الشيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة ؛ ومبعث أنوارها الساطعة ، أشكرها شكراً جزيلاً ، وأرتاح جداً ؛ لأن المستقبل سيكون بيدها ، وهي يد ماهرة .

فانظر إلى ذلك الخطيب القادر كيف جاد بعقود الثناء للشيبة التي يخاطبها ، وأشار إلى أن المستقبل سيكون لها ، وكل ذلك إغراء أتى إغراء لهم بأن يستمروا على نهج الاستقلال الذي يدعو إليه .

وهكذا يستطيع الخطيب القاريء للنفوس المسيطر على البيان سيطرة تامة أن يتخذ من الغرائز التي تناسب موضوعه طريقاً لإثارة أهواء السامعين لما يدعو إليه ، وجذبهم لفكرته ، وضم الشارد لجماعته .

٦ - بواعث الانتباه :

كل الأمور التي تبعث الانتباه القسري ، وتجذب السامعين إلى الخطيب ، والإنصات لكلامه ، وتوجههم إلى فكرته ، من شأنها أن تبعث ميولهم إليه ، وتلفتهم عما سواه ، وهذه أمور كثيرة منها .

(أ) الجدة ، والغرابة ، والتغير :

لكي يثير نشاطهم فإن الجدة تكسب الفكرة طلاوة ، وتعطيها رونقاً وبهجة ، والتغير يدفع عن النفس السأم ، ويجعل نشاطها دائماً مستمراً ، والكلام يكتسب تلك الجدة بالإكثار من ضرب الأمثال الغريبة الشائقة-

التي تثير خيالهم ، والتشبيهات البديعة التي توقظ أفعالهم ، ومن الخطب التي تشمل على ذلك خطبة بسمارك في جعل السيادة الدستورية لبروسيا ، إذ جاء فيها :

أيها السادة إذا لم ترضوا للروح البروسية في هذا الدستور ؛ فاني أعتقد أنه سيبقى حبرا على ورق ، وإذا أنتم حاولتم أن تسوموا البروسيين الإذعان لهذا الدستور ، فإنكم ستجدون منهم ما وجدته الأقدمون من جواد الإسكندر بوكيفالوس الذي كان يحمل مولاه ، ويسير به جريئا مبهجا ، بينما هو يقذف الفارس الذي يتناول إلى امتطاء صهوته ؛ ويلقيه على الرغام ، يتمرغ بذهبه ، وفروه ، وسائر حليه وملابسه . ولكن يعزيني الآن اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول حتى تنظر الأحزاب المختلفة إلى هذا الدستور ، كما نظر الطبيبان في أسطورة لافونتين إلى جثة المريض الذي كانا يعودانه إذ يقول أحدهما : لقد مات ، ولقد تنبأت بذلك مذ رأيته .

ويقول الآخر : لو أنه استمع إلى نصيحتي ، مامات .

ومن الجدة أن ينوع الخطيب أسلوبه : فأحيانا يأتي بكلامه في صورة استفهام ، وأخرى في صورة تقرير ، والثالثة في صورة طلب ، وهكذا ، وأن يغير في الصوت ، فلا يصح الاستمرار طويلا على وتيرة واحدة ، إذ الصوت التملط المطرد ، يزيل الانتباه ، فيجب التغير في الصوت ، ليكون فيه تنشيط ، وإثارة للاهتمام ، وإيقاظ للغافلين . وفي كل ذلك إثارة للميول والأهواء .

(ب) التكرار والتوكيد :

إن للتكرار والتوكيد أثرا كبيرا في إثارة الأهواء والميول ، وإذا استعملهما الخطيب بمهارة ودقة جذب السامعين إلى رأيه ، وأخذهم إلى ناحيته .

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات لجوستاف لويون : إن التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها ، وإليهما تستند التربية في كثير

من المسائل ، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم ؛ ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه ، وإنما يقتضى أن يكون وجيزاً حماسياً ، ذا وقع في النفس .

وقال في كتاب روح الاجتماع : للتكرار تأثير كبير في عقول المستنيرين وتأثير أكبر في عقول الجماعات ، من باب أولى ؛ والسبب في ذلك كون المكرر ، ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن ، نسى الواحد منا التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر ، وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب ، يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان ، فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى ، وينتهي باعتقاد صحة الخبر .

وإذا كان التكرار منها للمشاعر صارفها إلى الخطيب ؛ فيجب أن يتجه إليه ؛ ما لم يجد أن المقام يحتاج إلى الإيجاز ؛ فيعمد إلى التوكيد . فالتكرار أولى في مقام الإطناب ، والتوكيد أولى في مقام الإيجاز ، ويجب أن يلاحظ في التكرار أن يكون بعبارات وأساليب مختلفة ، وأن يكون النظر فيه إلى المعنى من جوانب متعددة ، وقد رأيت التكرار البليغ المفيد في خطبة الامام على رضى الله عنه عندما قتل عامله على الأنبار التي سيقف إليك .

وقد اختار جوستاف لوبون مثلاً للتوكيد والتكرار منشوراً يظهر أنه اشتراكى نشر في إحدى صحف أوروبا وقد جاء فيه : من ينتج القمح الذى نحتاج إليه ؟ هو الفلاح . ومن يزرع الشعير والحبوب كلها ؟ ومن يربي المواشى والأنعام ؟ هو الفلاح . ومن يرعى الضأن للحصول على أصوافها ؟ هو الفلاح . ومن ينتج الخمر والنبيذ ؟ هو الفلاح . ومن يطعم الطرائد ؟ هو الفلاح . ولكن من يأكل أطيب الخبز ، وأطرى اللحوم ، ومن يلبس أفخر الثياب ؛ ومن يشرب خمر بوردو ، والشمبانيا ؟ ومن ينتفع بالطريدة هو ابن الطبقة العليا الثرية ، ومن يتسلى ويستريح (٦٢ - الخطابة)

كما يريد ؟ ومن يتمتع بأطياب النعم ، ومن يسبح للزهة ، ومن يتفألف في الصيف ، ويتدفأ في الشتاء ؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية . ومن يأكل طعاما غير شهى ، ومن يندر شربه للخمر ، ومن يشتغل بدون انقطاع ، ومن يكابد حرارة الصيف وصبابة الشتاء ، ومن هو شديد البؤس كثير الشقاء ؟ هو الفلاح . فترى من هذا كيف كرر ونوع في التكرار وكيف كان مبحريا في كلامه المكرر إثارة الأهواء والميول .

إثارة الأهواء نحو المراد مباشرة

ما سبق كان أمورا كلية تستخدم في كل غرض خطابي ، وهي في هذا أشبه بالنظريات العامة ، وهناك أمور جزئية . وهي ما يتعلق بالمراد من الخطبة مباشرة من غير وساطة ، وهذه تختلف باختلاف أغراض الخطيب ، ولكل بواعث تختص به ؛ ولذا نبين بعض الأغراض بالإجمال وطرق الإثارة ونحوها ، وما لا نقوله يقاس على ما نقوله .

(١) البغض والمحبة :

فإذا كان غرض الخطيب تأليف القلوب ، وجمعها على محبة زعيم ، أو الالتفاف حول قائد ، يبين لهم .

١ - ما تحلى به من السجايا ، وما امتاز به من المواهب .

٢ - وحسن مآثره ، وسابق خدماته ، لمن يدعوهم إليه .

٣ - وإخلاصه لهم ، وتواضعه ولين جانبه .

٤ - وما يرجي لهم من خير في الالتفاف حوله ، ونصرته ، وكل هذا يثير محبتهم ، ويقربه من قلوبهم ، ويدنيه من نفوسهم .

وإذا كان الغرض التبغيض في شخص . وإبعاد الناس من حوله ، يبين لهم ما طبع عليه من قبيح الخصال في لفظ نزيه ، وعبارات راقية لاتجدش الناموس الاجتماعي ، ولا إقذاع فيها ، ويبين أعماله السيئة ، وماضيه

السوء ، وخبث طويته ، وعدم إخلاصه للجماعة ، وما في الالتفاف حوله من عقبي سينئة ، وإعزاز للباطل ، وإذلال الحق .

ومن الخطب المشتملة على إثارة المحبة لقوم ، والبغضاء لآخرين خطبة أبي حمزة الشاربي في مكة المكرمة عندما دخلها : وستجىء إليك كاملة في الجزء التاريخي (١) .

(ب) الرغبة والنفور من أمر :

إذا كان غرض الخطيب إثارة الرغبة في أمر من الأمور :

- ١ - بين منافعه وثمرته التي تعود على الجماعة من الأخذ به .
- ٢ - وصوره لهم في صورة آخذة بنيات القلوب ، مستولية على الأبواب والأفهام ؛ فيثير خيالهم نحوه ، وفي إثارة الخيال إثارة للرغبة في الحصول .
- ٣ - وذكرهم أنه قريب المتناول ، ليس بعيداً عن أيديهم ؛ بل هو في طاقتهم ، وفي متناول قدرتهم .

٤ - وبين أن الآخذين به في أسنى المراتب الإنسانية .

وإذا كان الغرض تنفيرهم من أمر :

- ١ - بين المضار الناجمة عن ملاسته .
- ٢ - وصوره لهم في صورة تنفر منها النفس ، وتتقزز .
- ٣ - وحقره ، وحقر الآخذين به ، وبين أنهم صغار الناس ، وأنهم في المرتبة الدون ، والمكان الهون .

ومن أبلغ الترغيب والتنفير ما جاء في خطبة الزعيم مصطفى كامل « باشا » عن الاحتلال الأجنبي ، والدعوة لمقاومته :

كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه ، والعار واجب أن يزول ، ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد ، كلا ، ثم كلا ؛ إن أقل الناس إدراكاً لمصلحة مصر يعلم أنها منافية لكل ثورة ، وإنما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد

الحقوق المسلوبة منكم ، وأن تعلموا لأن تحكم البلاد بأبناء البلاد ؛ نعم ،
إنى أعلم أن الاحتلال قوى السلطة ، عظيم الرهبة ، شديد العقاب ، وأن العمل
ضده موجب للعذاب ، مسبب للفقر والفاقة ، ولكن فى الرضا بالاحتلال
الحيانة ، والعار ، وفى العمل ضد الاحتلال الشرف ، والفخر ، فيا ذوى
النفوس الأبية ، ويا ذوى الضمائر الحية ، اطلبوا الشرف ، ولو مع الفقر ،
اخدموا الوطن ، ولو أسقطت على رؤوسكم الصواعق ، كونوا مع مصر ،
إن سعيدة فسعداء ، وإن تعيسة (١) فتعساء ، قولوا لعدوها فى وجهه : أنت
عدو لنا ، ولصديقها : أنت صديق لنا . لانتحبوا من يرميها بنبال الموت ،
بل امنعوه عنها إن قدرتم ، ثم ردوها فى صدر راميا إن استطعتم .

(ج) الفرح والحزن :

إذا أراد الخطيب إثارة دواعى الفرح فى نفوس مخاطبين ، والإسهام
معهم فى أفراحهم .

١ - ذكر لهم ما فى الأمر الذى هو موضوع الخطبة من مزايا ،
وما يحنى منه من ثمرات ، وما يكون له عليهم من العاقبة الحسنى .

٢ - وبين أنه فى ذاته بعيد المثال ، غير ميسور الحصول ، وأنه لا يؤخذ
إلا بشق الأنفس .

٣ - وأشار إلى شغف الناس بطلبه ، وأنه الرغبة المحبوبة ، والغاية
المنشودة ، والأمل المطلوب .

ومن أمثل الخطب المشتملة على مظاهر الفرح والسرور خطبة المغفور
له سعد « باشا » زغلول عندما أقام له أعضاء مجلس الشيوخ قبل أول انعقاد
حفلى تكريم له ، فقد جاء فيها بعد أن شكر لهم تكريمهم .

وبعد ، فإنى أهنتكم من كل قلبى بالثقة التى اكتسبتموها من البلاد .
وأعد نفسى سعيد بأنى أول وزير مصرى لحكومة دستورية ، نستمد
قوتها من إرادة الشعب ، وتستند فى بقائها على ثقة نوابه .

ستصبح هذه المبادئ نافذة المفعول فبنا ، ويصبح أمر الكل للكل .

(١) لم يصح للوصف من تمنى على تعيس وتعيسة .

ويشعر كل مصري أن حياته ، وحرية ، وشرفه ، وماله ، وولده كل ذلك تحت حماية القانون ، وأن على القانون حارسا قويا أميناً من البرلمان وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة ، والكل في ذمة الله وعنايته .

بعد يوم واحد تجدد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد ، وأن عليها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم ، كما تبررها أمام ضمايرها الخاصة ، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسئولية الملقاة عليها ، لوجود قوة بجانبها ، تقاسمها هذه المسئولية ، كما تشاظرها النظر في إدارة أمور البلاد .

بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف ، ويشد القرب منها بعد البعد عنها ؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لخدمتها للعامة ، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية ، وأن لكل واحد فيها حصة مباشرة ، أو بالواسطة فيبذل الكل جهودهم في معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة .

ولذا أراد الخطيب أن يشير عوامل الأسى والشجن في نفوس سامعيه ، وأن يظهر ما في نفسه من آلام :

- ١ — ذكر المحنة ، وآثارها في النفس ، وآلام وقعها .
- ٢ — ذكر وقعها في نفسه خاصة ، وما ناله بسببها من آلام .
- ٣ — بسط القول فيما آتى الله المفقود من مزايا ، وصفات اختص بها .

ومن أبلغ الخطب التي تثير الحزن في النفس ، وتبين منزلة المفقود خطبة الإمام علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنها ، وهاهي ذي كما جاءت في كتاب إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني :

رحمك الله أبا بكر كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم إسلاما ، وأخلصهم إيمانا ، وأشدهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وآمنهم على أصحابه ، أحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سننا وهديا ، ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم

عنده ، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر . صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس واسيته حين بخلوا ، وقت الله عند المكاره حين عنه قعدوا ، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ، وكنت ثاني اثنين وصاحبه في الغار ، ورفيقه في الهجرة وخليفته في دين الله ، وأمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقتت بالأمر حين فشلوا ونطقت حين تبععوا (١) مضيت بنور الله إذا وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقا ، وأطولهم صمتا ، وأبلغهم قولاً وأكثرهم رأيا ، وأشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملا ، كنت للدين يعسوباً (٢) أولا حين نفر عنه الناس ، وآخرأ حين أقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبا رجيا ، إذ صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ماضعفوا ، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا ، شمרת إذ خنعوا (٣) وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا . وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا ، وكنت كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أمن الناس في صحبتك ، وذات يدك » وكنت كما قال ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا في أعين الناس ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا مخلوق عندك هواة ، الضعيف الدليل عندك قوى عزيز ، حتى تأخذ له بحقه ؛ والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ؛ القريب والبعيد عندك سواء ؛ أقرب الناس إليك أطوعهم لله ، شأنك الحق ، والصدق والرفق ، قولك حكم ، وأمرك حزم ، ورأيك علم وعزم ؛ فأبلغت ، وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ؛ وأطفأت النيران ؛ واعتدل بك الدين وقوى الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك إعتابا شديدا ؛ وفزت فوزا مبينا ، فجالت عن البكاء ، وعظمت رزيتك ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ؛

(١) البعجة تتابع الكلام حتى لا يفهم ، وذلك من الاضطراب .

(٢) يعسوب الرئيس الكبير .

(٣) الخنوع الخضوع والذلة .

وسلمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدا .

ولما انتهى من خطبته رضى الله عنه بكى الناس حتى علت أصواتهم كما ذكر الرواة .

الأمل واليأس :

علمت مما سبق أن الأمل رغبة مستقبلية ، ولذة مرجوة ؛ فن أراد أن يثيرها :

- ١ - اتجه إلى بيان المزايا والثمرات ، وصور فيها السعادة المعسولة :
- ٢ - ثم بين أنها سهلة التناول قريبة من ذى الهمة ، دانية القطوف لمبتغيها .
- ٣ - ثم ذكر أن العمل ينجي المستحيل ، ويكثر من الممكن ، ويجعل كل شيء فى قدرة الإنسان إلا ما اختصت به الأقدار ، وعلا عن مغالبة بنى الإنسان .
- ٤ - ثم يوجه الناس فى عملهم إلى الاستعانة بالله والثقة به ، والاطمئنان إلى تأييده ونصرته ، فإن توجيه الجماهير إلى الاستعانة بالله لإحياء للروح الدينية فى نفوسهم ، وفى إحيائها إحياء للآمال ؛ إذ التفويض مع العمل يجعل الرجاء غالبا ، واليأس بعيدا « إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ومن أبلغ الكلمات المحيية للأمل الباعثة له قول الخطيب الشاب الزعيم مصطفى كامل « باشا » فى إحدى خطبه :

هناك فئة من المصريين لا أنكر إخلاص رجالها للوطن العزيز ، ولكن أنكر عليهم اليأس الذى يتظاهرون به فى كل وقت ، وفى كل مكان ، فهم ما عملوا وكلما سألتهم أجابوك ، نحن يائسون من مستقبل الوطن ، معتقدون بظلمة الأيام الآتية ، فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء قبل أن يفحص داءه ؛ ويعطيه الدواء ، على أننا نرى الكثيرين من الأطباء لا يئسون أبداً من شفاء المريض ، حتى فى آخر لحظة من

حياته ؛ فكيف ينش رجال من بنى مصر ، من مستقبل البلاد ، وهم إن كانوا قد خبروا داء مصر ، فيعلم الله ، ويعلم الناس أنهم إلى اليوم ما قدموا لها الدواء ، كيف ينش من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده ، وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر ، وبغير حساب ، ألم يكن الكثير من المصريين ، ومن غير المصريين في يأس من مستقبل الدولة العلية ، ويعتقدوا أنها على مقربة من الموت ، فهذا هو اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الأعداء مؤملين البطش بها ، فظهرت بمظهر القوة والحياة ، وأصبحتم جميعاً فرحين بسلامتها معتقدين حسن مستقبلها .

كيف ينش من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمماً حكمها الأجانب قروناً طويلة ، ثم قامت بعد الدل والاسترقاق ، مطالبة بحقوقها ، وأخرجت الأعداء من ديارها ، واستردت حقوقها وحريتها . هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة ، أو تلغراف ، ثم يستولى عليها اليأس بكلمة ، أو تلغراف ، أما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الأمل مادام الدم في العروق ، وما دامت الحياة ، وأى حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس ؟ أيجمع المرء في جسم واحد الموت والحياة ، إذ اليأس موت حقيقى ، وأى موت . . .

وقد يرى الخطيب أن الجماعة التي يخاطبها قد استولت عليها آمال بعيدة التحقق ، متعسرة الوقوع أو متعذرته ، وأن في الجرى وراءها تركاً لميدان العمل ، وركضاً في ميدان الخيال ، وأن الآخذين بهذا أشبه بمن هم في أحلام فهو مضطر إلى أن يقول لهم ما يلقى القنوط من هذه الناحية في نفوسهم . وذلك مركب صعب ، ومزلق خطر ، لذا يجب أن يكون المتصدى له حذراً يلقى اليأس ، ويحتاط من إماتة النفس ، والطريق لذلك :

١ - أن يبين أن سبيل المجد ما كان عملياً ، لا خيالياً وأن التمسك بما هم آخذون به أقرب إلى الخيال ، وليحذر أن يسكون في ذلك مصادمة لإحساسهم ، بل يمهدهم بما يعتقدون به أنه مشاركتهم في آمالهم ، وأن إحساسه من إحساسهم ، ثم يعقب بعدة استثناءات حتى يستدرجهم إلى ما يريد ويأخذهم إلى ما ينبغي .

٢ - وقد يكون من الوسائل المجدية أن يبين المخاطر ، والمشايق التي
تكنف من يبغي ذلك المطلب ، ويسعى إليه .

٣ - وضرب الأمثال بمن جهدوا أنفسهم ولم يصلوا إلى مبتغاهم ،
ولم ينالوا متمناهم ، مع انصرافهم عن العمل المجدى النافع - مفيد في
ذلك جد فائدة ، ويوجه النفوس إلى العمل المنتج المثمر .

ومن الكلام الجيد المفيد هذا المعنى إفادة تامة ما جاء في خطبة لمصطفى
كمال « باشا » ، في الرد على بعض من يدعو للجامعة الإسلامية بزعامة تركيا :
أيها السادة ، إني أفهم الجامعة الإسلامية على الصورة الآتية : إن أمتنا ،
وحكومتنا التي تمثلها تمنيان لجميع المسلمين الذين على ظهر الأرض كل
سعادة ، وأن تحيا كل جماعة إسلامية في مختلف البلاد حياة مستقلة ،
ولعمر الله ، إنا نشعر بسرور وسعادة من ذلك ؛ فإن سعادة جميع الأمم
الإسلامية ورفاهية العالم الإسلامى هي في نظرنا كسعادتنا ، ورفاهيتنا . إننا
مرتبطين بهذا الأمر ، كما أننا نرى الأمم الإسلامية مرتبطة بنا ، وبسعادتنا
على هذه الصورة ، وهذا أمر يتجلى كل يوم .

إنما إذا أردنا أيها السادة ، أن نجتمع هذا المجتمع الكبير في شكل
إمبراطورية مادية ، فهذا خيال محض ، مخالف للعلم ، والمنطق والفن ،
إننا نجدد بنا ألا ننسى قط أن لكل جسم سياسى نهاية من القوة ؛ لا يعدوها
أبداً ، كما أن هناك خطوطاً طبيعية معقولة للشكل الإنسانى الحسن ؛ وكما
أن الشكل الإنسانى مبنى على هذه القاعدة ، فإن الجماعات التي تتألف من
الناس كذلك ، لاتشد عنها .

أيها السادة لننعم النظر في موقفنا قبل قرون ، انظروا إلى إفريقية ،
وسوريا ، والعراق ومقدونيا وبلغاريا والعرب وغيرها من أقسام ممالكنا
ثم وازنوا بين حالنا إذ ذاك ، وحالنا اليوم ، هل من الممكن أن تعيش هذه
الأمم المختلفة الطبائع ، والبيئات تحت ظل إمبراطورية واحدة ، هذا أمر
مغاير للطبيعة والعقل ، وقد كانت النتيجة ما رأيناه ، إذ لا بد أن يختلف
الأمر في إفريقية ، وأن يختلف في سورية ، وأن يختلف في العراق ، وأن
يختلف في بلادنا ، فإذا سعينا لنجعل الجميع واحداً أخطأنا ، إنما نحن نتمنى

أن تتشكل كل جماعة إسلامية تشكلاً طبعياً ، وأن تحافظ على استقلالها وأن تعيش عيشة حرة ، ولا شك أننا أمة تقرر بأن سعادة الأمم الإسلامية سعادة لنا ، ثم إننا نحن والعالم الإسلامى جماعة كبيرة ، تلتف حول عرش الخلافة ، وكلنا نقدره ، ونبجله (١) .

(هـ) الغضب والخوف :

قد يرى الخطيب أن الجماعة خنسة فائرة ، ويرى أن الأمر الذى يدعوهم إليه خطير ، يحتاج إلى حماسة ونخوة ، وإباء وحمة ، وغيره على الحمى ، أو الدين ، أو العرض ، فهو يعمد إلى إثارة الغضب ، ليوقظ تلك السجاياء من رقدتها ، وينبها من غفلتها ، ويتخذ منها قوة ملتهبة تذلل الصعب ، وتذيب الصم الصلاب ، والطريق لذلك :

١ - أن يذكر الإهانة ، ويعظمها ، ويصورها فى صورة مذكية للحفائظ ، مثيرة للهمم .

٢ - وأن يذكر العار الذى يلحق الجماعة ، إن لم تتحفز لغسل تلك الإهانة بالندود عن حماها ، والذب عن حياضها .

٣ - وأن يضرب الأمثال بذكر الأشباه والنظائر ، ويجعل لهم الأحرار من الناس مثلاً يحتذى ، وذوى الهمم القعساء أسوة تؤتسى .

ومن أقوم الخطب التى تثير الحمية ، وتدفع ذوى الإقدام إلى الإقدام خطبة الإمام على بن أبى طالب ، فى حث جنده على الجهاد ، وهامى ذه :
أيها الناس المجتمعمة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، تقولون فى المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم : حيدى حيدى (٢) ؛ ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم (٣) ، أعاليل بأضاليل (٤) . وسألتونى التأخير ؛ دفاع ذى الدين المطول (٥) هيات ، لا يمنع الضيم الذليل ، ولا يدرك الحق

١ - ألفت هذه الخطبة قبل إخراج الخليفة من تركيا ٢ - كلمة يوقظها المأرب كأنه يسأل الحرب أن تنتهى عنه ، ويقول حيدى أى ابتعدى يا حيايدى كلسكاع مبنية على الكسر :
٣ - قهركم .
٤ - جمع أعلولة وأضلولة :
٥ - صيغة مبالغة من المظل وهو تأخير الدين .

إلا بالجد ، أى دار بعد داركم تمنعون ؟ أم مع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم بالسهم الأخيب ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصرتكم ، فرق الله بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم من هو خير لى منكم ، لوددت أن لى بكل عشرة منكم رجلا من بنى فراس بن غنم (١) صرف الدينار بالدرهم .

وقد يرى الخطيب الجماعة فى اندفاع وعصيان وثورة ، ويرى أن علاجها إلقاء الرعب فى قلوبها ؛ وبث الرهبة فى نفوسها ، ليستقيموا على الجادة ، ويسلكوا السبيل ، فيلقى فى ذلك خطبا سداها ، ولحمتها نفث الروع فيهم وتخويفهم ؛ وطريق ذلك :

١ - أن يبين لهم سوء العقبى لما هم يفعلون ، وأن الطامة الكبرى فى طريقهم غير القويم :

٢ - وأن يبين أن فوات كثير من رغباتهم ، وطلباتهم فى استمرارهم على غيهم ، وأن الحرمان هو النتيجة الأولى لسلوكهم .

٣ - وأن ينيط عقابا خاصا ، يقع بالمستمر على غيه ، الموعث فى سيره ، والموغل فى لئمه .

وإنك لتجد فى خطب العصر الأموى ، وصدر العصر العباسى شيئا كثيرا مشتملا على ذلك النوع من الخطب المرعدة المبرقة ، كما ترى فى خطب الحجاج بن يوسف الثقفى ، وخطب زياد ابن أبيه ، وبعض خطب عبد الملك ابن مروان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومن ذلك خطبة عتبة بن أبى سفيان فى أهل مصر ، وقد أبلغه تمللهم بحكم بنى أمية ، فقد قال فيها :

يأهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيدا فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان ، أرجو أن يولبنى نسكه ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم ، إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم بعد

المقدرة عن حقه ، نعمة والله فيكم ، ونعمة منه عليكم وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفومنا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل ، بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة ، وإماتة السنن ، فأطأكم والله وطأة لارفق معها ، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أمتشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وقد يكون التخويف بسوء العقبي يوم القيامة . فيذكر الخطيب السامعين بهول ذلك اليوم ، وما فيه ، والموت والبلى ، وبأن ما في الحياة الدنيا إلى فناء ، وما في الآخرة إلى بقاء ، وأمثلة الخطب في ذلك خطب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين ، ومن نهج نهجهم ، ومن خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في التذكير بالموت خطبته التي جاء فيها :

«أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غير ناقد وجب ، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوتهم أجدائهم ، ونأكل من تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة » .

وخطبته عليه الصلاة والسلام التي جاء فيها :

«أيها الناس ، إن لكم معالم ، فانتهاوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية ، فانتهاوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى ، لا يدري ما الله صانع فيه ، وآجل قد بقي ، لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعقب » .

(و) الرحمة :

من المقامات الخطائية ، ما يكون قطعها إثارة بواعث الرحمة في نفوس السامعين ، واستدرار عطفهم على طائفة من الطوائف ؛ أو شخص من الأشخاص ، أو تحريك همهم لعمل إنساني جليل ؛ فيه مواساة لبني الإنسان ،

أو مداواة لكلومهم ؛ كإنشاء مستشفى لمرضى السكر أو للولادة ، أو للفقراء ،
أو ملجأ لليتامى ، أو إعانة لمنكوبى حريق ؛ أو منكوبى سيل طاع قد طم ؛
أو جرحى حرب ، أو مهاجرين منكوبين ؛ أو نحو ذلك من الأعمال الإنسانية
التي تستمد قوتها من شفقة ذوى القلوب . ففى هذه الأحوال يتجه الخطيب إلى
عاطفة الرحمة فى مخاطبيه فيثيرها : وطريق ذلك :

- ١ - أن يصور المحنة فى صورة تثير المشاعر ، ويستدر العطف .
- ٢ - ويبين للناس أن من وقعت بهم هذه المصيبة ما كانوا لها متوقعين ،
بل جاءتهم بيانا وهم نائمون ، أو فجأتهم من حيث لا يشعرون .
- ٣ - ويذكر أنها إصابة المقدار ؛ وكل امرئ معرض لها ، ومن يصاب
بها يكون فى مثل حاجة هؤلاء .
- ٤ - ويبين أن بنى الانسان أو الجماعة المؤتلفة منهم جسدا واحدا ،
إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحذى والسهر .
- ٥ - وأن الرحمة من كمال الإنسان ، وأن من لا يرحم لا يرحم ،
ومن لا قلب له لا يعد فى مصاف ذوى الكمال .
- ٦ - ويحسن أن يعرض صورا للحادثة ، إذا وجد فى عرضها ما يثير
الرغبة فى المعاونة .
- ٧ - وليجعل الخطيب الداعى إلى الرحمة من حاله ما يناسب مقاله ،
فليجعل من ملامح وجهه ، ونغبات صوته ، وحركاته ، وإشاراته ما يصور
عاطفته وإخلاصه فيها يدعو إليه ، فإن لذلك أثره الواضح فى ذوى
القلوب الرحيمة .
- ٨ - وليكثر من ضرب الأمثال ، فإن ذلك يثير الخيال فى الناحية التي
يريد بها الخطيب ، وإثارة الخيال فى تلك الناحية من موقظات الشفقة ،
والعطف الإنسانى .

وإثارة عواطف الرحمة قد تكون لب الدفاع فى بعض الجنايات ، كما
إذا كان المتهم معترفا بجنايته ، ولكن دفعه إليها دافع شريف ، كدفاع

عن شرف ، أو عرض ، أو كرامة ، فعلى المحامى أن يصور الدافع فى صورة مثيرة للعطف عليه ، وأن يحيط مرافعته بإطار من الحوادث التى تثير الرحمة فى نفس القضاة ، خصوصاً إذا كانوا محلفين ، كما فعل محام فرنسى فى دفاعه عن امرأة مزقت وجه خليله زوجها ، إذ رأتها معه فى بيتها ، فقد جاء فى ختام كلامه :

أنتم يا حضرات المحلفين ، قضاتنا ، وواجبكم أن تسألوا أنفسكم ، أفعلت ما فعلت . عامدة قاصدة ، أم دفعها اليأس لذلك الفعل ، بغير إدراك ؟ لا يجوز لكم أن تقضوا بالإدانة ، إلا إذا تأكد لديكم أن المتهمة كانت حرة الإرادة ، وكانت تستطيع أن تمتنع عن فعل ما فعلت . ولم تمتنع .

هل ارتكبت هذه المتهمة الواقعة أمامكم فعلتها بدافع سيئ ؟ أكانت تستطيع أن تقف غضبها عند حد ، وتسيطر عليه ؟ هذا هو لب الموضوع . فإن وجدتم أنها احتملت كل أنواع الآلام والعذاب وأنها لجأت للتهديد والرجاء ، وأنها حاربت سنة كاملة ، فاحكموا ببراءتها .

وما تصاب امرأة كهذه إلا والله فى أمرها حكمة ، إنها لم تفعل حياتها إلا ما هو حسن ، ومع ذلك حرمت زوجها ، ولها الآن أربعة أشهر كاملة محرومة من ابنتها ، أليس ذلك مؤلماً ، لا زوج ولا ولد ، وكلما ذهبت ابنتها لزيارتها فى السجن ، زادت آلامها آلاماً ، تقول لها : تعالى يا أماء ، لا تبقى فى هذا المسكن ، إنه بارد مظلم ، تعالى معى للمنزل ، [فتجيها أمها : غداً . . غداً يا ابنتى ، سأحضر ولكن غداً لا يحضر أبداً ، لك الله يابنية ، لقد وعدناك بأنك ستأخذين أملك مساء الأمس .

حضرات المحلفين ، لقد أبطأنا كثيراً ، فانطقوا ، انطقوا سريعاً بحكمكم والله يتولاكم برعايته .

التنسيق

هو تنظيم أجزاء الخطبة ، وإحكام تركيبها ، وربط بعضها ببعض ، ووضع أدلتها في شكل منتج ، فالتنسيق هو في الحقيقة بناء الخطبة ، ونظام عقدها ، يجعل معانيها متساوقة ، فيأخذ بعضها بحجز بعض ، ويجعل الغرض منها واضحاً ، إذ لا يذكر المعنى إلا بعد التمهيد له ، فيكون قريباً مألوفاً ، وواضحاً مكشوفاً . وإذا أخذ به تمام الأخذ ، مع التجنب لعيوبه ، والتحري لمحاسنه ، ضمن للمتكلم حسن الإصغاء ، وكمال الانتباه .

وقد ذكر العلماء للخطبة ثلاث مراحل :

الأولى المقدمة ، والثانية الإثبات ، والثالثة الخاتمة .

وتنسيق الخطبة أن يراعى الخطيب قوانين هذه الأقسام ، فيتبع محاسنها ، ويجانب معايها . وقبل بيانها نقول : إن هذه المراحل لا تكون في كل الخطب بل من الخطب ما لا يشتمل إلا على مرحلة الإثبات كبعض خطب الشكر ، والتهنئة ، والمدح .

ومن الخطب ما لا يشتمل إلا على الإثبات والخاتمة ، كبعض المرائي . وبعض الخطب ، يشتمل على تلك العناصر ، ككثير من الخطب المطنبية ، ومرافعات الخصوم في المحاكم ، وخطب الشورى في المجالس الشورية ، والخطب السياسية في المؤتمرات الدولية ، وغيرها .

القدمة

هى ما يجعله الخطيب صدر خطبته ١ - ليثير الفكر إليها ٢ - وليعطى السامعين صورة إجمالية لها ٣ - وليحصر لهم معانيه ، وأفكاره فى نطاق لا يبعده ، ولا يتجاوزه ، ويسمى الأول حسن الافتتاح ، والثانى بيان المقصد ، والثالث تقسيم الخطاب .

ولأن من الخطب مالا يحتاج إلى ذلك كله ، فبعضها لأقسام فيه ، فلا حاجة إلى تقسيم خطاب ، وبعضها موجز ، فلا يذكر فيه إلا افتتاح صغير يناسبه ، إذ التكرار فى هذه الحال يعيبها ، فإن من العبث التكرار مع الإيجاز ، وذكر المقصد أولاً مجملاً ، ثم بيانه ثانياً تكرار لا يتفق مع الإيجاز .

ومن الخطب ما يحتاج فى مقدمته إلى كل هذه الأجزاء ، كالمرافعات المطبنة فى المحاكم ، والخطب الشورية المطبنة ، وبعض الخطب السياسية ، وخطب الجدل والمناقشات ، وقد لحت من هذا أن ذكرها جميعاً لا يكون إلا فى مقام الإطناب .

ونحن على أية حال نبين هذه الأمور ، ونذكر ما يستحسن فيها ، وما يستهجن ؛ ليكون علمها سلاحاً فى يد الخطيب يستعمله إن أُلجأته ضرورة إليه ؛ أو مست الحاجة ، أو وجد منها ما يناسب المقام ، ويحمل الخطاب .

(١) حسن الافتتاح :

إذا أراد الخطيب أن يجعل لخطبته افتتاحاً ، وجب أن يعنى به تمام العناية ، وأن يجمله بكل وسائل التجميل المناسبة التى تجتذب الأفكار إليه وتبهيء الإسماع ، وتجعل النفوس تتقبله بقبول حسن ، فإن الفكرة الأولى عن شئ ، أو عن أمر ، أو عن شخص تثبت وتقر بالنفس ، ومحورها يحتاج إلى عناء شديد ؛ فإن كانت حسنة صعب تهجينها ، وإن كانت سيئة صعب تزيينها .

والافتتاح (إن وجد) أول ما يلقي الخطيب به الجماعة ، فإن وقع من نفوسهم القبول ، كانت الخطبة غالباً على غراره ، واستطاع أن يصل إلى قلوبهم ، وإن لم يصادف قبولاً ، صعبت الحال ، واحتاج الأمر إلى خبير بأحوال النفوس ، حاذق طرق العلاج ، ووسائل الشفاء من ذلك النفار وهذا الشماس .

قال ابن الأثير في كتاب المثل السائر : وإنما خصت الابتداءات بالاختيار ، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام ، فإذا كان ذلك الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده ، توافرت الدواعي على استماعه ، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم ، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور ، وكذلك الابتداءات بالنداء ، كقوله تعالى في أول سورة الحج : « يا أيها الناس ؛ اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم » فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه .

وللخطباء مذاهب شتى في افتتاحهم ، ولا نستطيع حصر طرقها لأن أفضل مناهجها مرجعه إلى حسن تصرف الخطيب ، وجودة تقديره ، وإنه ذاكرون بعضها على سبيل المثال ، لا على طريق الحصر .

١- فن الخطباء من يفتتح خطبته بما يشير إلى موضوعها ، ويلوح بالقصد منها ، وقد كان يستحسن ذلك الجاحظ ، وابن المقفع ، فقد جاء في البيان والتبيين نقلاً عن ابن المقفع ، وتعليقاً عليه :

وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره ، عرفت قافيته ، كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة المواهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنائه ، ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت ، والغرض الذي إليه نزلت .

ومن أبلغ الافتتاحات التي تشير إلى موضوع الخطبة افتتاح الإمام على رضى الله عنه في خطبته بعد اختلاف الحكمين ، واستنصار معاوية بقول حكمه عمرو بن العاص فقد قال كرم لله وجهه : الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب القادح ، والحدث الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله . أما بعد : فإن معصية الناصح الشفيق العالم المحرب ، تورث الحيرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأى ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأبيت على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضم الزند بقدره ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد

٢ - ومن الخطباء من يبتدىء خطبته بحكمة أو مثل سائر ، أو ببعض أقوال المتقدمين ، أو آية كريمة ، أو حديث شريف يناسب المقام ، ويكون حجة في الاستدلال ، كخطيب يبتدىء خطبته في تعاون الجماعة في إصلاح حالها ، وتقويم الفاسد من أمرها بتلاوة قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وكقول أبي العباس السفاح بالشام بعد الاستيلاء على الملك من آل مروان :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دارالبوار ، جهنم يصلونها ، فبئس القرار » . نكص بكم بأهل الشام ، آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم الظلم ، ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم حرم الله ، وحرّم رسوله ، ماذا يقول زعماءكم غدا ، يقولون : « ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » ، إذ يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » الخ .

وكقول أبي جعفر المنصور في مقدم إحدى خطبه بالشام بعد أن صار الأمر للعباسيين .

شنشنة أعرفها من أخـزم من يلق أبطال الرجال يكلم
٣- ومن الخطباء من يبتدىء خطبه بذكر كلام خصومه ، ودلائلهم والدوافع التي دفعتهم إلى رأيهم ، ثم يعقب بالنقض كما ترى في كثير من الخطب السياسية ، وخطب الخصوم في مجالس القضاء ومطارح الخلاف .
٤- ومن الخطباء من يفاجئ السامعين في مفتتح كلامه بما يزعجهم كما كان يفعل الحجاج في ابتداء خطبه : ومنها خطبته التي أولها .

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
٥- ومن الخطباء من يفتتح خطبته ببيان أنه من الجماعة التي يخاطبها ، وأنه في مستواها ليقربها إليه ، ويكون لكلامه فضل تأثير فيها كما قال ولسن في افتتاحه خطبة له في اتحاد العمال :

لقد قدمت إليكم على أئى رئيس للولايات المتحدة، ومع ذلك أود لو وضعتم فكرة المنصب جانباً ، وعددتموني رجلاً من بنى الوطن جاء إلى هنا ، لبيكى . يتكلم كلام المشورة والنصيحة ، لا كلام السلطان ، كلام رجال ، يخاطب كل منهم الآخر ، ويريد أن يكون صريحاً في وقت قد يكون أعظم حرجاً مما عرفه تاريخ العالم بأسره حتى الآن ، فالواجب يقضى على كل رجل في هذا الوقت أن ينسى نفسه ومصالحه ويملاً نفسه بكل ما في النظرية التي يعتنقها الوطن والعالم من نبل ، ويعمل في ميدان جديد ، يترفع عن شئون الحياة العادية ، ويكون حيث ينظر الرجال إلى أقدار الجنس البشرى .. الخ .. الخ .

٦ - ومن الخطباء من يفتتح خطبته بإحياء آراء قديمة للجماعة ؛ يبنى عليها ما يدعوهم إليه من جديد كما فعل المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما أنذر عشيرته الأقربين ، اذ سألهم عن صدق حديثه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدق » فقالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً » فألقى عليه الصلاة والسلام خطبته ..

وقد يحى الخطيب بافتتاحه كلاماً كان قد قاله ، ليربط بين ما قاله أولاً ، وما يقوله الآن ، فيكون ذلك إيناساً للمعلومات وتوثيقاً لها .

٧ - وقد يتبدى الخطيب خطبته ، بالثناء على السامعين ، ليهي نفوسهم لتلقى كلامه بالقبول ، إذ لا شيء يهز أعطاف السامعين كالثناء عليهم ، وذلك باب واسع يصح الدخول فيه بشرط الاتزان وضبط النفس .

٨ - والخطب الدينية يستحسن فيها أن تبدأ بالحمد لله (١) وبعرض الأحاديث النبوية الشريفة ، أو الآيات القرآنية التي تناسب المقام الديني الذي يتكلم فيه .

وإذا لم يكن موضوع الخطبة دينياً ، ولم يرد أن يبدأ بما يلبسها الشعار الديني ، فليختر من الافتتاحات ما يكون فيه جده ، ليكون فيه إثارة للاهتمام ، وتنشيط للأفهام ، وليجتهد في ألا يبدو التكلف في افتتاحه وإلا نقل على النفس كلامه ، فيصعب عليه الوصول إلى غرضه .

مهما يكن من أمر الافتتاح يجب :

١ - أن يكون قصيراً موجزاً لكيلا يشغل الذهن بغير المطلوب ، فينصرف عن الطلب الأول إلى ما هو بالحل الثاني .

٢ - وألا يكون مبتذلاً تمجده الأسماع .

٣ - وأن يكون موافقاً للموضوع .

هذا ويلاحظ أن كثيراً من الخطباء لا يتجهون إلى افتتاح خاص لكلامهم أياً كان نوعه ، بل يهجمون على المقصد ، ولا ضير في ذلك ؛ لأن الافتتاح

(١) كان الخطباء في صدر الإسلام وفي العصر الأموي وفي العصر العباسي يبتدئون خطبهم بالحمد لله : وتعتبر الخطبة براء إذا لم تبدأ بذلك . وليس هذا البدء عيباً كما توهم بعض الناس : لأن هذه الخطب كانت دينية بحتة أو تنحو ، منحنى دينياً في جملتها ، وكان الخطباء متدينين يقيمون بذكر اسم الله سبحانه وتعالى ، وبذلك يحيطون بخطبتهم بسياج من الدين الحكيم .

ليس أمراً لازماً للخطبة ، ولكن إن جيء بها يجب أن يلاحظ فيه ما بينا .
وقد يسمى بعض الأدباء ذلك افتتاحاً ماذجاً .

(ب) المقصد :

أن يذكر المتكلم في صدر كلامه الموضوع الذى سيتناوله إجمالاً ، من غير تفصيل ، وذلك ليهيء الأذهان لتلقيه . ويشعرهم برفق إلى ما سيقوله .

ولابد عند ذكر المقصد من ملاحظة ثلاثة أمور :

أحدها - أن يذكره في قضية عامة ، لا يبينها على مقدمات ، لأنه لو بناها على مقدمات كان ذلك سياقاً برهانياً ، وهو أجدر بالإثبات منه بالمبادئ .
فمثلاً إذا كان موضوعه الذى هو بصدد الكلام فيه الدعوة إلى تثبيت نظام ، أو منع فوضى ، قال : السلطان وازع الله فى أرضه .

وإذا كان يريد الدفاع عن متهم ببيان أن أدلة الاتهام تحوم حولها الشبهات ، يقول مثلاً : المتهم برىء حتى يقوم الدليل على جانيته ، وكل شك يكون فى مصلحة المتهم ، لا فى مصلحة الاتهام .

وإذا كان يريد أن يخطب جمعاً يحثهم على إحياء القرآن الكريم بحفظه والعمل به ، يقول مثلاً : فى القرآن نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم .

وفى كل هذا ترى الموضوع قد ذكر فى قضية عامة .

وثانيها - أن يكون واضحاً فى الدلالة على الموضوع ، لأنه إن لم يكن كذلك ، لم يثمر ثمرته المرجوة ، وألقى فى نفس السامع روح التبرم ، وكان ذلك طريقاً لورود السأم إلى قلبه .

وثالثها - أن يلقى فى جملة تثير خيال النفس ، وتهزها . فتنشط إلى سماع ما يقال ، وتهتز أوتار القلب لكل ما يجيء به الخطيب من معان ، وعبارات جيدة محكمة .

ومن أبلغ المقدمات التي اشتملت على مقصد بليغ قول الإمام على ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في إحدى خطبه التي يبحث فيها على قتال العدو :
أما بعد : فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة ، وشمله البلاء ، وألزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً الخ . . الخ (١) .

هذا وليس بلازم أن يذكر المقصد دائماً ، بل قد يوجب المقام إهماله وذلك إذا أراد الخطيب أن يستدرج السامعين إلى ما يريد أن يأخذهم به ولو صرح لهم به لنأوا عنه . وأعرضوا بهاجنهم ، وقاطعوه ، ففي مثل هذه الحال ، يجب عليه أن يأخذهم في رفق إلى ما يريد ، من غير أن يصرح بمقصده .

ألا ترى فيما ذكرنا في موقف انتونيوني في رواية يوليوس قيصر ، لو صرح لهم بغرضه في أول الأمر ، وهو بيان أن قتلته ظلمة ، ما استطاع أن يتم خطبته ، بل ربما مزقته الجماعة كل ممزق .

لذا نقول إن المقصد ليس بلازم ذكره في كل الأحوال ، بل من الأحوال ما يجب فيها إخفاء الموضوع ، حتى يبلغ الخطيب غايته ، من تهيئة النفوس لتلقيه ، إن كانوا عنه معرضين ، وله غير مدعين ، أو اضطر إلى أن يخاطبهم بغير ما يالفون .

(ح) تقسيم الخطاب :

إذا كانت الخطبة واسعة الأطراف ، مترامية النواحي ، كثيرة الشعب ، كان على الخطيب أن يجمع أشأتها ، ويضبط أجزائها ، ويقسمها تقسيماً جامعاً لأطرافها وحواشها ، وذلك :

(١) قد تقدم بعضها وأرجع إليها كاملة في كتاب البيان والتبيين ج ٢ ، ونهج البلاغة ج ١ .

١- ليجمع عناصرها عنصراً عنصراً ، وتتميز أجزاؤها جزءاً جزءاً ، فلا يكون فيها اضطراب ولا تهویش ولا شرود .

٢ - وليقف السامع على سياقها وترتيبها ، فيكون على بينة منها ، فيترقب كل جزء في موضعه ، وذلك داع لانتباهه ويقظته وحرصه على الإدراك ، والفهم بعد السماع والالتفات ،

٣ - ولكيلا يضيع جزء منها في مهب الاضطراب والطول واتساع أطراف الموضوع .

١ - ويجب على الخطيب أن يذكر الأقسام في صدر الخطبة في وضوح وجلاء وإيجاز .

٢ - كما يجب أن تكون الأقسام جامعة لكل أطراف الخطبة ، غير تاركة جزءاً من أجزائها .

٣ - وأن تكون فيما بينها متباعدة ، بحيث لا يكون قسم داخل في قسم آخر ، حتى لا يكون اضطراب ، وتهویش وتكرار من غير حاجة إليه ، فيلقى في النفس سآمة وملالاً .

٤ - وأن تكون للعلائق وثيقة بين الأجزاء ، بحيث يكون كل جزء كالمرتب على سابقه ، حتى لا تكون الخطبة مقطعة الأوصال ، منفصلة العرا ، غير حسنة الانسجام .

٥ - وأن يشرح الأقسام بالترتيب الذي ذكره في صدرها ، حتى لا يضطرب فكر السامع ، ولكيلا يلبس عليه ، ولكي يكون النظام محكماً ، فلا يكون تهویش ، ولا خلل .

وأكثر ما يكون التقسيم في المرافعات القضائية ، والخطب السياسية المطبئة ، والشورية المسهية كما ذكرنا ، ومن المرافعات التي ذكر التقسيم الخطابي في أولها ، مرافعة أحمد لطفى السيد « بك » ، في الدفاع عن المتهمين في حادثة دنشواى ، فقد قال في مقدمة دفاعه :

بعد أن سمعت المحكمة مرافعة زملائي ، يكون مركزى خرجا ، ومجالا ضيقا ، وإني لا أخشى أن أقول الحق ، وأحصر دفاعى فى ثلاث كلمات :
فالكلمة الأولى عن سبب الجريمة ، والكلمة الثانية عن تطبيق القانون ،
والكلمة الثالثة فى العقوبة ، والطلبات وتقدير المسئولية . ثم أخذ يشرح تلك العناصر .

وإذا كان الخطيب فى خطبته يرد على خطيب آخر ، يحسن بالقدر الممكن أن يجعل الأقسام ذات اتصال بكلام الخصم وأقسام كلامه ، ليتلافى الرد مع قول الخصم ، فيتضح النقص ويظهر التنفيذ .

ومن أجود ما جاء فى ذلك مرافعة المرحوم أحمد لطفى «بك» فى الدفاع عن قاتل بطرس غالى «باشا» رئيس الوزارة المصرية الأسبق ، فقد ذكر بعد افتتاحه ما يأتى :

تطلب النيابة معاقبة المتهم بمقتضى نص المادة ١٩٤ على اعتبار الفعل المسند إليه جريمة تامة ، وتستند فى ذلك على :

١ - أن المتهم مسئول قانونا عن وفاة المرحوم بطرس غالى «باشا» ، سواء أكانت تلك الوفاة نتيجة مباشرة للإصابات التى أحدثها فى جسم الفقيد ، أم كانت نتيجة الصدمة الناتجة عن العملية .

٢ - وأن الإصابات المذكورة فى الواقع هى التى أحدثت الوفاة مباشرة . والدفاع يجب عن التهمة بما يأتى :

(١) أنه يجب لمسئولية المتهم عن جريمة القتل التام ، أن تكون إصابة المتوفى أحدثت الوفاة مباشرة .

(ب) أن طريق إثبات العلاقة السببية بين الجروح وبين الوفاة لا يقوم إلا بطريق واحد ، وهو الكشف الطبى الشرعى الذى يجب أن يعمل بطريق تشريح الجثة :

(ح) أنه بالرغم من ذلك ، لم يثبت من الأدلة التي أقامتها النيابة أن «الاصابات المذكورة ، صيبت وفاة المرحوم بطرس «باشا» غالى ، وأنها ما كانت نتيجة العملية ، أو أى سبب آخر مجهول .

(د) أنه مهما كان وصف الجريمة قتلا ، أو شروعا فى قتل ، فإن المتهم أيضاً غير مسئول عنها ، ويجب تبرئته منها ، لأنه وقت ارتكاب الفعل لم يكن مالكا لقوة الإرادة والاختيار ، فتسبب عنه قتله .

لذلك يجب أن نتكلم عن كل هذه النقط ثم نأخذ فى بيانها باطناب ونرى من هذا كيف بنى أقسام كلامه على تفنيد كلام الخصم .

الاثبات

هو موضوع الخطبة وغرضها ، إذ فيه تأييد القضية التي يدعو إليها بالدليل والدليل عمود الخطبة ، وقطبها ، وقد كان بعض الأقدمين من الفلاسفة يرى أنه لا يسوغ للخطيب أن يستعمل من وسائل الإقناع سواه ، كما ذكر ابن سينا فى الشفاء ، ولكن الحق غير ذلك ، كما علمت فى الإقناع الخطابى الذى بيناه .

والإثبات قسمان : أحدهما شرح الأدلة التى يعتمد عليها الخطيب فيما يدعو إليه ، وتوضيح القضية بضرب الأمثال ونحوها ، ويسمى ذلك القسم تبياناً ، والآخر هو إبطال حجج الخصم بما ينقض دعواه ، ويسمى تفنيذا .

التبيان

(١) الأقيسة الخطابية والمنطقية :

فى التبيان شرح الخطيب دعواه وبؤيدها بما يراه مثبتاً لها ، مقبلاً لأركانها ، مشيراً إلى فهم لإدراكها ، وقد تكلمنا فيما مضى فى طرق إثارة الأهواء ، ومصادر الاستدلال . ونريد أن نتكلم هنا فى وضع الأدلة وضماً يلائم الخطابة ، ويتفق مع الغرض المنشود منها ، والمرمى المقصود .

ولا شك في أن وضع الأدلة الخطائية يخالف وضع الأدلة المنطقية وبعبارة أدق نقول : إن الأقيسة الخطائية لا تتفق مع الأقيسة المنطقية من كل الوجوه ، ولا تتلاقى معها في كل النواحي :

١ - لأن الأقيسة المنطقية تتألف من قضيتين تسميان مقدمتين ، ولا بد أن تكون كلتاها يقينية ، بينما الأقيسة الخطائية أو الأساليب الخطائية لا تستلزم دائماً ذكر المقدمتين بل يكتفى في كثير من الأحيان بذكر إحدى المقدمتين ، وتطوى الثانية لفهمها من فحوى الكلام ، وروح الخطاب . ولا يلزم أن تكون مقدمتا القياس الخطائي يقينيتين ، بل يكتفى في كثير من الأحيان بالظن الغالب أو العرف الشائع أو المشهور المستفيض أو من قول عرف بالحكمة والسداد ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما مضى .

٢ - ولأن الأقيسة المنطقية ، يكتفى في وضعها بذكر المقدمتين والنتيجة من غير أن يكسو المنطق الكلام بأي طلاء يجعله لدى العاطفة مقبولا ، بينما الأقيسة الخطائية لا يكتفى في وضعها بذلك ، بل لابد من كساء من ألفاظ سهلة رشيقة ، أو ضخمة فخمة ، وضرب الأمثال ، والتقريب والتوضيح ، بالموازنات والمقاييس .

٣ - وفي الجملة إن الأقيسة المنطقية مقيدة بأشكال ووجوه لا تعدوها ، لكي تكون عصمة الذهن من الخطأ تامة ، بينما الخطيب غير مقيد في امتدلاله بأشكال ووجوه ، بل هو يتبع مواضع التأثير ، ومخاطبة الوجدان والعاطفة ، كما يتبع الراعى مواضع الكلأ ، ومنابت العشب ، ومساقط الماء ، ليغذى أرواح السامعين ، كما يغذى هذا أبدان ما يرعاه .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، بل كل الخطب لا يخلو من أن تشتمل على أقيسة محللة من قيود الأشكال المنطقية . ولا ننكر أن التزام الشكل المنطقي في بعض أجزاء الخطبة قد يكون مجملاً لها ، يعطيها رونق التحقيق ، ويكون ذلك شيئاً طريفاً في وسط التأثيرات الخطائية وأساليب البيان ، ولكن ذلك

لا يحسن إلا إذا كان المخاطبون ممن يدركون تلك المناحي ، ومن يفهمون ذلك النوع من الخطاب ، فإن لكل قوم قدراً من المعاني ، ونوعاً من الكلام : وقد قال بشر بن المعتمر في رسالته التي دفعها لإبراهيم السكوني ، وهو يعلم الصبيان الخطابة :

ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينهما وبين أقدار السامعين ، ويبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني ، على أقدار المقامات .

وعلى كل حال يجب ألا يكثر ذلك في الخطبة ، فيسودها الجفاف ، وتذهب الطرافة ، وتنبو التعابير ، وتبعد عن المألوف في حسن الخطاب ، وتخرج الخطابة عن معناها ، وطبيعتها ، وعلى الخطيب إذا استعمل قياساً منطقياً في خطبته أن يعقب عليه بتوضيح معناه بعبارات خطابية وعبارات موشاة توضح مبهمه ، وترطب جفافه .

وأكثر ما تحسن الأشكال المنطقية في مرافعات المحامين التي تتقيد بقيود وثيقة من مواد القانون ، وتخرجاته وتطبيقه ، ولا تحسن إلا بالشروط التي أسلفناها ، ولا بد أن تكون في صدر الجزء الذي تتعلق به ، أو في ختامه .

فثلاً إذا كان المحامي يريد أن يثبت أن عقد بيع مزرعة كان صحيحاً ، وأنه خرج مخرج الوصية ، لأن الصفة كبيرة ، ولا يعرف للمشتري مصادر مالية ، تناسب الثمن ، ولأنه لم يدفع الضرائب عن المزرعة ، بل دفعها للبائع إلى أن مات ، ولأنه لم يستوف أجرها طول حياة البائع ، ولأن البائع أب للمشتري - إذا أراد المحامي هذا الإثبات ، قال في أول الكلام في هذا الجزء أو في آخره ، المشتري ابن البائع ، ووارث له بعد موته ، وقد باعه تلك المزرعة الكبيرة بيعاً صحيحاً ، يخرج مخرج الوصية شرعاً ، وكل وصية للوارث لا تصح شرعاً إلا بأجازة الورثة ، فهذا العقد لا يصح إلا بأجازة

الورثة ، ثم يأخذ في بيان ما يراه مثبتا لهاتين المقدمتين بأقيسة قد اختلطت فيها الحقائق بالأساليب الخطائية ، هذا إذا ذكر ذلك القياس أولا . وإن أراد يذكره آخره ، شرح الحقائق على النحو الذي ذكرناه ، ثم عقب به ، فيكون ثمرة للشرح الذي سبقه . ويكون له وقع حسن في نفس القاضي ومجلس القضاء .

الأقيسة والأساليب الخطائية :

وإذا عرفنا الفرق بين الأقيسة المنطقية ، والأقيسة الخطائية ، وما يستحسن من المنطق فيها ، والشروط التي يجب اتباعها عند وضع الأشكال المنطقية في الخطبة ، إذا عرفنا ذلك ، وجب أن نعرف الأوضاع الخطائية التي يسوق فيها الخطيب الأدلة على صحة دعواه ، وبيان مرماء .

لذا نقول : إن لذلك طرائق متشعبة ، ومسالك متباينة ، يشتقها الخطيب من حال الجماعة ، ومن تجاربه الخاصة ، ولذلك لانستطيع لها إحصاء ، فنكتفي بذكر بعض أوضاع شاغ استعمالها في الاستدلال الخطائي .

(١) الاستدراج :

بألا يفاجأ السامعين بالتصريح بما يعقده كله ، بل يشككهم فيما يعتقدون ، وفيما يفعلون ، أو يصرح لهم ببعض ما تنتجه براهينه ، حتى إذا آنس منهم رشداً ، وأدرك منهم ميلا خاطبهم بكل نفسه ، وقد يكتفي ببيان ذلك القدر ، إن لم تكن النفوس قد تهيأت ، والعقول قد استيقظت لإدراكه كله . والاستدراج باب خطابي واسع النطاق ، وقد تصدى لشرحه بعض علماء الأدب العربي .

وننقل لك ما كتبه فيه ابن الأثير في المثل السائر إذ جاء فيه :
هذا الباب قد استخرجته من كتاب الله تعالى ، وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال ، والكلام فيه ، وإن تضمن بلاغة ، فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط ، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت .

الدقيقة في استدراج الخصم إلى الاذعان والتسليم ، وإذا حقق النظر فيه ، علم أن مدار البلاغة كلها عليه ، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ، والمعاني اللطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها ..

والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلاهه ، لا قصيرا في خطابه ... وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق ، فمن ذلك قوله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا ، فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب .

مأخذ هذا الكلام وألفظه فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا ، فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن تعرضتم له ، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ، ما أذكره لك فأقول : إنما قال يصبكم بعض الذي يعدكم ، وقد علم أنه نبي صادق ، وأن كل ما يعدهم به لا بد أن يصيبهم كله لا بعضه ، لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى عليه السلام ، أن يسلك معهم طريق الانصاف والملاطفة في القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم إياه ، فقال وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، وهو كلام المنصف ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به ، لكنه أردف بقوله : يصبكم بعض الذي يعدكم ، ليضم بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا ، فضلا عن أن يتعصب له . وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برطلهم في صدر الكلام بما يزعمونه ، لئلا ينفروا منه ..

ومما يجري على هذا الأسلوب قوله تعالى :

« واذكر في الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت : لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت ، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت ، لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يعسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان ولياً . »

هذا كلام يهز أعطاف السامعين ثم أخذ يشرح الاستدراج في هذه الآية الكريمة ، وهو واضح للمتأمل البصير .

وترى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإثبات المدعى ، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب فيما عليه من يخاطبهم ، ثم يلقي إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين ، حتى إذا اطأ إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة ، يقودها إلى حيث شاء ، ألقى إليهم بالنتائج كلها لبراهينه . والاستدراج كما رأيت ، يكون في المقامات الخطائية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة - لأمر لم تألفه الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه .

(ب) القمص :

قد يعتمد الخطيب إلى وضع أدلته في شكل قصص ، فيذكر حال جماعة تشابه الجماعة التي يخاطبها ، ويذكر ما يجري بينها من مناقشات في الموضوع الذي يتكلم فيه ، ويجري الحجة على ما يدعو إليه على ألسنة الفريق الذي يدعو إلى الرشاد ، وقد يذكر المعنى الذي يرمى إليه مصوراً في قصة فرضية ، أو حقيقية ، ليكون المعنى واضحاً مكشوفاً ، كما كان يفعل الخطباء القصاص في العصر الأموي .

ومن أبلغ القصص الذي كان طريقاً منتجاً للاستدلال قصص الحسن البصري ، ومن أبلغه ما قاله في بيان أن الناس متساوون ، لافرق بين شريف ووضع بعد الموت ، فقد قال :

قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة ، وأمير المصريين ، وأشب الناس ، فلما صرنا به إلى الجبانة فإذا نحن بأربعة سودان ، يحملون صاحباً لهم ، فصلوا عليه ، ثم حملنا بشرا إلى قبره ، وحملوا صاحبهم إلى قبره ، ودفنا بشرا ، ودفنوا صاحبهم ، ثم انصرفوا ، وانصرفنا ، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي ، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه .

انظر إليه قد بين مساواة الناس بعد الموت في ذلك القصص الواضح الذى يدفع إلى التسليم قسراً ، وفيه من لطف الإشارة ، وحسن التعريض ما يزيده جمالا ، ويستغنى به عن كل استدلال .

ومن وضع الأدلة في وضع قصصى كل الأمثال الفرضية التى يذكر فيها قصص غير حقيقى ، وتجري حقائق على أسنة الحيوان كما فعل ابن المقفع في كتابه كلبلة ودمنة .

ومن ذلك النوع خطبة الإمام على رضى الله تعالى عنه التى ضرب فيها مثلاً : الثور الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، وقد ذكرناها فيما مضى فارجع إليه .

(ج) الأقيسة الإضهارية وذو الحدين والتمثيل والحلف :

قد يستعمل الخطيب تلك الأقيسة في خطبته لتلاؤمها مع الأغراض الخطابية ، وأسلوب البيان ، والحقائق التى يرمى إلى بيانها الخطيب ، وتلك الأقيسة تؤدي بعض ما تؤديه الأقيسة المنطقية ، ولا يضر ذكرها بعبارات البلقاء ، ولا ينافى روعة الكلام .

وقد قال ابن سينا في الشفاء : الخطابة معولة على الضمير (١) والتمثيل ، وقال في موضع آخر : إن الخطابة إنما تحذف الكبريات فيها ، لأنها لو صرح بها لزال الإقناع .

(١) يقصد بذلك القياس الإضهارى وهو ما حذف فيه كبرى القياس ..

١ - القياس الإضمارى :

والقياس الإضمارى شائع الاستعمال فى الخطب فإن أكثر الخطباء يعمدون فى استدلالهم إلى طى بعض المقدمات ، لأنها مفهومة من فحوى الكلام ، وواضحة من لحنه .

ومن ذلك قول الإمام على بن أبى طالب فى خطبته عند مسير أصحابه إلى البصرة :

إن فى طاعة الامام عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ، ولا مستكره بها .

وترى من هذا أن إحدى مقدمات للقياس محذوفة ، إذ لو وضع الكلام وضعاً منطقياً لقليل إن فى طاعة الإمام عصمة لأمركم وكل ، ما اشتمل على عصمة أمركم يجب الأخذ به الخ . ولا تكاد تجد خطبة تخلو من ذلك النوع من الحذف ، إلا فى النادر القليل .

٢ - والقياس ذو الحدين :

أن يفرض فى القضية فرضين ، ويبين أن كلا منهما يؤدي إلى غايته ، أو يثبت نقيض ما يدعى إليه خصمه ، كما قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى كتاب أرسله إلى طلحة والزبير رضى الله عنهما :

قد علمنا أنكما ممن أرادنى وبايعنى ، فإن كنتما بايعتاني طائعين فارجمنا إلى الله ، وتوبا من قريب ، وإن كنتما بايعتاني كارهين ، فقد جعلنا لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة ، وإمرازكما المعصية .

٣ - التمثيل ::

أن يقيس الأمر الذى يدعى إليه على أمر مسلم به عند الجماعة فيلحقه به فى الحكم لجامع بين الأمرين ، وكثيراً ما يكون ذلك فى الخطابة ، خصوصاً

إذا أراد الخطيب أن يقرب ما يدعو إليه من المعروف لديهما المؤلف عندها ، ومما جرى مجرى الاستدلال التمثيلي قول الإمام على رضى الله عنه في شأن مبايعة المؤمنين لأبي بكر رضى الله عنها :

لكن نبينا كان نبي رحمة ، مرض أياما وليالى ، فقدم أبا بكر على الصلاة ، وهو يرانى ويرى مكانى . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيناه لأمر دينانا ، إذ رضىه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ديننا ، فسلمت عليه وبايعت ، وسمعت ، وأطعت .

٤ - قياس الخلف :

وهو الذى يقصد فيه إثبات المطلوب بإبطال نقيضه كقوله تعالى : « لو كان فيهما آفة إلا الله ففسدنا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . وكثيراً ما يتخذ ذلك وسيلة للإثبات ولإبطال دعاوى الخصوم في الخطب القضائية في دور المحاكم .

ومن ذلك مرافعة بعض وكلاء النائب العمومى في فرنسا ، يطالب بإعدام متهم بالقتل ، ودلل على ذلك بعد إثبات القتل ، بإبطال كل طلب للتخفيف . فقال :

أيجوز لى - بعد ما أظهرته لحضراتكم من الظروف المشددة ، أن أتحدث عن الظروف المخففة ، ولو لمجرد الرد عليها ، ظروف مخففة أين هى ؟ أين مكانها ؟ إنى لا أرى فيما حولى إلا دما مهراقاً ؟ أتبحثون عنها في سوابق المتهم ؟ فما أسوأها من سوابق ، لقد نسى ما علمه له أهله من دروس حكيمة ، ولم يصغ لنصائح والده ، فقاده سوء الخلق لارتكاب الجرائم ، أم تبحثون عنها في الباعث له على ارتكاب الجريمة ؟ لقد قتل لنسرق ، لقد أسال هذا الدم الغالى البرىء ، الذى لا ترده أموال الدنيا جميعها ، ليكسب مقذاراً حقيراً من المال ، دراهم معدودة ، أم تريدونها

في الطريقة التي ارتكب بها جريمته ؟ لقد ارتكبها بطريقة وحشية ؟ تقشعر من هولها الفطرة الإنسانية ، أم في وقفته أمام القضاء ، وها هو ذا يقف لاموضع للندم في قلبه ، ولا أثر للأسف في نفسه يقذف في وجه القضاء بالأكذوبة تلو الأكذوبة غير هباب ، ولا وجل .

هذا ، ويجب على الخطيب في إيراد قضيته وتأييدها بدلائلها ، أن يجعل كلامه كما سكا آخذاً بعضه بحجز بعض ، بحيث تكون كل فكرة ممهدة لما تليها ، منبئة عنها ، أو مشيرة إليها ، لأن الفكرة لا تعيش إلا مع أخوانها ، أو مع ما يلائمها ، فإن ذكرت من غير تمهيد ، لم تستقر في النفس ، ولم تسكن في القلب ، وفوق ذلك لا يكون الكلام متسقاً في تركيبه ، متساوفاً في معانيه .

ولذلك يجب على الخطيب أن يلاحظ قانون تسلسل الأفكار ، ملاحظة تامة ، ليستخدمه في إثارة أفكارهم ، وتهيتها لما يريد ، فإن أثار خواطرهم نحو فكرة ، ألقى إليهم فيها ما يرضى نهتهم ، وما يكون إجابة لطلبهم ، فيستقر في النفس ، لأنه يكون بياناً في وقت الحاجة إليه ؛ فيتمكن في النفس . أبلغ تمكن ، ويثبت فيها أقوى ثبات .

التفنيد

هو أن يبين الخطيب بطلان ما يدعيه الخصم

والتفنيد مقام خطير لا يناله إلا ذو البيان القوى الذي أوتي أكبر حظ من حضور البديهة ، والعلم الغزير ، والاستيلاء على أساليب القول ، إذ هو جواب الخصم على ما يدعى من مذهب ، وما يؤيد به دعواه من حجج ، وهو إزالة تأثير حجج الخصم ، وأثرها في نفوس السامعين ، وقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد : « إن الجوابات هي أصعب الكلام كله مركبا ، وأعز مطلباً ، وأعمضه منصباً ، وأضيقه مسلکا ، لأن صاحبه يعمل مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، يروم في بديته نقض ما أبرم القائل

فى رويته ، فهو كمن أخذت عليه الفجاء ، وسدت له الخارج ، قد
اعترض الأسنة واستهدف للمرمى لا يدري ما يقرع فيتأهب له ، ولا ما يفجؤه
من خصمه فيقرعه بمثله . ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع
الكلام ؛ فقاده بزمامه بعد أن رأى فيه ، واحتفل ، وجمع خواطره
واجتهد ، وترك الرأى يغيب . حتى يختمر . . . فلا يزال فى نسج الكلام ،
واستنباته ؛ حتى إذا اطمأن شاردته وسكن نافرته ، صك به خصمه
جملة واحدة ، ثم قيل له : أجب ، ولا تخطيء ، وأسرع ، ولا تبطيء ،
فتراه يجواب من غير أناة ، ولا استعداد يطبق المفاصل ، وينفذ
المقاتل ، كما يرمى الجندل بالجندل ، ويقرع الحديد بالحديد ، فيحل به
عراه ، وينقض به مرائره ، ويكون جوابه على أكثر كلامه ، كسحابة
لبدت عجاجته ، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر ، ولا أعز من
الخصم الألد الذى يقرع صاحبه ، ويصرع منازعه بقول كمثل النار فى
الخطب الجزل .

والتفنيد حالان :

إحداهما أن يتصدى لنقض براهين الخصم قبل أن يدلى بها وذلك
بأن يفند كل ما يتصوره دليلا لخصمه ، ويفرض كل الفروض ، ثم
يهدمها فرضاً ، فرضاً ، حتى لا يبقى أمراً ثابتاً سوى دعواه ، ويعمد
إلى هذا بعد أن يشبع السامعين ، بدلائل إيجابية ، على صدق دعواه ؛
ليكون التعقيب قطعاً لطريق الإثبات على الخصم ، ومهاجمة له فى صميم
استدلاله .

ثانيهما : أن يرد على الخصم بعد إلقاء أدلته ، بأن يبين ما فيها من
غلط وتليس ، ويبطل ما يتجه إليه من نظر .

ومهما يكن وقت رده ، يجب أن يكون هو متنبهاً يقظاً إلى كل ما يعتمد
عليه خصمه من دليل ، وأن يكون فى رده عليه واضحاً ، معلناً أن

الغرض الوصول إلى الحق ، لا الغلبه والسبق ، وألا يشرى عن موضع النزاع ، ولا يحيد عن الاعتصام بأداب اللياقة وحسن الأخلاق .

وأوجه الرد على الخصوم متعددة مختلفة متباينة : منها إبطال مقدمة دليل خصمه ، ومنها إقامة الدليل على نقيض دعواه ، والموازنة بين الدليلين ، وإثبات أن دليله أقوم قليلا ، وأسد منهجا ، ومنها المنع وعدم التسليم ، وبيان أن لا دليل على ما يقول ، ومنها الاستشهاد بالثقات على ما يقول .

وأقوم أساليب الرد أن يبتدىء عند تفنيد أدلة خصمه ، بذكرها واضحة قوية الوضوح ، ويحسن أن يضعها في شكل قياس منطقي ؛ لأن الأشكال المنطقية ، يساعد وضعها على تزييف ما يراه الخصم ، إن كان هناك موضع للتزييف ، ثم يتجه عند نقضه إلى الأقيسة الخطابية ، والأشكال المنطقية معاً ، على النحو الذى أسلفناه في التبيان .

ومن أمثل الخطب المشتملة على تفنيد كلام الخصم في نهوض استدلال مع الأدب الجم ، والخطاب الرائق ، ما جاء في إحدى خطب المغفور له سعد «باشا» زغلول في الجمعية التشريعية يرد على الحكومة فيما كانت تراه في إنشاء الجماعات التعاونية ، فقد قال : موضوعنا الذى نناقش فيه والذى استلقت إليه أنظار حضراتكم هو هذا ، كيف تتكون شركات التعاون ؟ هل تتكون بأمر من السلطة الإدارية ، أو بدون أمر من هذه السلطة ؟ ترى الحكومة وجوب ألا توجد هذه الشركات إلا بأمر إدارى ، وترى اللجنة أنها توجد كسائر الشركات التى لا تحتاج في تكوينها ، إلا إلى العقود ، ولكن لا يكون وجودها حجة على الغير ، إلا إذا سجلت عقودها ، بطريقة خاصة ، وبحسب شروط خاصة . تقول الحكومة تأييداً لرأيها : إن الشركات في حاجة ضرورية إلى اقتراض المال ، وكل شركة محتاجة إلى اقتراض ، لا يمكنها الحصول عليه بفائدة معتدلة.

إلا بواسطتي ؛ ويلزم كون شركات التعاون في حاجة إلى وساطتي هذه
ألا توجد إلا بأذني ؛ فلذا أنا أشرط وجود هذا الشرط . مقدمات غير
مسلمة ، ونتيجة باطلة ، أما وجه بطلان المقدمة الأولى ، وهي أن كل
شركة في حاجة إلى اقتراضي المال ، فإن الذي نعلمه أن هناك كثيراً من
الشركات مكتفية بـرؤوس أموالها ، وما تنتجه رؤوس الأموال هذه من
الأرباح ، بدون حاجة إلى الاقتراض ، وهي مسألة بديهية ، يعرفها
الناس جميعاً . فلا تحتاج إلى دليل . وأما المقدمة الثانية وهي أن كل
شركة تكون محتاجة إلى الاقتراض ، لا يمكنها الحصول على المال بفائدة
معتدلة ، إلا من طريق الحكومة وتدخلها ، فهي مجرد دعوى من
الحكومة ، قد ادعتها ، ولم تقم الدليل عليها ، ولا أظنها تستطيع ذلك ،
ومع ذلك فهي تريد أن تبني عليها أمراً مهماً جداً ، وهو أن يكون لها
حق في أن نأذن للشركات بالوجود . ووجه بطلان هذه المقدمة أن الشركة
مادامت قانونية ، وما دامت حالتها تدعو إلى الاطمئنان ، فلا يوجد مانع يمنع
المصارف من إقراضها المال بتلك الفائدة المعتدلة .

وأما بطلان النتيجة فلأنه لا يلزم من كون شركات التعاون ، تحتاج
إلى وساطة الحكومة في الحصول على المال ، ألا توجد إلا بإذنها ، لأنه
لرابطه تربط مسألة الوساطة بمسألة الإذن ، إذ من المعلوم أن الشركة
موجود معنوي له حقوق ، وعليه واجبات ، والموجود المعنوي كالموجود
الحقيقي سواء بسواء ، فكما أن الشخص الحقيقي لا يحتاج في وجوده لإذن
من الحكومة ، كذلك الشخص المعنوي ، لا يحتاج في وجوده ، إلى
هذا الإذن منها ، والحكومة لا يمكنها أن تقول : إن وجود هذه الشركات
موقوف على إذني ما دامت محتاجة إلى وساطتي في الحصول على المال .
كما أنها لا يمكنها أن تقول : إن وجود هذا المولود في الحياة متوقف
على إذني ، ما دام محتاجاً إلى الغذاء ، والكساء ، والرضاعة ،
والتربية . ثم يسترسل رحمه الله في تفنيد خطابي مجيد بعد ذلك التفنيد
المنطقي المبين .

الخاتمة

هى آخر ما يلقيه الخطيب من خطبته ، فلها الأثر الباقى الواضح ، إذ آخر كلامه ذكراً ، فكانت أعلقه بنفوسهم ، وأكثره اتصالاً بقلوبهم فإن هى كان وقعها حسناً ، انسحب ذلك على الخطبة حسناً ، وإلا ساء الأثر وضاعت الغاية المنشودة ، والأمل المرجو ، والأمر المبغى ، ولذلك يجب أن يكون فيها من جمال التعبير ، وحسن الانسجام ، وجودة المعنى ، وإصابة الغرض ، ولطف المقطع ، وإحكامه ، ما يبقى أحسن الآثار وأحكم الأفكار .

ويحسن أن تكون الخاتمة مشتملة على :

١ - موجز لما ألقاه ، وتوضيح كامل لغايته وممراته .

٢ - وأن تكون مثيرة للعاطفة فى الأمر الذى يريده الخطيب ، فإن كان تهديداً وإنذاراً كان فيها أتواهما ، وإن كان إثارة للحجاسة ، وحزناً للهمم ، ألقى فى الخاتمة أبلغ ما يثيرهما ، وإن كان يريد من خطبته إثارة عاطفة الرحمة ، أتى بأشد ما يثيرها فى خاتمة القول .

ومن أقوى الكلام الذى حسن اختتاماً ، قول على بن أبى طالب فى كتاب أرسله إلى معاوية يرد به على تهديده إياه : وأنا مرقل نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم باحسان شديد زحامهم ، ساطع قتامهم ، متسرلين سربال الموت ، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم ، قد صهبتهم ذرية بدرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك ، وجدك ، وأهلك ، وما هى من الظالمين بعيد .

ومن أبلغ الاختتام ما قاله المرحوم سعد «باشا» زغلول مختتماً لإحدى خطبه التى قالها إثارة للحمية :

أيها المصريون ، استمروا بكل همة وإقدام في طريق استقلالكم ،
واحترام حقوقكم ، وستلاقون فيه عقبات ، فذللوها بعزوماتكم ،
وآلاماً ففاسوها بحسن احتمالكم ، وستطلب منكم ضحايا فابدلوها
بكرمكم ، وسيقع عليكم ضغط شديد فقابلوه بهممكم العالية ، وعزمكم
الصادق ، إذ كلما علت الهمم ، وصدقت العزائم ، هانت الخطوب ،
ودنت المنى ، ونجح المسعى ، وكان النجاح عظيماً ، وكلما كان ثمن الاستقلال
غالياً ، وأكلافه باهظة ، حرصنا عليه بعد نيله وكان علينا بركة ، وعلى
البلاد نعمة وسروراً :

التعبير

تكلّمنا في الفصول السابقة في إيجاد المعاني الخطائية وتنسيقها ، والآن نتكلّم في طرق تأديتها ، والتعبير عنها ، والدلالة عليها ، والألفاظ التي تناسبها ، والأساليب التي تليق بها ، وما يجب أن تكون عليه الخطبة في مناهجها ، ومقاطعها ؛ وفي الجملة نتكلّم في الإنشاء الخطابي وما يجب أن يكون عليه .

١ - قبل أن نخوض في الموضوع ، يجب أن نشير إلى مسألة كتب فيها بعض الكتاب ، وهي مكانة الألفاظ في الإنشاء ، فإن بعض الأدباء الذين تأثروا ببعض الآداب الأوربية ، وحاولوا أن يقبّسوا منها في كتاباتهم العربية أخذوا يثنون بين النشء ، أن المعول عليه في الإنشاء المعنى ، لا اللفظ ، وأن المعنى المحكم لا يحتاج إلى اللفظ الجميل ، لأن الجمال كله يرجع إلى المعنى ، إذ هو مناط التقدير ، وسبب التأثير ، بل يذهب بهم فرط غلوهم إلى ادعاء أن تحسين اللفظ يذهب بجلال المعنى ، وأن جودة الصقل تجعل على المعنى غشاء كثيفاً يمنع من البروز والظهور ، وقد صادفت فكرتهم هوى في نفوس بعض الكتاب ، فخلت كتابتهم من الديباجة العربية ، بل أسفت في بعض الأحيان إلى الابتذال ، وبرودة الألفاظ ، وخروج الأسلوب على المنهج العربي ، وهم يعدّون طريقتهم هي الطريقة المثلى .

وفي الحق إن ذلك شطط ، وهضم لمكان الألفاظ في الدلالة والتأثير ، ولعله كان محاربة لشطط آخر في جانب الألفاظ ، فإننا قد ورثنا عن عصور ضعف اللغة العربية ، عناية باللفظ ، لا بالمعنى حتى جعلوا المعنى بالمحل الثاني ، واللفظ المكان الأول ، فكان الإنشاء ضجيج ألفاظ ، وقعقة عبارات ، والمعنى تافه صغير .

٢ - ولسلوك الجادة المستقيمة يجب أن نعطي المعنى حقه ، واللفظ

حقه ، وأن نعرف أن الألفاظ هي التي تظهر المعاني ، وتجملها وتبديها في رواء هي . ويعتقد جوستاف لوبون أن شطراً كبيراً من تأثير قواد الجماعات ، خطباء وكتاباً ، يعود إلى الألفاظ التي يثيرون بها صوراً وآمالاً في نفوس الجماعات ، وإن كانت في ذاتها معانيها مبهمة ، غير محدودة ولا مضبوطة ، فهو يقول : لبعض الألفاظ والجمل ، سلطان لا يضعفه العقل ، ولا يؤثر فيه الدليل ، ألفاظ وجمل ، ينطق بها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات ، فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين ، وتعنوا الوجوه له احتراماً ، وكثيرون يعتقدون أن فيها قوة إلهية ، ألفاظ وجمل تثير في النفوس صوراً لا كيف لها ، ولا انحصار ، محفوفة بالإكبار والإعظام إيهامها يزيد في قوتها الخفية . وإذا كانت هذه الألفاظ التي تثير صوراً مبهمة ، غير معروفة بالتعيين ، لها ذلك الأثر ، فكيف يكون الشأن للمعنى المحكم قد كسى بلفظ جميل ، وألقى في أسلوب منسجم ، وعبارات تثير في النفس أخيلة وأمانى وأحلاماً .

٣ — ويظهر أن المعركة قديمة بين أنصار الألفاظ ، وأنصار المعاني ، فإننا نرى في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري دعوة صارخة إلى العناية بالألفاظ ، بجوار العناية بالمعنى ، ويرد على من يرى أن العبرة في جودة الكلام إلى معانيه فقط ؛ ويرى أن تفاوت البلغاء في البلاغة ، ليس بإيراد المعاني بل بجودة الألفاظ وحسن سبكها فيقول : ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط ؛ لأن الردي من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعتته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه وحسن مقاطعه ، وبديع مبادئه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم منشئه . وأكبر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ ، دون المعاني ، وتوخى صواب المعنى أحسن من توخى هذه الأمور في الألفاظ .

ونرى أيضاً ابن الاثير يرد على من يزعم أن الألفاظ تتساوى في الحسن مادام المعنى واحد فيقول في المثل السائر : ومن يبلغ به جهله إلى أن لا يفرق بين لفظ الغصن ولفظ العسلوج ، وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل .. فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاب بجواب ، يل يترك وشأنه ، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد ، شوهاء الخلق ، ذات عين حمرة ، وشفة غليظة ، كأنها كلوة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح ، وطرة كأنها ليل على صباح ، فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة ، وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام ؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة ؛ ومن له أدنى تأمل يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة ، كنغمة أوتار ، وصوتا منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهى على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم .

٤ — ومن هذا كله ترى أن تحسين اللفظ يجب أن يكون بجوار إحكام المعنى ، وأنه لا غنى للمنشىء عن المعنى المحكم ، لأنه عمود الكلام ، والمقصد الأسمى ، ولا عن اللفظ لأنه بهاء القول ، وزينته ، غير أنه يجب أن يلاحظ للنشء السذاجة ، وأن يبدو التحسين طبعياً من غير تكلف ظاهر ، فيجتهد في تحسين اللفظ ، ولكن يظهر به في مظهر الطبعي الذي لا تعمل فيه ، لأن التكلف إن ظهر . ثقل على النفس ، وكان الكلام مستهجنًا ، وقد قال أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه نقد الثثر : ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمى سديداً ؛ وكان العيب معها بعيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ، ومعانيه جارياً على سجيته ، غير مستكره لطبيعته ، ولا متكلف ما ليس في وسعه ؛ فإن التكلف إذا ظهر في الكلام ، هجنه ، وقبح موقعه ، وحسبك من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر رسوله

صلى الله عليه وسلم ، بالتبرؤ منه فقال تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) .

فنحن وإن طالبنا المنشيء خطيباً أو كاتباً أن يعنى باللفظ ، ويعمد إلى تجميله وتحسينه ، فليس معنى ذلك أن يتكلف ، ويبدو متكلفاً ، متشادقاً متفريقاً ، بل معناه أن يجعل كلامه منسجماً ، متآخى النبرات لاتنبو ألفاظه ، ولا تتجافى عباراته ، ولا يسف في أسلوبه إلى العامة .

الفرق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي :

١ - لم يفرق كثيرون من النقاد الأقدمين بين الأسلوب الكتابي ، والأسلوب الخطابي ، فقدامة يعد البلاغة في الكتابة والخطابة واحدة ، ولكنه يتساهل مع الخطيب المرتجل ، ويغفر له هنات لا يغفرها للكاتب ، ويروى قول عبد الله بن الأهم : إني لست أعجب من رجل تكلم بين قوم ، فأخطأ في كلامه ، أو قصر عن حجته ؛ لأن ذا الحجا ، قد تناله الخجلة ، ويدركه الحصر ، ويعزب عنه القول ، ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاساً ، وخلا بفكره وعقله ، كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريد ، أو وجه من وجوه المطالب يؤمه .

وأبو هلال العسكري يقول : واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل ، فالألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب ، في السهولة والعدوبة ، وكذا فواصل الخطب ، مثل فواصل الرسالة ، لافرق بينهما ، إلا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة .

٢ - والذي نراه ويراه كثيرون من الأدباء المحدثين ، وبعض المتقدمين أن للكتابة إنشاء ، وللخطابة إنشاء آخر ؛ لأن الكاتب غير الخطيب ويلاحظ في عبارات الثاني مالا يلاحظ في عبارات الأول ، فإن كلمات الخطيب

يلاحظ فيها أمران لم يلاحظا في الكتابة : إحداهما أن الكلمات تمر على لسان الخطيب قبل أن يلقبها . وثانيهما أن لها أثرا في آذن السامع ، ولجرسها وقع في نفسه ؛ فالسامع للخطيب يذوق ، ويسمع ويفهم ويلاحظ النطق . أما القارئ للكاتب ، فينظر إلى استقامة الأسلوب . ويفقه المعنى فقط ؛ ولذلك يجب أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق ، لا يتعثر اللسان في إبرازها ، ولا تتراحم حروفها ؛ فلا تتقارب مخارجها ، ولا تتباعد ، وأن تكون ذات رنين خاص يهز أوتار النفس ويثير الشعور ، ويجب أن تكون مقاطع الخطبة ذات وقع مؤثر ، يلذ للسمع ، ويحمل الكلام . أما الكتابة فلا يشترط في مقاطعها مثل ذلك الشرط ، بل ربما لا يلاحظ أن يكون لها فواصل .

٣ - وإن الكتابة قد تقيد بقيود المنطق ، ولا تشتمل على ما يثير الشعور ، ويوقظ الوجدان ، كالمذاكرات القانونية ، وأشباهاها ، ولا يعد ذلك عيبا فيه ؛ أما الأسلوب الخطابي ، فاذا ذهب عنصر الشعور والوجدان منه ، فقد أكبر خصائصه ، وأعظم مزاياه .

٤ - وإن التكرار والتفنن في التعبير عن المعنى بعبارات وأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير الخطابي ، يتجه إليه الخطيب ، فيكرر القضايا الكلية مرة مقرا ، ومرة مستفهما ، وأخرى مستنكرا ، ومرة متكهما ، وأخرى عاقدا بينها وبين سابق عرفاتهم ، وذلك كله من غير شك في غير المقامات التي لا تقتضى إيجازا ، أما الكتابة فإن أكثر الإطناب فيها لا يكون على هذه الشاكلة ، بل بالتحليل ، والتفصيل ، والاستقراء ، ونحو ذلك .

٥ - وإن الخطيب مأخوذ في إطنابه ، وإيجازه بحال السامعين ، من حيث قبولهم أو رفضهم ، وإقبالهم ، أو مللهم ، فقد يشير إلى بعض العناصر إشارة ، ويلم بها إلمامة ، بينما يطنب في العناصر الأخرى ، ويسهب في القول ؛ لأن حال السامعين تقتضى ذلك . أما الكتابة ؛ فيجب أن يوفى فيها الكاتب ما يكتب ، بإيجاز أو بإطناب ، لأن بين يديه الموضوع فقط ،

وليس كذلك الخطيب ؛ إذ يلاحظ السامعين فيطنب أحيانا ؛ ليرضى شهوتهم ، وليستفز شعورهم ويوجز ، بل يشير إن اضطر إلى ذلك ، فتبدو الخطبة بادية الرأى غير متناسبة الأجزاء ، ولا متلائمة ، ولكنها الحال هى التى اضطرت به ، وأجأته ، والكاتب فى فسحة هو وقارته .

٦- هذا مجمل صغير يشير إلى ما بين الأسلوب الخطابى ، والأسلوب الكتابى ، من فروق ، وقد يقول قائل : إن بعض الخصائص الخطابية نجدها فى بعض الكتابات ، ككتاب يرسله زعيم إلى أمته ، أو مقال صحفى يكتبه الكاتب فى صحيفة بحث فيه الأمة على فعل ، ويدعوها إليه ، أوينهاها عن أمر ، ويبغضها فيه ، ونحن نوافق القائل على ذلك ؛ ونقول : إن الأسلوب الخطابى غالب فى الخطابة ، والكتابى غالب فى الكتابة ؛ وقد تستعير الكتابة من الخطابة أسلوبها ، كما إذا كان الكاتب فى مقام يشبه مقام الخطابة ، كزعيم يخاطب أمته عن طريق الصحف إذا تعذر عليه خطابها عن طريق المشافهة ، وقد يستعير الخطيب من الكتابة أسلوبها ، ويكون ذلك موافقا لمقتضى الحال ، كبعض المحامين الذين تستغرق مرافعاتهم الدفوع القانونية ، والبحوث الاشتراعية . فن الكتابة ما يكون خطابة ، تنقصها المشافهة ، ومن الخطب ما يكون كتابة ينقصها القلم .

وما دمتنا فى مقام التعبير عن الخطبة دون سواها فلتنتجه إلى بيان الإنشاء الخطابى فصل بيان :

الإشياء الخطائي

نريد في هذا الموضوع أن نتكلم في ألفاظ الخطبة ، وأساليبها ومقاطعها ، وما ينبغي أن يلاحظه الخطيب في كل منها .

الألفاظ :

نريد بالألفاظ الكلمات المفردة ، وقبل أن نبين ألفاظ الخطبة نقول : إن بعض علماء النقد الأدبي ، كعبد القاهر ، أنكر أن تكون للكلمات فصاحة خاصة ، وجعل الفصاحة والبلاغة خاصيتين بالتركيب ، ولا تتناولان المفرد ، فهو يقول في دلائل الإعجاز : هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ؛ وحسن ملائمة معناها ، لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا اللفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافها قلق ونايبة ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك ، من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق الثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها . وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ، ابلعي ماءك ، ويا سماء ، أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » فتجلى منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع ؛ إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وإن لم يعرض الحسن والشرف إلا حيث لاقت الأولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها ، . ثم يسترسل في تحليل أوجه البلاغة في الآية الكريمة .

وأكثر علماء البلاغة والنقد على أن للألفاظ فصاحة خاصة بمفردها وقد ذكرنا لك بعض مقالة ابن الأثير في هذا المقام آنفاً ؛ فارجع إليه .

وبهذا الرأي نأخذ ، وعليه نعتد ، وعلى ذلك نذكر بعض الأوصاف اللازمة للكلمات التي تتألف منها الخطابة ، ولا نتعرض لما قاله علماء البلاغة في مقدمة علومها ، من وصف للكلمة الفصيحة ، فذلك يعم الكتابة ، والخطابة ، والشعر ، وإنما نتعرض لما هو من خصائص مفردات الخطابة ، وميزاتها ، ولوازمها ، هي كثيرة منها :

١ — أن يكون اللفظ واضحاً مكشوفاً وقريباً معروفاً ، من السهل إدراك معناه ، والوصول إلى مرماه ، لا يبعد عن مألوف السامعين ، ولا يتناهى عن معروفهم ، وإلا كان غريباً يعلو على مداركهم ، ومن يفهمه منهم يحس بأنه غير أنسى ، ويشبه أن يكون وحشياً ؛ لأنه يعيش في غير بيئته ، ويخاطب به أهله ، وقد تكون الكلمة التي على هذه الشاكلة من العربية الصحيحة التي كانت شائعة عند العرب ، ولكنها غير شائعة عند الجماعة التي يخاطبها ؛ ولهذا تستهجن مخاطبتهم بها لأن الخطبة للتأثير فيهم ، وإثارة وجدانهم ، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم لهم ، مأنوس الاستعمال عندهم .

٢ — ألا تكون الألفاظ مبتدلة أو مستقلة إلى درجة العامية . فيذهب رواء الخطبة ، ويضيع جلال معانيها ، كاستعمال لفظ أتعشم في موضع أرجو أو أأمل ، أو أطمع . وكاستعمال لفظ أفتكر في موضع أفتكر ، أو أفكر ، أو أتأمل ، أو أذكر ، ونحو ذلك من الألفاظ العامية ، أو المبتدلة القريبة منها ، التي شاع استعمالها على ألسنة بعض خطبائنا خطأ ؛ فعلى الخطيب أن ينتقى ألفاظ الخطبة ، من غير أن يغرب ، فيبعد عن المفهوم المألوف ، ومن غير أن ينزل فينطق بالمبتذل أو العامي ، في حضرة من يفهم الفصحى . قال بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك ، أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسعة ، التي لا تلتطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام .

٣ — وأن تكون في الخطبة ألفاظ مناسبة مثيرة لخيال الجماعة ، موقظة لذكريات حية في نفوسهم ، فان كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ ، إذا ذكرت ، أثارت خيالات تهز النفس بالسرور والاطمئنان ، أو بالسخط والغضب ، كألفاظ الإخاء ، والمساواة ، والحرية ، والديمقراطية ، عند الثوار في الثورة الفرنسية ؛ فانها كانت تهزم ، كل عمل يربطه الخطيب بها يندفعون إليه ، ويقدمون عليه ، وعلى نقيض ذلك كانت ألفاظ الاستبداد ، ونظام الطبقات ، والباستيل تهز النفس بالغضب وتثير فيها ذكريات مؤلمة ، فاذا ذكر عمل مقرون بها نفروا منه ، ونأوا عنه ، وثار سخطهم على القائم به ، وكذلك الشأن في كل الجماعات . والخطيب الماهر من يقبس من هذه الألفاظ في الخطبة ، ما يكون له الأثر الكبير فيما يريد ؛ ولكن يلاحظ أنه لا يحسن وجود هذه الألفاظ في الخطبة ، إلا بشرطين : أحدهما الملاءمة القائمة بينها ، وبين ما يريد ، فإذا كان يخطب في جماعة يحثهم على طلب الاستقلال السياسي أكثر من ذكر الألفاظ التي تثير الخيال في هذه الناحية ، من مثل الكبرياء القومية ، العزة الوطنية ، الحرية السياسية ، عار الاحتلال ، ذلة الاستعباد — وإذا كان يخطب قومياً في الحث على أداء فريضة الحج ، ذكر الحرم الشريف ، ومقام إبراهيم ، والبقيع ، وزمزم ، وغير هذا من تلك الأسماء التي تثير معاني عميقة الأثر ، وإذا كان يخطب في الحث على الصوم ذكر قرب الصائم من ربه ، والتجرد من ملاذ الحياة ، ومشاركة نفس الصائم للمعاني القدسية ، وغير ذلك من العبارات التي تثير الوجدان ؛ وتوقظ في النفس معاني سامية ، وليحذر الخطيب من أن يقع في خطبته ألفاظا تثير ذكريات غير ملائمة للموضوع ؛ كأولئك الخطباء ، الذين يقحمون كلمة الاستقلال في أكثر الموضوعات الخطابية ، لأدنى ملابسة ، ولأقل علاقة .

ثانيهما : ألا تكون تلك الألفاظ قد أبلها الاستعمال ؛ وذكرها يؤدي إلى الابتذال ؛ فإذا لاحظ الخطيب ذينك الشرطين عند الاستعمال كان الأثر بليغاً ؛ وقد قال العلامة جوستاف لوبون في بيان تأثير ذلك النوع

من الألفاظ ، ومبنيه : السر في تأثير الألفاظ للصور التي تحضر في الذهن بها ، وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية ، بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً ، مثال ذلك كلمات : ديمقراطية ، اشتراكية ، مساواة ، حرية ، وهكذا بما أبهم معناه ويحتاج في تعيينه إلى مؤلفات ضخمة ، والجميع ، يسلم أن هاسلطانا ينساب في النفوس ، كأنها اشتملت على حال المسائل الاجتماعية كلها ، وفيها تتمثل الأميال الباطنية على اختلافها ، والأمل في تحقيقها .

٤ — أن يختار الألفاظ الجزلة في مقامها ، والريقة كذلك ، ففي نحو التهديد والفخر ، وإثارة الحمية ، والحماسة ، والحث على الجهاد ، ويختار الألفاظ الجزلة القوية ، وفي نحو إظهار الأسى ، والألم ، يختار الرقيق من الألفاظ ، وقد يتساءل الإنسان عن حقيقة الجزل ، وحقيقة الرقيق ، فلا يجد تعريفاً مميزاً مصوراً ، لأن ذلك أمر يدركه ذو الذوق الأدبي ، في نطقه ، وفي جرسه ، ووقعه في الأسماع والشعور ، وقد بين ابن الأثير جزل الألفاظ ورقيقها من غير تعريف ، فقال : لست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً ، عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفهم ، ولذاذته في السمع ، ولذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسافاً ، وإنما هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس ، وسأضرب لك مثلاً للجزل من الألفاظ ، والرقيق فأقول : انظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئاً ، من وحشي الألفاظ ، ولا متوعراً . ثم انظر إلى ذكر الرحمة ، والرأفة والمغفرة : والملاحظات في خطاب الأنبياء ، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى ؛ فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسافاً ، فثال الأول وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى : (ونفخ في الصور ، فصعق من في السموات .) (م ٩ — الخطابة) .

يومن في الأرض ، إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ؛ فإذا هم قيام ينظرون ،
وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وحيء بالنيبين ، والشهداء ،
وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم
بما يفعلون ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، حتى إذا جاءوها فتحت ،
أبوابها وقال لهم خزنتها ، ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ،
وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على
الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين .
وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ،
وقال لهم خزنتها ، سلام عليكم طيبم ، فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد
لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعلم
أجر العاملين) . فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل
أحواله ، وذكر النار والجنة ، وانظر ، هل فيها لفظة إلا وهي سهلة
مستعذبة ، على ما بها من الجزالة ، وكذلك ورد في قوله تعالى : (ولقد جئتمونا
فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما
نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم . وضل
عنكم ما كنتم تزعمون) . وأما المثال الثانى وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى
في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم : (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك
ربك وما قللى إلى آخر السورة : وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسألة :
(وإذا سألك عبادى عني ، فإني قريب ، أجيب دعوة الداعى ، إذا
دعان) ؛ وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة
والرقة . ويقول بعد كلام طويل : اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع ،
مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة ، تتخيل في السمع كأشخاص
عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين
أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولذا ترى ألفاظ أبى تمام ، كأنها رجال قد ركبوا
خيولهم واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحترى ، كأنها

نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى ، وإذا
أنعمت نظرك فيما ذكرته هاهنا ، وجدتني قد دللتك على الطريق وضربت
لك أمثالا مناسبة .

من هذا الكلام القيم نستطيع أن نتصور الألفاظ الجزلة ، والألفاظ
الرقية ، وإن لم نحددها بتعريف جامع مانع ، وكيفينا ذلك فى هذا المقام ،
وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها فى موضعه . فعندما يكون فى حاجة
إلى قرع الحس ، وإثارته ، يختار الجزل ، وعندما يريد أن يمس شعور
المخاطبين مساً رقيقاً ، لأن المقام يقتضى ذلك ، يختار رقيق الألفاظ ،
ولينها ، ومن ذلك خطبة المغفور له سعد زغلول فى حفل الطلبة التى ذكرناها .

ومن الكلام الجزل القوى قول الشعبى معتدراً عن اشتراكه فى فتنه
ابن الأشعث أجذب الجنباب ، وأحزن بنا المنزل واستحلسنا الحذر واكتحلنا
المهر ، وأصابتنا فتنه لم نكن فيها بورة أتقياء ولا فجرة أقوياء .

الأسلوب :

لا نتكلم هنا على الأسلوب من حيث التقديم والتأخير ، والفصل
والوصل ، وغير ذلك ، مما عنت به علوم البلاغة ، وإنما نتكلم هنا فى الأوصاف
التي هى خاصة بالأسلوب الخطابى أو ضرورية له زهى كثيرة منها :

١ - التصرف فى فنون القول ، بأن تتعاقب على المعنى أو المعانى ضروب
مختلفة من التعابير ، من تقرير ، إلى تعجب ، إلى تهكم ، إلى نفي ، لى
يكسب كلامه حدة ، ولئلا يذهب نشاط السامعين ، ويعتريهم السأم والملال ،
وذلك لا يكون إلا فى حال تكرار المعانى ، وقد بينا منزلة التكرار فى تثبيت
الأفكار ، وإيقاظ المشاعر ، وتقدير الحقائق ، وحمل النفس على الاطمئنان
إليها ، فيكرر بأساليب مختلفة ، واللغة العربية ثرية بالألفاظ ، متشعبة
الأساليب ، وفيها من طرائق الحقيقة والتشبيه ، والاستعارة والمجاز ، ما يمد
الحاجة ، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول ، وأنواع التعبير .

٢ - حسن التألف بين الكلمات ، وتأخى النغم ، بحيث تتحدر الكلمات على اللسان في يسر ومهولة ، ويحسن وقعها في الأسماع ، فلا تكون واحدة منها نائية عن أخواتها ، أو ساكنة في غير مستقرها ، فتكون قلقة في النطق ، وثقيلة على السمع . وقد ذكر ابن الأثير أن من نظم الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ لئلا يكون الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم ، في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

٣ - تنوع الأسلوب بتنوع المقامات ، وتنوع أحوال السامعين ، وبمراعاة سن الخطيب ، ومنصبه ، وعمله ، وما يليق صدوره عنه ، وما لا يليق ، فلكل مقام نوع من الأساليب ، ففي مقام التحميس والتهديد تختار الأساليب الفخمة ، وللعبارات الضخمة ، وفي بعض مقامات التأبين ، وإظهار الألم والألمى تختار العبارات السهلة الرقيقة المؤثرة ، ولكل قوم خطاب ، فالعامة تختار لهم العبارات الساذجة حتى لا تعلو على أفهامهم ، ولا تسمو على مداركهم ، والعلماء يخاطبون بعبارات متقادة دقيقة محكمة ، ويحلى الكلام ببعض الأساليب المنطقية ، والمتدينون يستشهدهم بشواهد من الدين ، ويحلى الكلام بمقتبسات من الكتب المنزلة ، والذين شغفوا بأثار الأقدمين يربط الكلام ببعض أمثالهم ، وقصصهم ، وحكمهم ، والمأثور عنهم . ولكل خطيب عبارات تستحسن منه ، فمن الخطباء من يحمل منهم الهزل ، ولا يليق بهم إلا الجلد ، فلا يصح أن يكون في كلامهم إلا ما هو مقبول منهم ، ومن الخطباء من يحمل خطبهم بعض المداعبات ؛ فيحسن أن يكون ذلك منهم بقدر محدود ؛ ليستروح به السامعون ، فيستجموا نشاطهم ، ويبعد سأمهم ، وهكذا يجب على الخطيب أن يلاحظ في أسلوبه وعباراته أحوال السامعين ، وما يقتضيه المقام ، وما يحسن منه ، وما لا يحسن .

٤ - تجميل الكلام في بعض الأحوال بسجع قليل غير بادي التكلف ، قصير الفقرات ، وقد وجد للسجع قديما وحديثا أولياء وأعداء ، فقوم تعصبوا له ، وآخرون تعصبوا عليه ، ومن تعصبوا للسجع ابن الأثير وأبو هلال العسكري وغيرهما

وابن الأثير يعد من ذمه عاجزا عنه ، ويقول فيما يحسن في السجع :
ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ، ولا باردة ،
وأعني بقولي غثة باردة ، أن صاحبها يصرف نفسه ، إلى السجع نفسه ، من
غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى
تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهو في الذي يأتي ، من الألفاظ
المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ،
وهذا مقام تزل عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا
الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ، فإذا صفا الكلام المسجوع
من الغثاء ، فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ،
لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن
مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب ، على فصل من خشب .

هذا كلام واضح قيم ، ولكن بعض كتاب العصر الحاضر يستحسنون
الاسترسال في الكتابة والخطابة ، والتحرر من تلك القيود اللفظية منعاً
لضجة الألفاظ ، وإيثاراً للسذاجة في التعبير ، وابتعاداً عن كل وسائل
التزيين ، وهم لذلك يستهجنون السجع في الكتابة والخطابة معاً .

والحق عندي أن السجع في ذاته حسن ، وقد عرف حلية في اللغة
العربية ، قديمها وحديثها ، ولكل لغة مستحسنات ومناهج ، تأخذ منها
روحانياتها ، وقوة تأثيرها ، ولذلك لأرى ما يمنع من اتخاذ بعض السجع في
الخطابة بشرط ألا يظهر التكلف ، وإلا ثقل ، وضعف تأثيره ، وبشرط
أن يكون قليلا ؛ لأنه حلية ، والحلية لا تجمل إلا إذا كانت بقدر معلوم ، إذا
زادت عنه ثقلت ، وسمرت المحاسن ، فكانت عيبا وشينا . فالخطيب إذا
أخذ من السجع ذلك القدر في خطبته ، حسنت ، خصوصا إذا كانت في قوم
يؤثر فيهم ذلك النحو من الكلام كعامة مصر . فإن الكلام الموسيقي المسجوع يهز
نفوسهم ، واعتبر ذلك بأمثالهم وحكمهم ، فانك تجد السجع أبين أوصافها .

غير أنه يجب أن يلاحظ أن السجع لا يليق في بعض الخطب كالمرافعات

القانونية ، فانها لا يحسن فيها إلا الحقائق عارية ، وحسبها جمالا أنها حقائق ، وليكتف من وسائل التأثير بجودة التعبير ، وحسن الإلقاء ، وإحكام الفكر ، والإتيان إلى القلوب من ناحية ما يؤثر فيها .

المقاطع :

يجب أن يختار الخطيب المقاطع للذى يقف عليها ، بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذى يريده ، وبأن يكون المقطع ذا رنين قوى ، يملأ النفس ، ويوجهها نحو العرض الذى يريده الخطيب ، وقد وفاه أبو هلال العسكري فى الصناعتين بحثاً واستشهاداً ، فقد جاء فيه : قال الأحنف بن قيس مارأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده ، إلا عمرو بن العاص ، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق المقام ، وغاص فى استخراج المعنى بألطف مخرج ، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبعته من الألفاظ . قال معاوية لعمرو بن سعيد ، يا أشدق قم عند قروم العرب ، فسل لسانك ، وجل فى ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فأنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على بنى أمية بن أبى طالب رضى الله عنه كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام . ولما أقام أبو جعفر صالحاً خطيباً بحضرة شبيب ، قال يا أمير المؤمنين : مارأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا أربط جنانا ، ولا أفصح لسانا ، ولا أبل ريقاً ، ولا أغمض عروقا ، ولا أحسن طريقا ، إلا أن الجواد عسير لم يرض ؛ فحملته القوة على تعسف الآكام وخطبها ، وترك الطريق اللاحب ، وأيم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان .

من هذا كله ترى أن مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه المجيدون من البلاغة والخطباء ؛ لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع واضحا ، والرنين مؤثراً ، والوقف جميلا . ويجمل الإلقاء أبلغ تجميل .

خاتمة في الكلام في التعبير :

قبل أن نترك الكلام في التعبير الخطابي ومناهجه . ننقل إليك صحيفة قيمة أعطاها بشر بن المعتز المعتزلي إبراهيم بن مخزومة السكوني ، وفيها كلام جيد في الأسلوب الخطابي ، والمعاني الخطائية ، وما هي ذى كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين :

مر بشر بن المعتز ، على إبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني الخطيب وهو يعلم فتياهم الخطابة ، فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد ، أو ليكون رجلاً من النظارة ، فقال بشر : اضربوه عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقة ، وكان فيها ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسبأ ، وأحسن في الأسماع ، وأحل في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول ، بالكد والمطاول والمجاهدة ، وبالتكلف والمعادة ، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولا . قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريماً ، فليتمس له لفظاً كريماً ؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حققهما أن تصونهما عما يفسدهما ، ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتبس إظهارهما ، وترتهن نفسك بملاستهما ، وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذبا ، وفخماً سهلاً ، ويكون معانك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة ، إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت عند العامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني

العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلتطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ، ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها ، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها ، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير أوطانها ؛ فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المشهور ، لم يبعك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتهما ، ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك ؛ بصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك ، أنه فوقك ؛ فان ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى للصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد إجابة الفكرة ؛ فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ؛ فانك لاتعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، وأجريت من الصناعة على عرق .

فان تمتنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل غرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك فإنك لم تشبهه ولم تنزع إليه ، إلا وبينكما نسب . والشئ لا يحسن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكتونها إلا مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الحبة والشهوة ؛ فهكذا هذا .

الأداء

قد شرحنا في الفصول السابقة إيجاد الخطبة ، وتنسيقها . والتعبير عنها ،
وهنا نتكلم عن طرق أدائها ، والحال التي يكون عليها الخطيب عند مخاطبته
الجمهور ، وما يتخذ في تهيئتها ، فستكلم إذن عن طريق تحضير الخطبة ،
ومواضع الارتجال ، وعن الوقفة الخطابية ، وعن النطق الحسن الذي يليق
بالخطابة ، وعن الصوت ، وعن الإشارات :

التهيئة

إن الخطيب يلقي خطبته إما بعد تحضير وإعداد ، وإما على البديهة والارتجال
ولكل مواضع ومحاسن ، فالتحضير يحسن بل يكون لازماً .

١ - إذا كانت معلوماته في الموضوع الذي هو بصدد القول فيه لا تسمح له
بالقول على البداهة ، وإن تكلم قال كلاماً مبتسراً لا يقيم حقاً ، ولا يخفض باطلاً
ولا يجذب نفساً ولا ينفرد من أمر ؛ فهو يدرس الموضوع من كل نواحيه ، ويقتله
يبحثاً ودرساً ؛ ليستطيع أن يدلي فيه بحجته فيصيب الخبز ويدرن الشأو ، وينال السبق .

٢ - وكذلك يعتمد إلى التحضير إذا كانت عنده فسحة من الوقت يستطيع
فيها أن يبدي ويعيد ، وأن يثبت فيما يقول ، ويختار لمعانيه أجود الألفاظ ،
ويتجه إلى أقرب الطرق التي يصل منها إلى النفوس ، ويهز بها أوتار القلوب
هزار فيقا ، أو عنيقا كما يريد .

٣ - ويعتمد إلى التحضير أيضاً إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته ،
ويتبعون سقطاته ، يحصونها عليه لإحصاء ، ويحاسبونه عليها حساباً عسيراً ؛
فهو يتقدم إليهم بسلح التحقيق ، مستنداً على متكأ من الحقائق ؛ فلا يسقط
إن حاولوا أن يأخذوا عليه ما يسقط ، ولا يعثر ، ولا يزل ، ولا تنزل قدمه في
مزالق الخطر ، ومداخض الزلل ، ولذلك كان أكثر خطباء اليونان والرومان
يهيئون خطبهم قبل إلقائها ، ولا يجروا واحد منهم مهماتكن ثقته بنفسه قوية ،
ومهما يكن صيته ذائعاً ، ومعروفاً باللسن والبيان على الوقوف من غير سابقة

تحضير ، وإمام تام بما يقول ، خشية أن يأخذ عليه النقاد شيئاً ، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله ، وحسن مذهبه ، وما يدعوا إليه ، وكان المعقور له سعد زغول « باشا » مع قدرته على الارتجال وعظيم إلمامه بما يقول ، يكتب خطبه ، إذا كانت رسمية أو شبه رسمية ، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة ، إلى ما لا يريد أن يقيد نفسه به .

ولا يتوهم من متوهم أن تحضير الخطبة ، ما يعيب مقدرته ، فإن العيب أن يقول كلاماً مبتدلاً لقيمة له ، ومعناه تافه صغير ، ولتكن له أسوة حسنة في كثير من كبار الخطباء (١) الأقدمين ، والمحدثين ، فإن كثيرين منهم مع

(١) جاء في كتاب القديم والحديث للأستاذ الباحث محمد كرد علي (طالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقاتها حتى أنه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على الإلقاء ، وكان القدماء يملقون شأنًا عظيمًا على الإلقاء في المجالس العامة ، حتى لقد أفرط شيشرون في قوله أن الخطباء المأم ، يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة ، بيد أن كثيرين من خطباء اللاتين . وقدماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون بإعداد خطبهم ، ويظهر أن هورتاتسيوس وهو أستاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياء وهو رتاتسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه .

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني (كالبيا) غريبة في بابها فكان ينقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دفاعاً ، ويلقى عليهم مرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عابه ، ويخرج من الغد في حالة هياج خارقة للعادة وعينه تقدحان شرراً وهو في أشد أحوال التحمس ، يعبث به في هواء ، ويذهب إلى ميدان الفوروم . واعتاد بعض الشبان الخطباء من الرومان ، أن يأتوا إلى المحكمة يدافعهم مكتوباً على الورق ، وكان كتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في إعداد ما سيتلون ، لا سيما المبتدئ ، ويرى أن الارتجال لا يتأق للمره إلا في أواخر عمره ، بعد أن يذوق الأمرين في صناعة الخطابة ، ويعرف حلوها ومرها ، ولم يكن في عهده . وهو القرن الأول للمسيح ، سوى خطيبين مرتجلين هما بورسسيوس لاترو وكاميسيوس . وما عداها كانوا ككل الناس يمدون خطبهم قبل إلقاتها .. ولما جاءت الثورة الفرنسية اضطُر أرباب السياسة إلى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا ثم ارتقت الخطابة عندهم في الكليات ، والمحاكم ، والمجالس ، حتى قال موريس آجام ، ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من إعدادها بالكتابة قبل الإلقاء .

قدرتهم التامة على الارتجال يأخذون للموقف الأهمية ، ويعدون له العدة ، عالمين بأن الخطيب كالجاهل ، لا يخوض غمار الحرب ، من غير أن يدرع بدروعها ، ويتترس بتروعها ، ويلبس لها لأمها ، ويتخذها شكتها ، وليس ذلك في الخطيب إلا بالتحضير والتهيئة ، والاستعداد للموقف من كل نواحيه ، وإن الذى يتعرض للخطبة من غير سابق تحضير ، ولا تهيئة ، ولم يكن ذا إلمام سابق بالموضوع يحىء كلامه ضعيفا فى معناه ، ومبناه . بل إن ذا الاطلاع الواسع ، والعلم الغزير بما يقول إن لم يراجع نفسه آنا بعد آن ، ويفكر طويلا فيما يعزم قوله وقتاً بعد آخر ، يضعف أسلوبه الخطابى ، وتلين عباراته ، وينحدر إلى منهوى من الابتذال سحيق ، وتتجه معانيه اتجاهاً سطحياً ، وتفقد قوة التأثير فى المشاعر والأهواء .

طرق التحضير

وطرق التحضير كثيرة متشعبة ١ - فن الخطباء من يكتفى فى تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره فى خاطره ، وترتيبها بينه وبين نفسه ، ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام ، والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية الذى اندرج فى سلك الخطباء ، وكثير من الأدباء يعد الخطبة التى تحضر ، وتلقى على هذه الشاكلة مرتجلة ، ولكننا نرى الارتجال أن يقال الخطبة على البدهة ، من غير أى تحضير للموقف سابق (١) .

ويظهر أن تحضير خطباء العرب كان على هذه الشاكلة . ومن ذلك ما جاء فى أخبار يوم السقيفة ، عندما اختلف المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم فى أمر الخلافة ، فقد قال عمر رضى الله عنه فى وصف حاله عندما اشتد الخلاف بين الفريقين : فأردت أن أتكلم وكنت زورت كلاماً فى نفسى ، فقال أبو بكر على رسلك يا عمر ، فما ترك كلمة كنت زورتها فى

(١) جاء فى كتاب القديم والحديث للأستاذ محمد كرد عل . كان فيريرون من أعظم من وجد من رجال المحاماة . كان يفكر طويلا فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن من يعتمد على الكتابة .

نفسى إلا تكلم بها ، وهذا يدل أن تزويرهم الخطبة وتحضيرها ، إما كان فى الجنان ، وفى النفس . ويدل من جهة ثانية ، على أن تحضير الكلام فى النفس وتزويره ، والاستعداد للموقف قبل الكلام ، لا يعد من قبيل الارتجال ، والقول على البديهة فإن الفرق بين المرتبتين واضح جلى .

٢- ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيء معانى الخطبة . ويرتبها ترتيباً محكماً ، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة يستصحبها عند الخطبة لتكون مرجعاً له وضابطاً ، وليحفظ المعانى والأفكار من أن تضعف بفضلال الذاكرة ، وذلك النوع من الخطباء كثير ، وفى الأخذ بهذه الطريقة مزايا كثيرة ، لما فيها من ضبط للأفكار وجمع للخواطر ، وإحكام للمعانى ، وهى كسابقتها لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مروا على القول ، وعرفوا مقاتله ، ومواضيع التأثير فيه ، وأصبحت لهم طرق خاصة فى الإلقاء ، يتجهون إليها من غير قصد ، بل بمقتضى الإلف والاعتياد . ولكن تمتاز عن سابقتها : (أ) بأنها تفيد ضعيف الذاكرة ، ولا يحتاج إليها قوى الذاكرة ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى كتابة العناصر ، وضبطها فى القراطيس ، إذ هى فى وعيه وخاطره . (ب) وبأنها تحسن إذا كانت الخطبة طويلة جمعاً لأشتاتها ، ولكيلا يقع فى التكرار الممل .

٣- ومن الخطباء من يطلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع فى غرفة قد انفرد فيها ، أو فى مكان خلوى ، أو يتكلم على بعض الناس ، ومثل ذلك النوع من الخطباء مثل المطربين ، إذ يلحنون القطع التى هم بصدد ترتيلها ، والتفريد بها فى وسط الناس ، ويتمرنون على ذلك أمداً غير قصير حتى تستقيم لهم النغمات ، فكذلك هذا النوع من الخطباء ، وقد كان كذلك « كاليا » الخطيب الرومانى . وكان فرنىو وتيرس من خطباء الفرنسيين يحدثون أصهارهما فى موضوع خطبتهما قبل إلقائها . وعندى أن هذه الطريقة يعمد إليها من يريد أن يربى فى نفسه طريقة إلقاء خاصة يمرن عليها حتى يصير له ملكة ، وعادة :

٤- ومن الخطباء من يكتب الخطبة ، ويتحرى فى الكتابة أبلغ الأساليب

التي توصله إلى غايته ، وتؤدي به إلى ما يريد ، ويحكم معانيها ، ويحملها كل ما ينبغي من وسائل التأثير ، وطرق الإقناع التي يصوبها نحو هدفه ، ويرمي بها إلى غرضه . وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مراراً وينقحه في كل مرة . وهذه القراءة التي يتحرى بها جودة الإلقاء وحسن النطق ، تعلق معاني الخطبة مرتبة الترتيب التام بذاكرته ، ويحتفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها ، وهذه الطريقة يتبعها كثير من المحامين في القضايا ذات الشأن التي تحتاج إلى تحضير كبير ، وجمع لعدة نصوص قانونية ، أو عبارات جاءت على السنة والشهود ، وقد شاهدت المحامين الذين ترفعوا في قضايا القنابل التي نظرت في سنة ١٩٣٢ أمام محكمة الجنايات المصرية بين أيديهم مرافعاتهم مكتوبة ، ولكنهم يلقونها من غير أن يقرءوا ما كتبوا ، فلا يتركون صغيرة ولا كبيرة . وينجيء على ألسنتهم كثير من العبارات التي ساقوها فيما كتبوا .

هـ - ومن الخطباء من يكتبون خطبهم ، ويحسنون تحريرها ، ثم يحفظونها حفظاً تاماً ، ومنهم من يتحلل أحياناً مما حفظ ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ، كما كان يفعل أرول دى سيشل من خطباء الثورة الفرنسية ، يكتب ويحفظ خطبه ويغير عند الإلقاء ، ويعمل بقول فولتير : إن الألفاظ بريد الأفكار . ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئاً كما كان يفعل فيكتور هوغو ، فقد كان يكتب خطبه ويستظهرها ، وكثيراً ما كان يقول : لا يستطيع المرء أن يكون خطيباً إلا إذا كتب خطبته ، وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين في الخطابة .

٦ - ومن الناس من يكتب الخطبة ، ثم يلقيا بالقراءة في القُرطاس الذي كتبها فيه ، وأكثر المحاضرين في موضوعات علمية في مصر على هذه الطريقة ، ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيباً أم محاضراً أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند الإلقاء يجتهد في أن يلتقي بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب ، ليكون في ذلك تجديد في الإلقاء ، وأن يكون في قراءته مشرفاً على السامعين بنظرة وقتاً بعد آخر ، لتتصل

روحه بأرواحهم ، وليعرف أحوالهم ، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة .
قبل الإلقاء ، إذ تمكنه هذه عند الإلقاء من أن ينظر في القرطاس عند قوله ،
وأشرف به على السامعين ، وهكذا يفعل في كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة .

والطريقة المثل لطالب الخطابة :

١ — أن يتبدى بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ ، ثم يأخذ
نفسه بالتغيير شيئاً فشيئاً فيما حفظ حتى إذا شدا في الخطابة ، وتقدم في المران
عليها ، كتب الخطبة ، وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه ، وأكثر ألفاظها
بذاكرته ، ثم يتقدم لإلقائها ، وقد تحصن بذلك التحضير ، فإذا صارت
له الخطابة ملكة وعد في صفوف الخطباء ، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة
وافية ، ثم كتب العناصر ، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية ، أو كانت
الخطبة قصيرة ، لا عناصر لها ، وألقى الخطبة مكتفياً بذلك التحضير
الذي يعد أقل أنواعه كلفة ، ولا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة .

الارتجال

١ — وإذا كنا قد أوجبنا التحضير والتهيئة ، فليس معنى ذلك أن
الخطيب لا يحتاج إلى الارتجال ؛ إذ القدرة على الارتجال أأزم الصفات
للخطيب ؛ بل لا يعد الخطيب في نظري في صف الخطباء الممتازين إلا إذا
كان من القادرين عليه ؛ الذين لا يفرق الإنسان بين أسلوبهم المرتجل ؛
وأسلوب خطبهم المحضرة .

إن حاجة الخطيب إلى الارتجال لو واضحة ؛ فقد يحضر الخطيب ؛ ثم
يرى من وجوه السامعين ؛ وحالهم ما يحمله على اتجاه آخر ؛ فإن لم تسعفه
بديهة حاضرة ؛ ونخاطر سريع ؛ ومران على الارتجال طويل ضاع هو
وما يدعو إليه ، والتقاء الناس بالمكاء والتصدية والصفير والسخرية ،
والاستهزاء في كل مكان ، وقد يخطب الخطيب ، فيعترض عليه بعض
الناس في خطبته ، فإن لم تكن له بديهة حاضرة ترد الاعتراض وتترعه

بالحجة القوية ، ذهبت الخطبة وآثارها . يروى أن أبا جعفر المنصور كان .
يخطب مرة ، فقال اتقوا الله ، فقال رجل أذكرك من ذكرتنا به . فقال
أبو جعفر : سمعا سمعا لمن فهم عن الله ، وذكر به ، وأعوذ بالله أن أذكر
به ، وأنساه ، فتأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللت إذا ، وما أنا من المهتدين ،
وما أنت ؟ والتفت إلى الرجل ، فقال : والله ، ما الله أردت بها ؛ ولكن
ليقال قام فقال ؛ فعوقب ، فصبر ، وأهون بها لو كانت العقوبة ، وأنا
أنذركم أيها الناس أختها ؛ فإن الموعدة علينا نزلت وفينا نبتت ، ثم رجع إلى
موضعه من الخطبة ، فلو لم تكن قدرة المنصور على الارتجال . ما استطاع
أن يأتي بذلك النوع من الكلام ، وما استطاع حينئذ أن ينال من التهجم
على مقام الإمرة ذلك التهجم .

وقد يعقب بعض الخصوص على كلام الخطيب بالنقص ، وذلك كثير
في مرافعات المحامين والنيابة ، فإذا لم يتقدم بكلام قيم يسد به الخلة ،
ويرد به الحق إلى نصابه ، ويتدارك من أمره ما هو جم فيه ، ضاع مقصوده
وذهب أدراج الرياح مجهوده ؛ وذلك لا يكون إلا بقوة الارتجال التي تتكون
بالمزاولة والمران .

٢ - وقد كان العرب أيام ازدهار الخطابة فيهم من أقوى الناس على
الارتجال . قال الجاحظ في وصفهم : وكل شيء للعرب فهو بدية وارتجال ،
وكانه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكل ولا استعانة ،
ولمّا هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى الرجز يوم الخصام ، أوحين أن
يتمتع على رأس بر ، أو يحدو ببعير أو عند المقارعة أو المناقلة ، فما هو إلا
أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ،
فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ،
ولا يدرسه أحداً من ولده .. وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطوبعين لا يتكلمون .
وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ؛ وكل
واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع . وخطباؤهم أوجز ،

والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أسير من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليسوا كمن حفظ علم غيره واحتذى كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب .

٣ - والمران على الارتجال يكون والعود أخضر ، والعادات لم تتكون ، والنفس لم تجمد على نحو خاص من أنحاء القول يخالفها ، ولذا قيل إن القدرة على الارتجال لا تتكون بعد الأربعين ، ويصعب أن تتكون بعد الثلاثين ، بل تتكون في سن دون هذه السن ،

ويربى : ١ - بسماع الخطباء المرتجلين الممتازين ، لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه ، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد والمحاكاة .

٢ - وبأن يأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرتجلاً ، ويغشى الجماعات ويتقدم إلى القول ، ليفك عقدة لسانه ، ويزيل حبة الحياء ويرى موريس آجام أن تمرين مرید الخطابة على الارتجال بأن يتكلم كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ، ولو ربع ساعة ، فيتمرن جرسه وصوته .

٣ - ومن أمثل الطرق أن يجتهد في ألا يخطب من ورق ، وأن يعرف ملخص ما يقول بعد تحضيره ، فإذا دأب على ذلك ، وواتته فطرة قوية ، واستعداد قوي على القول على البديهة من غير تحضير عند الاقتضاء .

٤ - وعلى مرید الخطابة أن يستنصح رفيقاً له بدله على عيوبه ، كما أن عليه أن يراقب نفسه مراقبة تامة ، ويأخذ نفسه بالإصلاح ، ولا يترك عادة لا تستحسن تثبت وتنمو ، وعليه ألا يتقيد بعبارات خاصة ، وإلا أثار سخرة الناس ، ويمكن خصومه من العبث بسمعته البائنة .

النطق

النطق الحسن هو الدعامة الأولى للإلقاء الجيد ، وإذا اعترى النطق ما يفسده ، ضاع الإلقاء ، فضاعت معه الخطبة وأثرها . وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيان ، ولا شيء يذهب بالمعنى الجيد أكثر من النطق الردى ، وكثيراً ما يفهم المعنى على غير وجهه ؛ لأن النطق قلبه ، ولم يصوره تصويراً صادقاً .

والنطق الجيد يحتاج إلى عناصر أربعة لا بد من توافرها ، فإذا فقد أحدها ذهب أحد أركانه ، فاختل بنيانه ، وها هي ذى :

١ - تجويد النطق :

بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة ؛ فلا ينطق بالثناء سينا ، ولا بالذال زايا ، ولا بالجيم كما ينطق العامة ، وهكذا كل مخارج الحروف ؛ فيجب أن يعنى الخطيب بأن يكون الحرف خارجاً من ينبوعه ، صادراً عن مخرجه الذى عرف عن العربى النطق به منه . وإن العناية بنطق الحروف نطقاً صحيحاً ، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أن يتشادق الإنسان ذلك التشادق الذى يقع فيه بعض المتكلمين (١) أو الخطباء . فيكسو النطق تكلفاً يثير سخرية السامعين أو يثقل القول عليهم ، بل معناه أن ينطق بالحرف من مخرجه من غير تكلف ولا تشادق ولا تورع ، بل فى يسر ورفق وسهولة ، لأن ذلك التشادق يوقع أولئك المتكلمين فى نقيض ما يرغبون ، فينطقون بالحروف من غير مخارجها الصحيحة ، كبعض الخطباء الذين يدفعهم غلوهم إلى النطق بالجيم بما يقرب من الشين ، فراراً من نطق العامة ؛ فيدفعهم فرارهم هذا من عيب العامة إلى عيب آخر لا يقل عن الأول خروجاً عن جادة الفصحى ، وقد قال بعض الأدباء : إن التشادق من غير أهل البادية عيب لأن أهل البادية فى الزمن الأول كان نطقهم هو الصورة الصحيحة للنطق العربى القويم .

(١) كأولئك الذين يملكون ألقتهم بالقاف مفخمين النطق بها فيبدو التكلف واضعاً .

٢ - مجانية اللحن ونحرى عدم الوقوع فيه :

يجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به ، وملاحظته في مفرداته وعباراته فيلاحظ بنية الكلمات ملاحظة تامة ، فلا ينطق مثلاً بكلمة سوقة بفتحيتين كبعض الخطباء ، فيذهب ذلك بروعة القول وبهائه ، ولا ينطق بغير ما توجه قواعد النحو في آخر الكلمات ، فإن ذلك يفسد المعنى ، وقد يقلبه ، وليعتبر الخطيب بما روى من أن خارجاً من الخوارج قال في قصيدة هذا البيت .

ومنا يزيد والبطين وقعنـب ومنا أمير المؤمنين شبيب

برفع أمير المؤمنين فلما وصل البيت إلى علم عبد الملك بن مروان طلب قائله وسأله : أنت القائل : ومنا أمير المؤمنين شبيب ؟ فقال : لم أقل هكذا ولكنى قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب ، وفتح أمير (أى منا شبيب يا أمير المؤمنين) فأعجب عبد الملك يفطنته ، وأخلى سبيله . فانظر كيف كان اختلاف الحركة في آخر الكلمة قالبا للمعنى ، مغيراً للمقصد ، فالخطيب الذى يقع فيه قد يفسد المعنى ، بل قد يتقلب المدلول اللفظي لكلامه ، إلى نقيض المطلوب وعكس المراد . والنطق والخطأ لآخر الكلمات فوق أنه قد يفسد المعنى ، ويذهب برونق الخطبة ، وحسن وقعها ، وجمال تأثيرها ، ولا يظن الخطيب أن جودة المعنى وإحكامه قد يذهبان ببعض الأخطاء ، فإن الهنات الصغيرة إذا كثرت أحدثت تأثيراً سلبياً للخطبة ، وأفسدت تأثير المعانى المحمّدة . وإن جمهرة النظارة الآن في مصر ممن لهم إلمام بقواعد النحو ، ولهم قدرة على ملاحظة الأخطاء ، وإن لم تكن لبعضهم قدرة على مجانبتها في خطبتهم ، بل في كتاباتهم أحياناً ، فإن المستمع يلاحظ ما لا يلاحظه الخطيب ، ونظراته إلى المتكلم وكلامه نظرات فاحصة كاشفة ، وإذا أدركوا كثيراً من الأخطاء ضاع أثر الخطبة في نفوسهم .

٣ - تصوير النطق للمعاني تصويراً صادقاً :

بأن يعطى كل كلمة وكل عبارة حقها ، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها ، فالجملة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التوكيد في النغم كما دل .

والجمل الاستفهامية ينطق بها بشكل يتبين منه الاستفهام ، والمراد منه في طريق النطق ، كما دل عليه بالأداة الدالة على الاستفهام ، وسنتكلم عن هذا وافيّاً عند الكلام على الصوت .

٤ - التمهّل في الإلقاء :

وهو ألزم الأمور للخطيب ، وليس بصحيح ما يزعمه بعض الناس من أن الخطيب اللبق هو من يتدفق بيانه تدفقاً ، وتحدّر عباراته في سرعة ، ومن غير تمهّل ؛ فإن ذلك فيما أرى عيب يجب التخلّي عنه ، والاحتراز منه :

(١) إذ النطق السريع المتعجل حيث تجب الأناة ينتج منه تشويه المخارج ، وخطأ الحروف بعضها ببعض لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ .

(ب) والإسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة ، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى .

(ج) والخطيب السريع في نطقه لا يعطى السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع ، وتذوق ما فيه من صقل اللفظ وجودة المعنى ، وحسن الخيال فإذا قرعت أذنه عبارة قبل أن يذوق ما في الأولى من جمال ، يعرفه التعب ، ويسكن قلبه السأم ، وينصرف عن الإصغاء .

(د) والتمهّل فوق ذلك يجعل الصوت يسرى إلى السامعين جميعاً بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد ، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر ؛ ليصل الكلام إلى الآذان .

وقد كان النقاد الأقدمون يعدّون بحق من أمارات رباطة جأش الخطيب التمهّل في النطق ، فقد قال أبو هلال العسكري في الصناعتين : وعلمة مسكون الخطيب ورباطة جأشه همدوء في كلامه ، وتمهله في منطقه ؛ قال ثمامه : كان جعفر بن يحيى أنطق ؛ قد جمع الهدوء والتمهّل ، والجزالة والحلاوة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكانه .

وقبل أن نترك الكلام في هذا المقام نشير إلى نقطتين :

(إحداهما) أن الكلام يجب أن يسوده التمهّل في الجملة لما بيننا ، ولكن يصح أن يتفاوت في الجمل بعضها عن بعض ، فالجمل الدالة على الفرح والسرور يستحسن أن ينطق بها الخطيب بسرعة نسبية ، وكذلك الجمل الدالة على الغضب ، ليكون النطق مصورا للمعنى الروحي لهاتين الحالتين تمام التصوير .

(ثانيتهما) ألا يظن ظان أن التمهّل معناه أن يكون النطق هادئا هذوا تاما ، فتعدم الخطبة الحياة واللقوة ، بل يجب أن يكون في نغمات الصوت ورناته وملامح الخطيب ونظراته ، والتغير النسبي في التمهّل والسرعة ، ما يعطى الخطبة الحرارة والقوة والحياة .

الصوت

من الناس من يسمع الإنسان صوته محدثا أو قارئا أو خطيبا ، فيشعر بنغماته تثير ارتياحه ، وبرنينه يهز إحساسه ، وبعمقه يصل إلى أبعد غور في نفسه ، وبتشكيله بأشكال مختلفة يتضح المعنى ، وينكشف المبهم ، ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات ، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني ، فترى العبارات ، قد فقدت جزءا كبيرا من بهجتها وذهب من المعاني أكثر روعتها ؛ فدل ذلك على أن للأصوات أثرا كبيرا في حسن وقع الكلام أو قبحه ، وليس المرجع في ذلك جمالها وقبحها ، ولكن عمقها وركوزها ، ورياضتها على تصوير المعاني ، وجودة نقل الخواطر ؛ فإن الألفاظ والأصوات تتعاونان في الدلالة على المعاني النفسية ، فالألفاظ التألم والحزن والغم مثلا إذا سمعها مجردة ما أثارت في نفسك شيئا ، فإذا سمعها من متألم ، واشترك صوت متألم بالألآم مع اللفظ ، أثارت في نفسك خواطر الأسى ، ومواضع الحزن ، وأحسست بالألم العميق تشترك فيه مع من حكى لك آلام نفسه في نغمات صوته .

لذلك يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعاني ، وأن يجعل

من نغمات صوته ، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ ،
وليعمل على أن يكون صوته ناقلا صادق النقل لمشاعر نفسه ، وليرنه التمرين
الكافي على أن يكون حاكيا صادق الحكاية لمعانى الوجدان ، وخواطر
الجنان ، وليعلم أنه لا شيء كالصوت يعطى الألفاظ قوة حياة ، وأنه إذا
أحسن استخدامه خلق به جوا عاطفيا يظل السامعين ، وبه يستولى عليهم .

وإذا كان لنا أن نوصي مريد الخطابة بشيء ، فإننا نوصيه بهذين
الأمرين :

أولهما - أن يجعل صوته مناسباً لسعة المكان ولعدد السامعين فلا ينخفض
حتى يصير في آذانهم همساً ، ولا يعلو حتى يكون صياحاً ، بل يكون بين
هذا وذاك ، وبين المرتبتين متسع لفنون القول ، ودرجات الكلام ،
 وأنواعه ، وغاياته .

وعند الابتداء يبتدىء منخفضاً ، ثم يعلو شيئاً فشيئاً ، فإن العلو بعد
الانخفاض سهل ، ووقعه على السامعين مقبول ، أما الخفض بعد الارتفاع ،
فلا يحسن وقعه ، ولذا يجب على الخطيب أن يوازن بين طاقته وبين الزمن
الذي تستغرقه خطبته ، والمجهود الصوتي الذي يجب بذله ، وليجعل هذين
على قدر تلك ، ، وإلا أصابه الإعياء قبل الوصول إلى الغاية ، فكان كالمثبت
لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

ثانيهما - ألا يجعل صوته غمطياً يكون على وتيرة واحدة ، وبشكل واحد
لا تغير فيه ولا تبدل ، فإن ذلك يلقى في نفس السامع سآمة . وملالاً ؛
ووراءهما النفور والانصراف .

وليكن تشكيل صوته بأشكال صوتية مصورة للمعاني ؛ فإن الصوت
كما ذكرنا يشترك مع الألفاظ في الدلالة على المعاني ، ويعاونها في التعبير
عنها ، ويكون ذلك بتغييره بأشكال مختلفة ، فليجعل الجمل الاستفهامية
تختلف في نغمة إلقيائها عن الجمل التي للتمني ، وهذه تختلف عن جمل الرجاء ،

وكما أن للأمر صيغة تدل عليه تختلف عن صيغة الخبر ، فليجعل المتكلم من نغمات صوته ما يدل على ذلك التغير ، وهذا التفاوت .

وإذا كانت اللغة قد جعلت صيغ الأمر هي التي تدل على الدعاء ، أو الالتماس ، فقد تركت للمتكلم واجب إشعار السامعين بالتغاير بينهما ، فليجعل لهجة الأمر تخالف لهجة الدعاء ، وتخالف لهجة الالتماس ، فإن لكل مقصدا خاصا يفهم من فحوى الكلام ، ومن صوت الخطاب :

وكما تختلف الجمل في معانيها تختلف الكلمات أيضا في معانيها ، وكل معنى يحتاج إلى نغمة صوتية معبرة عنه ، كما احتاج إلى لفظ دال عليه ، فالإشفاق ، والتوجع ، والكآبة ، والتردد ، والفرح ، والضحك ، والدهشة والشكوى ، واليأس ، كلها ذات معان تحتاج إلى أصوات تناسبها ، وتساعد الألفاظ في الدلالة عليها .

هذا وكل جملة فيها كلمة ذات معنى رئيسى هو عمود الجملة ، والمقصد الذى سيقى له ، فثلا قول الإمام على رضى الله عنه : أعجب ما فى الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها . كلمة قلبه هي ذات المعنى الرئيسى فيه ، فعند النطق يجب أن تعطى شعاراً صوتياً يدل على شرفها ، ويوجه الأنظار إليها :

وإن الخطيب المتصرف المحيد لا يضل فى تمييز هذه الأصوات إذا جعل دليله ما يشعر به من هذه المعانى ، وما يراه من الناس فى محادثاتهم المعتادة ، فى رفع أصواتهم أو خفضها ، فإن المحادثات المعتادة هي الحكاية اصادقة الحكاية للأمر المألوف ، واللوق المعروف ، فليكن فى تغييرات صوته صورة مكبرة مزينة جملة بحيد التعابير ، لما يجرى بين الناس ؛ فإنه إن لم كان صادرا فى نغماته عن إحساسهم ومشاعرهم وذوقهم العام .

الإشارات (١)

إن الإشارات هي المحاطبة الصامتة ، أو هي لغة التفاهم العامة ، وهي في كثير من الأحيان صوت الشعور ، وعبارة الوجدان ، فالغاضب يتغضن جبينه ، ويعبس وجهه ، ويقبض أصابعه بدافع شعورى من غير إرادة ؛ لهذا كان للإشارة أثر في إثارة الانتباه والشعور ، وتقوية الدلالة ؛ لأن المعنى معها تدل عليه دلالتان بل ثلاث دلالات : إحداها لفظية ، والثانية صوتية ، والثالثة تلك الإشارات البيانية .

والإشارات البيانية بعضها شعورى اندفاعى لا يكون بالإرادة ، بل بدافع الاحساس الوقتى للخطيب الذى يثيره موقفه الخطابى كتحريك الحاجبين للدهشة ، أو تغضن الجبين للغضب ، أو النظر الشرر عند الاحتقار ؛ وبعضها إرادى قصدى يعتمد إليه الخطيب للتأثير ، فالإشارة للبعد برفع اليد إلى أعلى بانحراف ، ونحو هذه من الحركات التى يعتمد إليها الخطباء ،

وسواء أكانت الإشارات إرادية أم شعورية ، فهى ذات أثر فى تأكيد الكلام فى نفس السامع وتقويته ، غير أنه يجب أن يلاحظ أن للإشارات قيودا لا تحسن إلا بها .

فيجب أن تكون ملائمة للمعنى موافقة له ، يشعر السامعون بقوة دلالتها عليه ، وإلا كانت حركات عابثة ، لافعى لها ، كما يفعل بعض المحامين ، من مسحهم جبينهم آنا بعد آن من غير أن يكون عرق ، أو وضع أيديهم على منظرهم ، أو خلع طرايبشهم ، فإن أمثال هذه الحركات عابثة ، لاتشير إلى معنى ، ولاتنبئ عن إحساس نفسى قوى أو ضعيف .

(١) جاء فى البيان والتبيين : الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هى له ونعم الترجمان هى عنه ، وما أكثر ماتغوب عن اللفظ ، وما تفتى عن الخط ... وبعد : فهل تدور الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف فى طبقاتها ودلالاتها ، وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الخواارج مرفق كبير .

ويحسن أن تسبق الإشارة القول ، ممهدة له منبهة به ، فيتنبه السامعون له ، ويتربصونه ؛ ليحيطوا في وقت الحاجة إليه ، فيثبت فضل ثبات ، فالإشارة تكون مع الفكرة مصاحبة لها ، والفكرة سابقة على القول ، فالإشارة مثلها .

ولا يصح أن تتكرر الإشارة ؛ فإن في تكرارها ما يدعو إلى السأم والملل ، وما يوهن موقف الخطيب ، ويضعف تأثير قوله .

هذا ويلاحظ أن الخطيب القوي من تكون عباراته وانسجام بيانه قوية في ذاتها ؛ فلا يصح الإكثار من الإشارات والحركات ، فإن ذلك يذهب بسمت الخطيب ، ومهابته ، وروائه عند السامعين .

وإن الذوق العام المصري من ناحية الخطابة يشبه الذوق الإنجليزي من حيث الرغبة في قلة الإشارات ، وملاحظة السذاجة ، وألا يكون هناك تكلف لها ؛ فإن ذلك ليس مألوفا من كبار الخطباء عندنا ، وهم الذين يوجهون الذوق العام في متجهاته .

الوقفة

أحسن حال للوقفة الخطابية :

١- أن يقف الخطيب على مرتفع ليشرف على السامعين ، ويصل صوته إليهم ، وليتمكنوا من رؤيته ، فإن الرؤية تعين على حسن الاستماع .

٢- وأن يكون في وقفته مستقيم القناة ، فلا انحناء ولا تقوس ، وأن يبرز بصدرة إلى الأمام ، ويعتمد على إحدى الرجلين إن كانت الخطبة تستغرق زمنا طويلا ؛ لكي يستطيع أن يبدل إحدى الرجلين بالأخرى ليريحها .

٣- ويلاحظ أن ليس من المألوف عند كبار الخطباء في مصر الانتقال من مكان إلى مكان كالتمثل ، فيحسن حينئذ الوقوف في مكان واحد لا يزياله إلا قليلا ، وإلا أثار سخرية السامعين وهزؤهم ، فليجانب الخطيب ذلك ما استطاع إلى المجانبه سبيلا .

فنون الخطابة

قد حصر أرسطو فنون الخطابة في ثلاثة أقسام : وهى الخطب التثبينية ، والخطب القضائية ، وخطب المشورة . وكان تقسيمه هذا تابعاً لأوقات المعاني الخطابية ، فالخطب التثبينية وهى التى تتعلق بالمدح أو التأبين أو التعزية وغيرها من الأمور التى تتعلق بحادث ثابت أو حال قائمه زمنها الحاضر ، والخطب القضائية لأنها تتعلق بأمور حدثت فيما مضى ، ويتناقش الخصمان فى بيان تبعاتها ، زمنها الماضى ، إذ أكثر معانيها يتعلق به ؛ وخطب الشورى وهى تتعلق بأخذ الأهبة للمستقبل ، وإعداد العدة لما يكون فيه ، كان أكثر معانيها يتعلق بالمستقبل ، وهو زمن وقوعها .

والحق أن فنون الخطابة تتبع حاجات الأمة ، وأحوالها وشئونها والضرورة الدافعة إلى القول الخطابى . وقد شاعت الخطابة فى عصرنا فى فنون وموضوعات كثيرة ، ولكل منها طرائق خاصة ، ومناهج بيانية امتازت بها ، وطرق للسبق فيها ، والغلب فى ميادينها .

وقد حصرت على تباين موضوعاتها فى أقسام جامعة لها وهى :

- ١ - الخطب السياسية .
- ٢ - الخطب القضائية .
- ٣ - الخطب الدينية .
- ٤ - الخطب العسكرية .
- ٥ - المحاضرات العلمية .
- ٦ - خطب التأبين .
- ٧ - وخطب المدح والشكر .

الخطب السياسية

لم تزد الخطابة السياسية فى عصر من العصور ازدهارها فى ذلك العصر ؛ فقد سبقت كل أنواع الخطابة ، وصار التبريز فيها طريقاً من طرق المحمد المعبدة ، ومنهاجاً مستقيماً لمن يريد أن يتقدم إلى خدمة الأمة بإقامة حكمها على نظام عادل مستقر ، ثابت الدعائم ، مشيد الأركان .

وقد تضافرت جملة أسباب ؛ فجعلت للخطابة السياسية تلك المنزلة :

١ - فسيطرة الشعوب على الحكم في أكثر البلاد المتعدنية ؛ إذ قد صارت هي مصدر السلطان ، وموئل الحكام ، ومرجع أهل الحل والعقد ؛ لا يرمون أمراً من غير استفتاءها ، ولا يحلون عهداً من غير الاستئارة برأيها ، ولا يثيرون حرباً من غير الاستيثاق من تأييدها ، ولا يدخلون في عقد من غير الاستئناس بإرادتها ؛ فالحرية السياسية قد سيطرت على كل شيء ، وحلت في كل نفس المحل الأول ، والخطابة السياسية تنمو تحت ظل الحرية ، وتستمد غذاءها وقوتها منها إذ هي لا تترعرع إلا في جو حر طليق .

٢ - وكانت دور النيابة . والغلب فيها ؛ والعمل على قيادة النواب ، ودعوتهم إلى ما يريته الخطيب ، ومحاولة السبق فيها ، والسيطرة على أفكارها ؛ وتوجيهها إلى ما يرى من مصلحة تعم الجميع ، كان كل هذا من أسباب رواج الخطابة السياسية ، وسيطرتها .

٣ - وإن مناحرات الأحزاب ، ومحاولة كل حزب أن يكون لسانه أغلب ، ومبادئه أكثر انتشاراً وذيوعاً ، وأعضاؤه أكثر عدداً وأعز نفراً ، وأقوى صوتاً ، وما يتخذ في سبيل ذلك من دعايات منظمة كان سبباً ثالثاً من أسباب سيادة الخطابة السياسية .

٤ - وإن اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وتقوية الأواصر ، وعناية كل دولة بنشر الدعاية عن عدالة حكمها ؛ وأنها تسير بالقسطاس المستقيم ، وأنها لا تبغى غير الخير ، وترقب العهود والمواثيق ؛ كل هذا جعل للخطب السياسية النافذة للمحاسن ؛ النافذة للمعائب مكاناً في كل أمة ، حتى إن ألمانيا قد جعلت وزارة خاصة بالدعاية تسيطر على طرقها ؛ وتبتكر أساليبها .

٥ - وإن نهوض الأمم المغلوبة على أمرها الذي قضى عليها ألا يكون أمرها بيدها رديحاً طويلاً من الزمان ، استدعى أن يكون من بين أهل اللسان والبيان فيها من يوقظ الحمية ، ويثير العزائم ، ويحيي الآمال ؛ فوجدت خطب سياسية دافعة إلى الحياة الحرة ، مميته لليأس كما ترى في خطب غاندى ،

وسعد زغلول ، ومصطفى كامل ، وغيرهم من أهل البيان والحمية الوطنية ، ومن تولوا قيادة الشعوب .

لهذه الأمور ولكثير غيرها ، كان للخطابة السياسية المكان الأول من بين أنواع الخطابة . ولكثرة الخطب السياسية وتغلغلها في حياة الشعوب ، وسيطرتها على مصيرها ، تشعبت إلى شعب ، وانقسمت إلى أنواع هي :

- (أ) الخطب النيابية .
- (ب) الخطب الانتخابية .
- (ح) خطب النوادي .
- (د) خطب المؤتمرات السياسية .

(١) الخطب النيابية : هي التي تكون في دور النيابية ، وتشمل خطب الأعضاء معترضين على الحكومة ، أو مؤيدين لها ، أو سائلين أو مستجوبين ، أو متناقشين فيما بينهم ، كما تشمل خطب الوزراء مجيبين أو معترضين ، أو داعين إلى الموافقة على أمر .

والخطابة النيابية مزلق خطير لا ينجح في اجتيازه سالما إلا أولو العزم من الخطباء ، ولا يكفي فيه أن يكون الرجل ذا بيان ولسن وحضور بديهة ونهوض حجة ، وقدرة على الغلب في الخصام ، ومقارعة الأرقام في ميادين البيان ، بل لا بد للنجاح فيها من عناصر كثيرة . لا ينالها إلا من كتب الله له النجاح المؤزر ، والفضل العظيم ، منها :

١ — أن يكون النائب فاهما لنفسية الشعب ، ملما برغباته ، عازفا لمطامحه وأمانيه ، دارسا لأهوائه ومشاعره بل لا بد أن يكون فوق ذلك محسا بإحساسه شاعرا بشعوره ، حاكيا صادق الحكاية لآماله ومطامعه ، لأنه لسانه المعرب عنه ، وصوته الداوي بما يرغب من حياة ، وليجعل الحكم بينه وبين النواب فيما يشجر من خلاف ، وما يقوم من نزاع شعور الشعب ورغبته ، لأنهم إن

حادوا عن تلك الرغبة ، وجانبوها أخلوا بواجب الوكالة ، واخلعوا شعار النبابة ، ولذا يحسن بالنائب الاتصال بناخيه آنا بعد آن وكلما تهبأت الفرصة ، وأمكته الأحوال ، لكيلا يبتعد بشعوره عنهم ، ولكي يكون على إلمام تام بكل ما يعرض لهم من شئون وأحوال .

٢- وأن يكون عليا بمشاعر النواب أنفسهم ورغباتهم ، لأنهم الجماعة التي بخطب فيها ، فيدرس نفسياتها ، ليؤثر فيها من طريق ما تشهى وتبتغى ، وليصل إليها من طريق إقبالها ، ولكيلا ترفض قوله ، وتجعله دبر آذانها . ولا يظن ظان أنه لا يؤثر في النواب إلا المنطق فإنهم وإن كانوا في الغالب من العلية المثقفة المهذبة تنطبق عليهم صفات الجماعات ، من أنها يرد إليها التأثير من ناحية المشاعر أكثر مما يرد إليها من ناحية المنطق ، لذلك يجب على الخطيب النبائي ألا يجعل المنطق هو كل شيء في كلامه ، بل لابد أن يربطه بما يثير المشاعر ، ويهز الإحساس ، ويحفز الهمم ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان دارسا دراسة تامة لعقلية النواب ومتجهاتهم العاطفية ، ليستدرجهم إلى ما يريد من طريق ما يالفون .

٣- ودراسة العرف النبائي واللائحة الداخلية للمجلس ؛ ليكون على بينة تامة ، وعلم كامل بالنظم والقيود التي تحيط بالمناقشات ، فلا يخرج عن نطاقها ، ولا يعدو دائرتها ؛ فإذا سأل وزيرا علم ما للوزير من حق التأجيل ، وإذا أجابه عرف الحدود التي له في التعليق ، فلا يمكن الرئيس من منعه ، فيخدش بذلك المنع عزته ، وإذا استجوب كان عليا بماله من حق المناقشة في الجواب ، وما للأعضاء من حق الاشتراك في المناقشة والمحاسبة ، وفي الجملة يعلم ما للعضو من حقوق في المناقشة ، والأسئلة والاستجابات وغيرها ، وما أحيطت به هذه الحقوق من واجب ، وما نيط بها من تبعات . فإنه إن أخذ نفسه بعلم ذلك والعمل به ، أحيطت مناقشاته بالإجلال ، وصينت من المنع ؛ وذلك من أسباب الإنصات إليه ؛ وربما أدى ذلك الإنصات إلى الاقتناع .

٤- والإلمام التام بنظام الحكم ، والخبرة التامة بأحوال الحاكمين ومعاملتهم للمحكومين ؛ لكي يستطيع أن يؤدي عمله الذي ناب عن الجماعة في أدائه؛ فإن انتقد تصرفا من التصرفات ، انتقده عن خبرة ومعرفة ، وكذلك إن أيد تصرفا ، وإن حاول أحد أن يلبس الأمر عليه ، كشفه بما أوتي من ذلك بالإلمام . ومن الحقائق ما يضيغ بين إفراط بعض النواب في التأييد ، وإفراط الآخرين في النقد، ولو كانت هناك معرفة تامة بأحوال الحاكمين والمحكومين ، واتخذت تلك الأحوال مصدراً للتأييد أو الاعتراض ، لالتقى المتعارضان ، وما تناحر الفريقان . وليعلم النائب أن عمله خطير ، وتبعاته جسيمة ، فقد تدفعه حماسة البيان ، واندفاعة الوجدان ، إلى حمل النواب على تقرير أمر ، أو انتقاد تصرف ، ووراء ذلك ما لا تحمد عقباه ، والمسلك الحق الذي يجانب فيه النائب الشطط ، ويلتزم جادة الاعتدال ، أن يعرف حال الدولة ، والصلة بين حكامها ومحكومها ، ليطلب وهو على علم لما فيها من داء ويصف لها عن خبرة أنجح دواء .

٥- التخصص في دراسة ناحية من نواحي الحياة في الأمة، ليعمل على دراسة طرق إصلاحها ؛ فإن طرق الإصلاح متشعبة ، ونواحيه متباينة ، ولكل ناحية أقوام يجيدون معالجة الإصلاح فيها والدربة التامة بوسائله وطرقه ، ولا يطالب النائب بأن يكون خبيرا بكل ما يصلح الشعب ، علما بكل النواحي، فليوجه أذن عنايته إلى ناحية واحدة ويعن بدراسة طرق الإصلاح فيها ، فالماهر في الزراعة يوجه جل عنايته إلى وسائل ترقيتها ، وطرائق زيادة الغلات ، والطبيب يوجه أكبر عنايته إلى دراسة الأحوال الصحية، ووسائل الوقاية من الأمراض ، والقانوني يتجه إلى الإصلاح القانوني ، ويعمل على تقريب مسافة الخلاف بين العدل النسبي والعدل الحقيقي ؛ والاقتصادي يعنى بدراسة النظم الاقتصادية في الأمم والحكومات ، وتقديم ما يرى الأخذ به يزيد الانتاج ، ويكثر من الثمرات .

وهكذا كل يعمل فيما هيء له ، ويقدم في ذلك مشروعات قوانين واقتراحات ورغبات ، وبذلك تتضافر كل القوى ، وتتلاقى كل عناصر الإصلاح ، ويتم بنيانه الكامل .

ومع اتجاه النائب إلى ما تخصص فيه لا ينصرف عن الإشراف على نظام الدولة ، وسير شئونها ، فإن النواب هم حراس النظام وحماة والرقباء على كل العاملين فيه .

٦ - الهدوء في القول ، والابتعاد عن إثارة عوامل الخصام ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن الخصام يدفع كلا المتخاصمين إلى أن يتعصب لفكرته ، والتعصب يدفع إلى المهاترة ، والمهاترة تدفع إلى الحق والجهل ؛ وإذا لم يكن بد من اختلاف ، فليكن الاختلاف مظهره ومرماه طلب الحقيقة ، والسعى إليها ، والإخلاص في طلبها ، وليحذر كلا المختلفين من الغضب أن يسود مناقشتها ، فإنه إن سادها ، وذهب الحق فريسته ، وإن أجوبة الغضب لا تكون مسددة ، والرود التي يسودها لا تكون محكمة ، فإن الإرادة تضعف عن أن تحكم الشعور ، وذلك قد يدفع إلى الشطط ، ووراءه الانهزام في مساجلة الأقران .

يروى أن سائلا سأل عمرو بن عبيد المعتزلي في حضرة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، فغضب عمرو . فقال له واصل : إياك وأجوبة الغضب ، فإنها منادمة ، والشيطان يكون معها ، وله فيها همزة ، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعيد من همزات الشياطين ، وأن يكونوا معه بقوله : (أعوذ بك من همزات الشياطين) ولما شاهدت أحداً تثبت في جوابه ، وما ينطق به لسانه ، فلحقه لوم .

وليعلم الخطيب النائب أن الناس في داخل المجلس وخارجه يتبعون كلامه بالتقريظ أو بالتزييف ، فليحذر من أن يسقط ، ولا طريق لذلك إلا الأناة والروية ومجانبة الغضب .

٧ - الاجتهاد في موادة الأعضاء ، ليكلا يكون له من بينهم خصوم ،

يندفعون إلى مهاجمته بالحق وبالباطل ، ورحم الله سعد زغلول إذ قال في الجمعية التشريعية تلك الكلمة الحكيمة : إننا إذا لم تسد الصدقة أعمالنا ضعنا ، وضاعت آمال الأمة فينا . وموادة الأعضاء تمنعهم أن يخالفوه إلا بالحق ، وإن خالفوه فهو خلاف إلى اتفاق ، وإن لم يكن اتفاق فهي خصومة شريفة لا يضيع فيها الحق .

٨ - الابتعاد عن النعرة الحزبية ؛ فإن النعرة الحزبية تسد سامع النفس أن يصل إليها الحق ، وتجعل الأحزاب الأخرى لا تنصت لقوله ، ولا تجيب داعيته ، وإذا لم يكن بد من الحزبية ، فليضيّق نطاق سلطانها في نفسه ، وليجتهّد في أن يجعل فكره في أكثر المسائل حراً طليقاً ، وكلامه لا يريد به إلا إرضاء الله والضمير والمصلحة العامة ، فإن ذلك يجعل كلامه أعلق بالقلوب ، ودعوته أكثر اتصالاً بالنفوس .

هذه الأمور لو اتبعها الخطيب النائب في دار الشورى ، أدّى مهمته ، ووصل إلى غايته ، وكان من المصلحين .

أما لغة الخطابة النيابية ، فيجب أن تكون من الفصحى السهلة التي لا تنزل إلى العامة ، ولا تجعل قائلها من المتفهبين المتشادين ، فإن ضجة الألفاظ في المجالس النيابية تذهب بروح المعاني ، ودقة الأفكار وحسن التأثير في كثير من الأحيان ، وليختَر الخطيب العبارات التي تجمع بين دقة الفكر وإثارة الخيال ، والتأثير النفسى .

ولنتقل لك تلك المناقشة النيابية التي كانت بين المرحومين عبد اللطيف «بك» الصوفانى ، وسعد زغلول «باشا» رئيس الوزارة المصرية ، وفي مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ عند عرض مصروفات السودان بدون بيان تفصيل لميزانيته ؛ فقد قال الصوفانى «بك» .

أنا من رأى زميلى شوقى الخطيب أفندى (١) في احتجاجه على عدم

(١) هو الذى أثار المناقشة في تلك المسألة .

تقديم ميزانية السودان مع ميزانية الحكومة المصرية وخصوصا وقد لاحظت في أثناء مراجعتي لأرقام الميزانية أن هناك مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ج . م تقريبا لموظفي حكومة السودان .

أصوات : ليس هذا وقته .

عبد اللطيف الصوفاني « بك » : إني أقصد المسألة السياسية ؛ لأن المبلغ المذكور ترك تفصيل إنفاقه الى حكومة السودان ، دون أن نقف على شيء من بيانه ، مع أن العلاقة بيننا وبين السودان لم يطرأ عليها شيء مطلقا من الوجهة القانونية كما هو معلوم ، أما من الوجهة العملية ، فأذكر وقد كنت عضواً في مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية أن ميزانية السودان كانت تعرض علينا كل سنة ، وبها التفصيل الوافي عما يختص بمصروفات السودان وإدارته فإذا جد حتى صار الأمر المألوف لا يتبع ولا يراعى الآن ! ولانعلم سببا نعلل به ذلك ، أو نرجع إليه لمعرفة هذه المخالفة ؛ فإلى متى نحرم حق الإشراف على السودان ! ويقال لنا إن حاكم السودان هو الحاكم بأمره هناك ؟ . وإذا طلبت منه الحكومة بعض البيانات لا يجيب طلبها ، أو سألته شيئا لا يرد ، مع موظف مصرى ، يتقاضى راتبه من الخزانة المصرية بدون أن يأخذ قرشا واحدا من لندره ، وإذا طلبنا منه شيئا أو معلومات سكت ، وكان سكوته أبلغ من الجواب . أملنا فيكم يا حضرات الوزراء ، ألا تقولوا لنا ماذا نصنع ؟ فإن الأمة من ورائكم ، وهذه قوة عظيمة ، فإذا ما قلتم تقدمت ، واعلموا أن قوة الحق فوق كل قوة ، وما القوة المادية إلا هباء يتلاشى أمام الحق .

فرد عليه رئيس الوزراء سعد زغلول « باشا » بكلام قيم جاء فيه :

يا حضرات الأعضاء ، يجب أن نعمل بجهد ، تريدون منا أو بعضكم على الأقل أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ؛ فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدينا ، ولم نضعها ! وأنا أقول إنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعها ، بل يجب أن نكون واضعي

اليد على السودان ، ويجب أن نسعى لذلك وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة ، وعلى حقها في هذا ، ولدى الأدلة القاطعة ، والحجج القوية ، ولكن لمن أقدمها ؟ الحضرتك (١) أم لمغتصبي حقوقنا ؟ نحن نريد حقوقنا ، ونريد الوصول إليها ، وأنا أولكم وفي مقدمتكم ، ماوهن عزمي ، ولاضعفت همتي ، بل أريد أن أصل إلى هذا الحق بأية طريقة كانت ، وأمامي طريق مفتوح أريد سلوكه ؛ لأصل إلى غايتي ، فإن وصلت إليها ، فيها نعمت ، وإلاعدت إليكم أنت (٢) لا تريد ذلك ، فماذا أصنع ؟ والضرورة تقضي بتوجيه هذا السؤال ؛ لأنك تقول بعدم مخاطبة واضعي اليد على السودان ، وفي الوقت ذاته تطلب ميزانية السودان ، إنها ليست تحت يدي ، والسودان كله تحت يد قوية ، فماذا أصنع ؟ إما أن تتبع طريقي ، وإلا فدلتي على خير منها . إذا تكلمت في مجلس النواب فأنت مسئول عما تقول ، وعن الطريقة التي تريد أن تتخذها لتنفيذها ؛ فإن أقرك المجلس على ما تقول فكلكم مسئولون ، أما أنا فمسئوليتي تكون على قدر إقراري وموافقتي .

أنا في مقدمتكم في كل ما فيه خير بلادي ، وعلى قدر فكري أرى أن الطريق المفتوحة أمامي لتحقيق غرض الأمة وغايتها هي المفاوضة ، فإن كان عندك أو عند غيرك طريق لاستخلاص حقوق الأمة ، فوضحه لي ، وأنا أكون أول العاملين في هذه السبيل إن كان محققاً لأغراض الأمة .

إخواني ، المسألة مسألة جد لا هزل ، وعمل لا كلام ، نحن هنا نتحمل مسئوليته كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً يختص بهذه المسائل المهمة أن ندرسها ونفحصها ، وألا نطيع الهوى بل نستشير العقل والحكمة . فكر في ذلك جيداً ، ولا تسع لإحراجي لأن إحراجي إحراج للأمة ؛ لأنني أقول ، وأنا صادق فيما أقول : إنني لا أريد إلا ما تريده

(١) الخطاب للصوفاني «بك» ، وهو لا يرى جواز المفاوضة ، ويريد سد زغلول بذلك السياق أن يجذبه إليها .

(٢) يخاطب الصوفاني « بك » .

الأمة ، فإن أخرجت زغلولاً ، فقد أخرجت الأمة ، أنا لا أسعى في سياسة غير سياسة الأمة ، والذي يرشدنى ويدفعنى إلى ذلك هو صوت فى ضميرى ، صرخ قبل أن يصرخ فى قلب أى إنسان ، وهذا الصوت ينادىنى دائماً أن أقوم بواجبى بدون أن يحضنى عليه حاض ، أو يحثنى عليه حاث ، ولكن فى موقفى هذا يجب أن ألاحظ اعتبارات كثيرة ، ليس منها المحافظة على مركزى ؛ لأن لى مركزاً أعلى من المركز الرسمى ، ولكن إذا لم أعمل الآن فلا اعتبارات ترجع إلى رعاية مصلحة الأمة ، لا إلى مصلحتى الشخصية ؛ فإن كنت لم أقدم ميزانية السودان ، فالأمر سهل ؛ لأن الذى يضع ميزانية السودان هى حكومة السودان ... دعونا من هذا ، واتركونا . نعمل نحن فى مراكزنا التى لاندين بها إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوتها ؛ فإن رأيتم فىنا اعوجاجاً ، فقوموه لا بالسنتكم بل بسيوفكم . عاهدتكم وعاهدت الأمة من قبلكم ، وأعاهدكم الآن ألا أحيد مطلقاً عن رعاية مصلحة الأمة على قدر استطاعتى ، وليس على المرء أن يكلف إلا ما يستطيعه ، فعليكم مادمتم وطنيين أن تساعدونى ؛ لأن فى ذلك مساعدة للأمة ووصولاً بها إلى الغاية المطلوبة .

(ب) الخطب الانتخابية :

هى الخطب التى يتقدم بها لتزكية نفسه ، ومبادئه ، ومناهجه والرد على خصومه - من يريد أن يكون نائباً عن مخاطبهم ، أو يتقدم بها بعض أنصاره مزكياً داعياً إلى اختياره ، راداً على الخصوم ، ذاكرراً للمناقب ، مبيناً المصلحة التى تدعو إلى ترجيح كفته ، وتأيد دعوته . والنجاح فى هذه الخطب له طرائق مسلوكه ، وشروط معروفة ، تحتاج إلى مهارة ولباقة ، ودرية تامة بمخاطبة العوام والخواص والأوساط من الناس ، ومناحي تأثيرهم ، فإن هذا النوع من الخطب يلقيه الخطيب على جماهير غير متفقه فى التهذيب والتفكير ، وإنا ذاكرون لك بعض ما يجب على الخطيب الانتخابى أن يلاحظه :

١ - فهم روح الجماعة الانتخابية التي يخاطبها ، ودراسة مشاعر أهل الدائرة الانتخابية التي يتقدم للنيابة عنها ، فإن تلك الدراسة تكشف عن آمالهم ، وتبين الحاجات والرغبات المستكنة في نفوسهم ، فإذا تكلم المرشح أو مزكّيه ، ساير تلك الرغبات ، أو ضرب على نغمتها ، فيكون كلامه مصوراً لآمالهم ، حاكياً لأمانيتهم وبذلك يجتذبهم إلى تأييده ، ويحتاز أصواتهم .

٢ - أن يستخدم الخطيب الانتخابي غريزة حب الثناء ، في التقرب من نفوسهم ، فيثني عليهم غير مسرف ، ويبين صواب نظراتهم ، وأنهم في مستوى من الإخلاص عظيم ، ثم يبين أنه يؤمن بسلطان الجماعات ، وأنها صاحبة الأمر والنهي . ويرى بعض العلماء أن تملق الجماعة الانتخابية من أقوى الوسائل لنيل المرشح بغيته منهم ، ونحن لا نوافق على التملق لأنه مذهب لجلال النيابة ، مضعف لنفوذ النائب ، ولكننا نجز بل نوجب على الخطيب الانتخابي والمرشح أن يكون لين الجانب سهل الملمس ، وألا يكون فظاً غليظ القلب متعطرساً ، يثني على الجماعة بقدر غير بادي الملق ، لأن الملق إن بدا عرف النفاق ، فذهب التأثير .

٣ - ذكر المنهج الذي يختاره ومذاهب الإصلاح التي يراها . وليلاحظ في منهجه أن يكون جزء منه يتعلق بالمصلحة التي تعود على تلك الجماعة لانتخابه مباشرة ، ولا نطالبه بأن يجعل مصلحة تلك الجماعة هي كل شيء في منهاجه ، لأن النائب في القانون يكون نائباً عن الأمة كلها ، كما نصت على ذلك أكثر القوانين النظامية ، كما لانطالبه بخلو منهاجه من وعود تعود على تلك الجماعة بشكل خاص ، فإن الناس مأخوذون دائماً بالمصالح التي تعود عليهم بالنفع القريب الداني القطوف .

٢ - وليلاحظ أيضاً ألا يعد إلا بما يعتقد أنه قدير على الوفاء به ، فلا يغالي ولا يسرف ، لأنه إن فعل ظن به الكذب ، وكانت وعوده منظمة الأخلاف ، فيذهب التأثير ، ولكن الدكتور جوستاف لوبون يقول في كتابه روح الاجتماع :

أما المنهج الذى يحرره المرشح ببيان ما ينوى من الأعمال ، فينبغى ألا يكون صريحاً ، حتى لا يتخذ خصومه حجة عليه ، لكن يجب أن يطيل فى المنهج الشفوى ما استطاع ، ولا خوف عليه من الوعد بإجراء أعظم الإصلاحات فإن ذلك يؤثر فى نفوس الناخبين ، وهو فى حل منه آجلاً ، إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً فى هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه ، وترى من هذا أن ذلك العالم الجليل يرى أن المرشح للانتخاب لا يحاسب على ما وعد ، ولسكنا نرى فى التجارب الانتخابية التى كانت فى الأمة المصرية أن. النابهين من الناخبين يرقبون المنتخبين ، ويلاحظون تنفيذهم لمناهجهم ووعودهم ، ونلاحظ أن خصومهم لهم بالمرصداً ، يحاسبونهم حساباً عسيراً على ما يقولون ، فإن رأوا منهم إخلافاً ولوفى وعودهم الشفوية ، أثاروا عليهم قالة السوء ، ولا يصح أن نتوهم أن التصريحات الشفوية لا تصل إلى مسامعهم ؛ لأن لهم عيوناً على خصومهم ، وآذاناً يسترقون السمع منهم ؛ ولهذا نحن نرى أن الواجب على المرشح أو مزكّيه ألا يعد إلا بما يقدر على الوفاء به ، وألا يسرف فى الوعود ؛ لكيلا يكون وعده مظنة الأخلاف .

٤ - ذكر مبادئ الحزب الذى ينتمى إليه إن كان ؛ فبين أن مبادئه هى المبادئ السامية ، وأنها أقرب المبادئ إلى الإصلاح ، وأن الهمة العالية تدنّياها ؛ والمجد الوطنى فى اتجاهها ؛ وأن العزة الشائخة فى الأخذ بها ، والسبر فى مناهجها . وعليه أن يوازن بين مبادئ حزبه ومبادئ الأحزاب الأخرى ؛ فبين أنه أقربها إلى سمو الحق ، وأدناها إلى العمل ؛ وأن الطريق إليها واضح ، والمهيىء الموصول إليها قريب وليكن ذكره لمبادئ تلك الأحزاب فى أدب ورفق وحذر واتزان ليكون نزيه اللسان ، عفيف البيان ؛ يحترم الآراء ؛ ويقدر الأفكار فإنه لا يقنع أكثر من الالتئاد فى القول ، والكلام النزيه البعيد عن البهتان ، والبذاء والسب . وليعمد فى ذلك الذكر إلى

الإجمال بدل التفصيل ؛ ليكون فضل البيان ، والتفصيل الكامل لمبادئ
حزبه ؛ لأنه المقصود ، وعمود الكلام

٥ - ذكر ماضى خدمات المرشح : وإذا كان المرشح نفسه هو الذى
تصدى لبيان سالف خدماته ، فليعمد إلى الإيجاز فى ذكرها ، لأن ثناء
الإنسان على نفسه غير مألوف ، والنفوس لا تقبله إلا على مضض ، ولأنه
إذا جرى على لسانه ، شأبه شائبة من المن والأذى . وإذا كان الخطيب
غيره فلا مانع من تفصيل خدماته ، والإطناب فى ذلك ، وليحذر المبالغة
والغلو والإسراف فى القول ، فإن ذلك يجعل كلامه عرضة للتكذيب ،
فقوم يقولون عنه مستأجر ، وآخرون منافق ، وغيرهم متملق وكل هذا
تكذيب ، وإثارة للريب فى خبره .

ولا مانع من أن يوازن بينه وبين غيره من المرشحين ، وليكن ذلك
فى قول خال من الطعن والسب ، وبخس الناس أشياءهم ، وقرضهم فى
فضائلهم ، والنيل من كراماتهم ، فإن ذلك يذهب بروح التأثير ، ويجعل
القول المقذع يذيع ، ويسيطر على الجس الانتخابى ، وذلك مفسدة ومعرة
إذا ظهرت فى جو فكرى عششت فيه الرذيلة ، واختلط فيه الحق بالباطل ،
وضاع الحق وسط ضجة من الهتان

٦ - عدم التوعر : على الخطيب الانتخابى أن يتجه إلى السهولة فى
التعبير ، فلا يتشادق ولا يغرب ، بل يتجه إلى تقرب الأفكار ، وتوضيح
المبهمات ، والإطناب فى شرح الحقوق والواجبات ، ولا يكتفى باللازم عن
الملزوم ؛ لأنه يخاطب العامة ، والعامة لا يدركون إلا الواضح القريب الدانى .

وعلى الخطيب الانتخابى أن يعلم أن تلك الخطب دروس سياسية قانونية
للشعوب ، فليجتهد فى ألا يقدم إليهم إلا الصحيح الذى لاتضليل فيه ،
لكى يعلمهم الحقوق والواجبات النظامية ، وليسهل لهم المعلومات لتكون
قريبة معروفة دانية من مألوفهم ، وبذلك يوجه أفكارهم ، وينال تأييدهم ،
وينفع أمته بتهديبهم .

هذه وصايا من أخذ بها من الخطباء الانتخابيين قارب النجاح في مهمته ؛ ونال الثقة ، وفاز بالتأييد .

(ج) خطب النوادي والمجتمعات :

تكون خطب النوادي والمجتمعات في أكثر الأحيان ليسن حزب من الأحزاب خطة سياسية أو لتأييد فكرة من الأفكار والدعوة إليها ، والعمل على نصرتها ، أو حفز الحمم ، وإيقاظ الغرائم ، أو للدفاع عن تهم توجه للحزب ، ورد كيد الخصوم في نخورهم ، وفي الغالب يكون المجتمعون في النوادي من الخاصة أو الأوساط ، وقليل أن يكونوا من العامة .

ولذا يحسن أن تكون تلك الخطب محكمة الأفكار مع الوضوح والسهولة ، وأن تسرد فيها الأدلة المنطقية مع الوسائل الخطابية ، فيكون للمنطق فيها سلطان بجوار سلطان الخطابة ، وما يتخذ فيها من طرق لإثارة الأهواء .

وإذا كان الاجتماع للرد على هجوم وجهه أناس للحزب ، فليبتدئ الخطيب بتنفيذ الأدلة التي يسوقها الخصوم بالطرق التي بينها في التنفيذ ، فإذا انتهى من كشف ما في حجج الخصوم من بطلان ، انتقل إلى مهاجمة مبادئهم وأفكارهم والموازنة بين ما يدعوا إليه وما يدعون ، وليكن في تلك الموازنة عف اللسان ، لا يتجه إلى السب ؛ فإن الاتجاه إليه عجز ، والأخذ به فتح لباب البهتان والتضليل ، وبذلك يخفى الحق في عثير من الباطل .

وعلى خطيب الحزب أن يجتهد في أن يجعل عباراته فخمة قوية ، واضحة سهلة ، لا تنزل عن الأكفاء ، ولا تعلق على الأوساط ولا تناسى عن العوام ؛ فإن الخطبة ستنتشر في الغالب في الصحف ، وتقرؤها الطبقات كلها ، وإن كان السامعون من الخواص أو من قاربهم .

ولأن الخطيب الحزبي يخاطب الأمة كلها بكلامه في ناديه وينشرها في صحفه ، وجب أن تكون خالية من كل ما يؤاخذ عليه قائلها بأي نوع .

من أنواع المؤاخذة ، فلا إسراف فيها ولا غلو ، ولا وعد بما يكون مظنة
الأخلاف ، وإلا نزلت الخطبة بالقول والقائل ، وارتدت الدعوة إلى التأييد
خسرانا مبينا . وإن قوما يظنون أنه لاحساب على القول ، فيسرفون في
ذكر مبادئ واسعة النطاق في نواديهم ومجتمعاتهم ، فإذا عملوا تحلى عملهم
عن دعواهم ، وقام منه دلائل لاتقبل النقض على غير ما يدعون ، والناس
يسمعون ثم يرون ويعاينون ، فيحرمون هؤلاء من ثقتهم وتأييدهم ؛ لأن
من يسرف في القول ، ويضؤل عمله ، لا يوثق به .

(د) خطب المؤتمرات السياسية :

هذه خطب الكبراء ، والنائبون عن الحكومات في المؤتمرات الدولية ،
ويظهر لى أن عنصر الشعور وإثارة الأهواء أقل العناصر ظهوراً في تلك
الخطب وإن أوضح ظاهرة فيها الدقة في حكاية المهمة التي ناب عن حكومته
فيها ، وصدق التصوير لأقصى ما تتسامح فيه دولته . وليس لنا أن نتعرض
لبیان تفصيلي لما يجوز وما لا يجوز في تلك الخطب ؛ فإن ذلك من عمل أناس
يجيدون ذلك العمل ، ولسنا منهم في شيء ، ولنكتف من هذا بأن ننقل
لك خطبة الرئيس ولنسن في مؤتمر السلام العام الذي كان منعقدًا في ٢٥ من
يناير سنة ١٩١٩ وهاهي ذى :

أيها السادة ، إن الطبقات المختارة من الجنس البشرى لم تعد حاکمة
الجنس البشرى ؛ فحظوظ البشر هي الآن في أيدي شعوب العالم كله ،
وإذا كنتم ترضون هذه الشعوب ، فإنكم تبررون ثقتها ، وتقرون السلام ،
وإذا كنتم لاتعملون في إرضائها ، فإن كل اتفاق تضعونه لايقر السلام
في العالم ، ولا يوطده .

وينحىل إلى أنكم تتصورون العواطف والمقاصد التي يعاضد بها مندوبو
الولايات المتحدة هذا المشروع العظيم ، مشروع جماعة الأمم ، فنحن نعدّه
أساساً للعمل الذي أعربنا به عن مقاصدنا وغاياتنا في هذه الحرب ، والذي
قبلته الشعوب المشتركة أساساً للتسوية .

فإذا عدنا إلى الولايات المتحدة دون أن نبذل كل ما في وسعنا

لتحقيق هذا البرنامج ، فلن نلاقى سوى السخرية التى نستحقها من بنى وطننا ؛
لأنهم كتلة تتألف منها ديموقراطية عظيمة فهم ينتظرون من قادتهم أن
يتكلموا ، ومن ممثليهم أن يكونوا خداما لهم .

فليس علينا إلا أن نعمل بالوكالة التى فى أيدينا ، وإننا نقبل هذه الوكالة
بأعظم حماسة وسرور ، وبما أن هذا هو أساس العمل كله ، فقد وقفنا عليه ،
وعلى كل ذرة منه جميع اهتمامنا .

ولا نجسر أن نصرب صفحا عن أية مسألة كانت فى البرنامج الذى تضمنته
التعليقات التى فى أيدينا ، ولا نتساهل فى أى جزء منها ، لأن ما ندافع عنه
هو سلامة العالم ، هو موقف العدالة ، هو المبدأ القائم ، على أننا لسنا أسياداً
للشعوب ، ونحن قد جئنا إلى هنا لنحرص على أن يختار كل شعب فى العالم
أسياده ، وأن يتصرف فى شئونه ؛ لا كما نريد نحن ، بل.. كما يريد هو . وصفوة
القول إننا جئنا إلى هنا لنحرص على اقتلاع جذور الحرب وأسسها جميعها .

وقد انفرد بأمر هذه الأسس عصابة من الحكام المدنيين والهيئات
العسكرية ، وهذه الأسس هى الاعتداءات من الدول الكبيرة وتأليف
الامبراطوريات بقوة السلاح على الرغم من الرعايا ، وجعل الجنس
البشرى لعبة تتقاذفها الأيدي ، فلا شئ يأتى بالسلام سوى تحرر العالم من
هذه الأمور ا هـ .

الخطابة القضائية

الفصل فى الخصومات على وجه الحق أمر عسير ، وحل معضلات القضايا ، ومعرفة الحق من الباطل ، وتحرى العدالة الحقيقية أمور فوق قدره البشر ، وقد قال خير الخلق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيما روته أم سلمة رضى الله عنها : « إنكم تختصمون إلى ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ؛ فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فن قطعت له من حق أخيه شيئا ، فإنما أقطع له قطعة من النار » . وقد اتفقت على رواية هذا الحديث كتب السنة الستة .

وقال رجل من رجال القانون وشيوخه عمل فى المحاماة وفى القضاء وفى الاشتراع ، وهو المغفور له سعد زغلول : يظهر لى أن العدالة الحقيقية غير موجودة فى هذا العالم . لهذا كله كانت مجالس القضاء مكانا لمغالبة الخصوم ، ومقارعة الحجج ، وميدانا فسيحا للاستدلال الخطابى ، كل يحاول جذب القضاء إلى فكرته ، وإقرار دعواه ، وإجابة طلبه ، وقد قال بعض القضاة : لا تقولوا : إن الحقيقة تدافع عن نفسها ؛ فإن ذلك يكون صدقا لو خلت النفوس مما يشينها ، ولكن الناس بحكم الطبع والعادة ليسوا أصفياء ، أتقياء الروح ؛ لذلك كان حتما علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليلين ، فنصهر أفئدة المصغين لنا فى حرارة البلاغة ، حتى تقبل الحقائق التى نبديها لهم .

وهذا النوع من الكلام هو الذى نسميه الخطب القضائية . وهو قديم بقدم الخصومات والمنازعات البشرية ، وقد جاء فى كتاب المحاماة للمرحوم أحمد فتحى زغلول « باشا » : قد كان لليهود فى زمن موسى عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه المحاماة اليوم ، وأخص ما كانوا يعملونه حل المشكلات التى تظهر بين الأفراد من المسائل القانونية ، وكانوا فى عملهم هذا مأجورين ممن يعملون لمصلحته ، لأنهم فى عملهم كانوا يأخذون جعلا من بيت المال . .

وكان قدماء المصريين فى بعض عصورهم يخشون التأثير الخطائى بالصوت والإلقاء والحركات والإشارات وجمال الشارة ؛ فحرموا المرافعات بغير الكتابة . خوفا على العدالة من أن تذهب فريسة قوة التأثير .

وكان لقوة تأثير المرافعات فى مجالس القضاء عند اليونان أثر واضح فى الأحكام ، حتى سنت القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل لإثارة الوجدان والعواطف فيها ، وحتى عين فى كل محكمة رجل يقاطع الخطيب أو يسكته ، كلما رآه يحاول التأثير بقوة العاطفة والألفاظ ، وإثارة الإعجاب .

والرومان مع قوة تأثير الخطباء عندهم تركوا العنان ، ولم يقيدوا الخصوم بأى قيد ، ثقة بالقضاء ، واعتمادا على وضوح القانون وصراحة قواعده .

وكذلك الشأن الآن فى كل البلاد المتمدنية أطلق العنان لهم ، يدلون بحججهم ، غير مقيدين بنحو خاص من القول ، ولا بمنهاج من التعبير ، ولا بطريق من التفكير والتأثير ، فلا قيد إلا قيد النظام والقانون ، وفى غير ذلك هم طلقاء من كل قيد . وقد حرصت الحكومات على أن يكون من رجالها من يثبت الجريمة ، ويؤثم المجرمين ، ويقدم نصوص القانون الموضحة للعقاب ، وهؤلاء هم رجال النيابة ، فلهم مرافعات فى القضايا التى تتعلق بالنظام العام ، وعلى ذلك يكون عندنا نوعان من الخطابة القضائية ؛ مرافعات النيابة ، ومرافعات المحامين ، ولتتكم على ما يحسن سلوكه فى كل منهما ، ليؤدى إلى النجاح ، وسيكون كلامنا بالاجمال ؛ فالتفصيل لأهل الخبرة فى هذه الأعمال .

مرافعة النيابة

١ - يشبه عمل النيابة الحسبة الإسلامية ، فكما أن المحتسب يرفع الدعوى فى حقوق الله سبحانه وتعالى ؛ كبعض الحدود ، ودعاوى الوقف ونحوها ، كذلك النائب العمومى ووكلاؤه يرفعون القضايا فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، وهى الجنايات المنصوص عليها فى القانون ، ويقدم

النائب الأدلة المثبتة للدعوى في الجملة ؛ فإن ظهر أن القرائن غير كافية للادانة بعد رفع الدعوى فوض الأمر للمحكمة ؛ فقد جاء في منشور وزارة الحقانية الصادر في ٢٠ إبريل سنة ١٨٩٨ وليست النيابة إلا خصما أقيم لرفع الدعوى باسم الهيئة الاجتماعية ؛ ولا يوجد في النصوص القانونية ما يسوغ لها أن تطلب براءة المتهم كما شوهد حصول ذلك في العمل من زمن غير بعيد ؛ وإذا كانت الأدلة القائمة على المتهم غير كافية لإثبات التهمة عليه لاشك أنه لا يتعين عليها أن تشدد في طلب الحكم عليه بالعقوبة ، بل الواجب الذي يفرض عليها في مثل هذه الظروف أن تكل الأمر إلى المحكمة لتفصل فيه بما تراه ، إذ هي الحكم دون سواها .

٢ - ويلاحظ أن النيابة ليست خصما من كل الوجوه فهي من ناحية أخرى لها عمل يشبه عمل القضاة ؛ إذ الواجب على النائب أو وكيله أن ينظر إلى المتهم عند تحقيق اتهامه نظرة غير متحيزة إلى اتهام بل يزن الأدلة ، ويفحصها ، ويتعرف المجهول منها والمستور ، حتى إذا اجتمعت لديه الأسباب رفع الدعوى ، وعند الإدلاء بالحجج يجب أن تكون كل جهوده متجهة إلى الأخذ بيد العدالة ؛ ليضعها على ما وصل إليه من حقائق ؛ فلا يحاول إنجاح الاتهام بكل الطرق ، بل بطريق واحدة ، وهي سرد الحقائق ، وسوق الأدلة الناطقة بالاتهام ، لأن القانون جعل النيابة قيمة على الحقوق العامة ، ومعينة للقاضي على إظهار الحقيقة ، لا على تأييم مطلق ؛ ولذا نقول إن الواجب في مرافعة النيابة أن يسودها سرد الحقائق وسوق الأدلة فلا يكون فيها مما يثير الوجدان والعاطفة إلا بقدر محدود ، وإلا إذا توقعت أن الدفاع سيثير جواً كذلك ، فإنها تتقدم بما تراه موصلاً لغايتها من غير إفراط ولا تفريط .

٣ - وكما يجب على الخطيب القضائي الممثل للنبيأة ألا يكثر مما يثير الوجدان والعاطفة ، كذلك يجب عليه أن يلتزم الاعتدال ، ولا يندفع وراء تيار من العبارات الخطائية ؛ فإن ذلك قد يستر الحقائق ، ولا يؤدي إلى كشفها ، وهو الواجب عليه ، وإذا جاز ذلك من المحامى الذى لايهمه

الا التبرئة ، والذي هو بطبيعة عمله ينظر النظرة المتحيزة ؛ فهو لا يجوز من النائب العام الذى لا يهمله إلا الحق فى ذاته ، والجميع بين يديه سواء ، ولذا لا تكون الحماسة فى خطب النيابة إلا بقدر ، بل يحسن الهدوء ، والاجتهاد فى تصوير الجريمة ، من غير مبالغة .

٤ - وإذا عمد إلى وصف نفسية المتهم ، فليكن بعبارات مهذبة عفيفة ، لا تجنى فيها ، ولا ما يشبه السب ، كما فعل ممثل النيابة فى قضية القنابل التى كانت فى سنة ١٩٣٢ ومنها ما جاء فى تصوير نفسية أحد المتهمين (محمد على) فقد قال : إني إذ أقدم لحضراتكم بهذا المتهم . إنما أقدم نسيجا ليس له مثل بين باقى المتهمين ، حاولت أن أتفهم نفسيته ، وأن أعرف حقيقة عقليته ؛ فأعجزنى ، حتى لقد ظننت ، وأنا أحاول ذلك أنى كرجال الرقابة عليه ، راغ منى كما كان يروغ منهم .

ليست نفس هذا المتهم إلا نفساً مضطربة ، رعى بها وسط التيارات المتباينة ، علم سطحي بالقراءة ، ومطالعة مبتسرة للجرائد ، وضعف فى للتكوين ، طم على جميعه ، إن كان للحين المقدور سكرتيراً للجماعة من جماعات العمال ، فظن أنه أصبح شيئاً مذكوراً ، وزاد هذا عنده أنه كان يجالس بعض من فوقه مجالسة النظير ؛ ألا ترون دلائل الفخر فى قوله : أنا قوى الإرادة جداً ، ولم يؤثر على أحد بطريق البلف ، ألا ترون دليل الغرور فى قوله عمن كانوا يراقبونه : إنه كان يمتحن ذكاءهم .. الخ الخ وترى فى هذا وصفا صادقا لنفسية المتهم مع النزاهة التامة فى التعبير .

وإذا اعترض أحد على ممثل النيابة أو فرط من الدفاع كلام يشم منه حرج ، لا ينساق فى الرد فيقع فى الحماة التى وقع فيها خصمه ، بل يرد فى رفق وهدوء ، كما يفعل المغفور أحمد زكى أبو السعود « باشا » عندما كان وكيلًا للنائب العمومى ، ووقف ضد نحامى فى مجلس تأديب ، فرد الحامى برد جارح ، فقد قال زكى « باشا » فى مذكرة كتبها فى الرد : مثل النيابة فى تحقيقها مع المتهمين بالجرائم مثل الطبيب يعالج الأمراض ، فيوفق إلى استئصال شأقتها ، ومنع أذاها عن الناس ، ولكنه قد يصاب فى الوقت نفسه

بشيء من سمومها ، كذلك كان حالنا مع المتهم في هذه القضية ، شكاه خصومه ، فحققنا شكواهم ، وأظهر التحقيق إدانته ، فرفعنا أمره إلى مجلس التأديب ، سلم خصومه من نتائج عمله ؛ ولم تسلم النيابة من لسانه ، ولسنا ننكر على المتهم حقه في الدفاع ، لأن حرية الدفاع من المبادئ التي نحترمها ، ونعمل لتأييدها ولكننا ننكر عليه تهوره في دفاعه إلى حد الطعن في الذمم ؛ وتجريح الضمائر ، كتبنا مذكرتنا ، كما يكتب القاضي حكمه ، فقصرناها على رواية الوقائع ، وبيان الأدلة ، ولم نتعرض للدفاع المتهم بكلمة تؤذيه ، وكنا ننتظر أن يأخذ بأدب النيابة في مرافعتها فيجعل دفاعه مهذبا أثناء المحاكمة ، كما كان دفاعه مهذبا أثناء التحقيق ، ولكنه لم يستطع أن يضبط قلمه ، فجرى في دفاعه على أسلوب لم يألفه المترافعون ، ولا تميل إليه أسماع المتأديبين .

ومن الناس من يتوهم أن إجراءات التحقيق من الأمور التي يمكن التصرف فيها تبعا للشعور والعواطف ، يريدون من المحقق أن يكون لينا متساهلا ، فإذا ما آتسوا منه ميلا إلى التشدد في الواجب ظنوه قسوة وشدة ، لأنهم لا يعرفون للواجب حد يقفون عنده ، أولئك هم الأميون الذين يجهلون القانون ، وهم لجهلهم معذورون ، وهم معذورون أيضا لأنهم إذا كرهوا عمل المحقق احترموا شخصه ، وتهيئوه ، فلا هم يصلون إلى ضميره ، بطعن ، ولا هم يمسون ذمته بسوء .

لم يرد ... أفندى أن يقف في كراهته للتحقيق عند الحد الذي يصل إليه عامة الناس في شعورهم ، فسمح لنفسه بالطعن في عمل المحقق ؛ ليتسع أمامه مجال القول بالظنون ، بعد أن ضاق في وجهه مجال القول الصحيح قعدت به همته عن مناقشة الدليل فزعم أنني تحاملت عليه ، ومعنى هذا التحامل أنني هضمت شيئا من حقه ، فراجعت أعمالى فألفيتها تنطبق على القانون من كل وجه . وراجعت الذاكرة فوجدتني لا أعرف شخصه ؛ ولا أذكر أنني صافحته في حياتي قبل أن أشتغل معه بالتحقيق . زعم أنني تحاملت عليه وهو أعلم الناس بفساد هذا الزعم ؛ فرأيت أن أقول

كلمتى لا لأبرىء نفسى فهى أكبر من أن تتأثر بطعن لا يؤيده دليل
وإنما أقولها ليعلم الناس أن ... أفندى أساء إلى النيابة بقدر ما أحسنت
هى إليه فى المعاملة .

رأيت منذ شرعت فى التحقيق أن أسمح للخصمين بأن يأخذ كلاهما
من حرية القول حقه فيها ؛ فلا أذكر أنى وقفت فى وجه أحدهما
لكلمة أراد أن يثبتها أو سؤال طلب أن يوجه إلى شاهد أو عمل من
الإجراءات التى يسمح بها القانون ولم تكن سلطة التحقيق إلا فيصلا بين
الحق والباطل ، وضمان مساواة بين الدعوى والدفاع كى لا يتغلب قوى على
ضعيف . ارتاح ... أفندى إلى التحقيق فدافع عن نفسه هادئا مطمئنا ؛
وقد دفعه اطمئنانه إلى الاعتراف بوقائع يعاقب عليها القانون وما كان
التحقيق ليكشف أمرها لولا اعترافه ؛ وثق فاطما أن فاعترف ؛ فكيف
يتفق هذا الاطمئنان مع التحامل الذى يدعيه ؟! هذا حقه فى الدفاع
قد استوفاه ، وتلك أعمالى فى التحقيق ذكرتها فى الرد ؛ وأبنت وجه
الصواب فيها لا أقول إنى معصوم ولا أقول إنى ملك ، وإنما أقول : إنى
لم أعمل فى التحقيق غملا لا يرتاح إليه ضميرى ؛ تعمدت إظهار الحق
بوسائل مشروعة ، وأعتقد أنى وصلت إليه ، فان كان فى ذلك ما يغضب
المتهم فأنا أول من يلتمس له عذرا ؛ لأن فى الحق قضاء على حياته الأدبية
وإنما لا ألتمس له العذر فى طعن لا يستند فيه إلى سبب صحيح ، ولا يقصد به
إلا التجريح وهو به لم أنى لم أعمل إلا ما قضى واجب به وأنى كنت به رؤوفا .

هذه مرافعتى لم أذكر فيها كلمة أعتقد أنها غير صحيحة وقد ذكرت فيها شيئا
من أعمال ... أفندى فى قضية واحدة ليقاس عليها عمله فى القضايا الأخرى
فاحكموا بعمله على أخلاقه فإنما على الأخلاق تحكمون (١) .

وهذا مثل قيم للرد اللاذع على تجريح الدفاع من غير إسفاف ، بل
بتسام واعتصام بسلطان الواجب والحق .

٦ - هذا ويلاحظ ممثل النيابة أن كل تطويل في غير التحليل والتفصيل عند الحاجة إليهما إضاعة لوقت القضاء ولوقته في غير طائل ، وكل إيجاز فيه نقص وعدم توضيح وإيهام بإخلال بالواجب المنوط به والعدالة التي تعده من رعاتها وحماها ؛ والعاملين عليها ، والداعين إليها ، فليتحذر الوضوح والشرح ، وسرد الوقائع من غير حشو ، واقتصار على المطلوب ، وعدم الإسراف في الألفاظ من غير إخلال .

٧ - وعبرة النيابة تستحسن فيها السهولة والانسجام والاسترسال مع عدم تكلف التحسين ؛ وإلا ضاعت الحقيقة وسط ضجة من الألفاظ ، وسيل من التعابير ، وعليه مع ذلك ألا يفوته أمران :

(أحدهما) أن يتجه إلى الألفاظ الفخمة القوية الرنانة إن كان يتكلم في سلطة القانون وقوة سلطانه ، ليلقى في روع السامعين مهابة القانون فيلزموا خطة الطاعة ، ويخاف العصاة صولة العقاب .

(وثانيهما) أن يلاحظ قوة رجال الدفاع ، فإن وجدهم من أهل البيان واللسن ، ومن يحاول التأثير بالكلام شهر عليهم مثل سلاحهم من غير أن ينسى أن عمله الدفاع عن الحق في ذاته ، وأنه ليس كغيره يتحيز ويسير وراء مصلحة من يتحيز له ؛ فإن كان له أن يتحيز ، فللمجتمع والحق والقانون ، لا لغيرهما .

مرافعات المحامين

المحامى هو العليم بالقانون الذى يستطيع أن يثبت حق ذى الحق ويدفع باطل المعتدى معتمدا في ذلك على علمه بما شرع القانون من حقوق ، وما ألزم من واجبات ، وما قيد به الحريات حفظا للجماعة ، وتثبيتا للمصالح .

ولسنا نتكلم هنا عن مرافعات المحامين من كل وجوها ؛ فنثبت ما لهم من حقوق قانونية في حق الدفاع ، وما عليهم من واجبات . وما قيدوا .

به من حدود ؛ ليؤدوا واجباتهم على الوجه الأكمل ولانئين مراتب الأدلة ، ومواضع قوتها ، وما يجب اتخاذها منها في القضايا المختلفة ، لا نتكلم في هذا ولا في ذاك ، فهما من شأن رجال القانون والمشتريين ، وذى الدراية من المحامين ، وأهل الخبرة من القضاة .

ولنما نقتصر في كلامنا على ما يتعلق بأداء المرافعات ، وطرق تحضيرها في الجلسة ، وما يحسن في لغتها ، وما لا يحسن ، وما يراعيه المحامي من مقتضيات ، وما ينتهزه من فرص ، وغير ذلك مما هو لب الخطابة القضائية ، وفي الأخذ به نجاح المحامي ، والوصول إلى غايته ، إن كان قد اعتمد على أدلة قوية دامغة ، وفي الجلسة كلامنا هنا في شكل المرافعات الخطابي .

وقبل أن نخوض في بيان هذا يجب أن نذكر ما يتحلى به المحامي ؛ ليكون أقدر على النجاح في مهنته .

١ - الرغبة الصادقة في إنصاف المظلوم إن وجدته ؛ فإن تلك المهنة الشريفة ليست مرتزقا يتخذ للعيش فقط ، بل هي عمل شريف من قبيل الإصلاح الاجتماعي قبل كل شيء ، ومن هذه الناحية تكتسب المحاماة شرفها ، وينال المحامي مجدها ، وإلا فهي مهنة ككل المهن لافرق بينها وبين الصناعات المادية التي تفيد الناس في نواحيها .

قال الأستاذ الغرابي « باشا » في محاضرة ألقاها على المحامين الذين هم تحت التمرين سنة ١٩٣١ :

المحامي هو قبل كل شيء نصير المظلوم ، ثم هو بعد ذلك الرجل القانوني الذي يستطيع أن ينتصر لذلك المظلوم انتصارا مفيدا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحامي ، فمن وجد في نفسه ميلا فطريا لنصرة المظلوم ، ومحاربة الباطل ، فليسلك سبيل المحاماة إذا أراد ، ومن لم يحس في نفسه بهذا الميل الغريزي ، فإن أنصح أنه يتعد عن المحاماة ، وأن يشق له في الحياة طريقا آخر .

وقال في المحاماة وطلب المال : ومتى كان جمع المال غاية ، فاشق

المحاماة بهذه الغاية ، بل ما أشقى العدالة بمحاماة تكون وسيلة لجمع المال ؛ لأن كل وظيفة من وظائف العدالة تفسد ، وتنقلب إلى خطر محقق ، إذا كان صاحبها طالب عيش قبل كل شيء ؛ إذ أن الوظيفة تكون في هذه الحالة سخرة لخدمة الشخص ، وليس الشخص هو المسخر لخدمة الوظيفة فيألفها من جريمة شنيعة ، جريمة أولئك الذين يستخدمون وظائف العدل لإشباع بطونهم .

وقد نظرت القوانين إلى المحاماة نظرتها إلى الناصر للمظلوم ؛ ولذا جعلت على المحامي فريضة واجبة الأداء وهي التقدم للدفاع عمن ليس لهم محام يدافع عنهم ، أو يثبت حقوقهم متى ندبه القضاء لذلك ، وإلا استحق العقاب .

٢ - الإلمام التام بأحوال الجماعات ، وطوائف الأمة ، وعرف كل طائفة ، ليستطيع أن يتخذ من عرفها ، وما يجرى بين الناس في عامة أحوالهم دلائل تثبت ما يقول ، وتقطع على الخصم طريق الانتصار ، فعليه أن يعرف حال الزراع وما يجرى بينهم ، وما هم عليه من أخلاق وعادات ومعاملات ، وعليه أن يعرف حال التجار وعرفهم في مبادلاتهم وما يصفقون به في الأسواق ؛ ويسيرن عليه في الأعمال ، وهكذا في كل الطوائف ، فإن أفضية الناس متصلة كل الاتصال بأحوالهم وشئونهم ، ويحدث لهم من الأفضية بقدر ما يحدث بينهم من شئون :

٣ - قوة الانتباه واليقظة التامة ، وحسن المراقبة لما يجرى في مجلس القضاء ، ويقال من شهود وخصوم ووكلاء ، لكي يستطيع أن يعرف المقتل ، فيضرب الضربة القاصمة للخصم .

وقد قال الأستاذ إبراهيم الهاياوى في ذلك :

كثيرا ما شعرت بتحول في تيار فكرى إلى نقط تصلح لموكلى أستنبطها من طريقة الخصم ، أو من ملاحظة المحكمة ، وأعظم نعمة أشكر الله عليها توفيقى في انتهاز هذه الفرص في لحظتها ، ثم التعبير عنها والاستفادة منها .

٤ - أن يكون متصفا بصفات الخطيب التي لا يعد المتكلم في صفوف الخطباء بدونها ، وقد بينها ، وذلك لأن المرافعة خطابة لها طابع خاص .

٥ - وقد أوجب الأستاذ محمد علي علوبة « باشا » :

(أ) أن يكون المحامى على شيء غير قليل من أدب اللغة ، ليجد فيه بغيته متى أعوزته الحاجة إليه .

(ب) وأن يكون ملما بقواعد علم النفس والاجتماع .

(ح) وأن يكون ثابت الجنان يملك زمام نفسه عند المفاجآت ، فلا يسد عليه انفعاله مسالك التفكير .

وقد علمت مما سبق ضرورة هذه الأمور للخطبة ؛ ليستطيع بالأول أن يكون ذا ثروة لغوية يصرف بها فنون القول ، ويسلك بها من طرائق البيان أقربها توصيلا ، وليعرف بالثاني كيف يثير الوجدان والأهواء في الناحية التي يريدها ؛ ولكيلا تطيش حجته إذا أخذته الرهبة ، واستولت على لبه مفاجآت الخصوم .

٦ - الهدوء التام ، ومجانبة الغضب ، والاجتهاد في ضبط نفسه ، وعدم مسابرتها في سبيل الغضب إن لم يستطع التخلي عنه ؛ فإن المناقشات التي يسودها الغضب تدفع إلى المهاترة ، والمهاترة نوع من الحمق والجهل كما ذكرنا ؛ ولأن المحامى إذا استرسل في غضبه ، ضاعت حجته ، وضل مجتهده ، ووجد الخصم الطريق إلى الغلب ، وكثيرا ما يثير الخصم الأريب خصمه الغضوب ؛ ليقتنص منه الحجة ، ويستحل منه القضية ، ويتركه يحرق الأرم ، ويعض بنان الندم ، فليعتصم المحامى بالهدوء في مساجلاته ، ليستطيع أن يسدد السهام ، وهو ثابت الجنان ، فلا يتبعد عن الهدف .

هذه بعض ما يتحلى به المحامى من صفات ، وما يكمل نفسه به من تهذيب وقد آن لنا أن نبين طرق إعداد المرافعة ، وطرق الإدلاء بها ، ولغة المرافعات .

إعداد المرافعات :

إن إعداد المرافعات يجب أن يتناول الدرجات التي بها يصل المحامي إلى غايته ، وتلك الدرجات ثلاث :

أولاهها : جمع عناصر القضية ، واستخلاص الأدلة .

ثانيها : إعداد العدة للرد على ما عساه يحىء على السنة الخصوم ووكلائهم من أدلة .

ثالثها : التفكير في الأسلوب الذي يتجه إليه ، والمسلك الذي يسلكه ليصل إلى إحساس القاضي ويمس به وجدانه .

أما جمع العناصر والأدلة فيكون :

١ - بدراسة أوراق القضية واستيعاب أجزائها ، واستقراءها استقراء تاما ، بعد الاستيثاق من أنها كاملة لم ينقص منها شيء ، حتى إذا أتمها قراءة ، ولم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا غاص في فهمها واستبطان ماحوته .

٢ - رتب ما أخذه منها ، ووضعه في وضع مسلسل متماسك الأجزاء .

٣ - ثم يستنبط منه ما يراه مؤيدا لما يريد ، وإذا رأى في هذه الكفاية اقتصر عليه ، وإلا اتجه إلى القانون يستنطق مواده ، ويغوص في قواعده . حتى يصل إلى ما يراه مؤيدا له ، مثبتا لما يريد موكله ، ولو على سبيل الرجحان لا اليقين .

وهنا يثار بحث هو : أيجب على المحامي ألا يتقدم للمرافعة في قضية ، إلا إذ وجد أن ما تحت يده من الأوراق والأحداث يثبت أن موكله على حق مبين ؟ أم يصح أن يتقدم للدفاع ، ولو اعتقد البطلان ؟ يرى بعض كبار المحامين ، وبعض أولئك الذين أخذهم سلطان الحق والفضيلة والغيرة على تلك المهنة الشريفة أنه لا يصح للمحامي أن يقف إلا إذا كان مؤمنا تمام

الإيمان بحق وكيله فيما وكله فيه ، وإلا كان في عمله تلبيس على القضاء ، وعرقلة للعدالة ، وسعى في نصرة الباطل .

ونحن نوافق صاحب هذا القول في القضايا المدنية والشرعية التي لا شبهة فيها ، والتي يلوح فيها حق الخصم واضحا مكشوفاً ، فعلى المحامي أن ينصح لموكله بالصلح ، ويبين له جلية الأمر ، ليحسم الخلاف ، ويعلمه الناس ثقة لا ريب في ذمته ، وإن كان الأمر موضع نظر ، وأن الحق فيها قد التبس بالباطل ، ولم يتضح له جانب منهما ، تقدم وأثبت بما يراه موصلاً ، غير أنه لا يصح له أن يسلك من الوسائل الموصلة ، إلا ما يعتقد كل الاعتقاد أنه حق يؤيده القانون ، ومن غير تلبيس ولا تفضيل .

أما للقضايا الجنائية فإن المحامي يجب عليه أن يدافع ، ولو أن المتهم جان ، لأن الواجب أحد أمرين ، إما نفي الجريمة إن لم تكن الأدلة عليها قائمة بيقين ، وفي هذه الحال يكون دفاعه عن برىء بمقتضى القانون .
إذاً المتهم برىء ما لم يقم الدليل القاطع على جريمته ، فلا شيء في الدفاع حينئذ .

وإما تصوير الحال التي وقعت فيها الجريمة استدراكاً للعطف وإثارة للرحمة ، وليس المحامي في هذه الحال إلا رسول المتهم يصور حاله ، وينطق بجنانه ، ويعرضه لمجلس القضاء . وإن نظرة عاجلة إلى المجرمين ترىنا أن كل مجرم منهم لا بد أن يحاط جريمته بأحوال نفسية شاذة تخفف من حدة الجنائية ، وتلطف من شدة وقعها ، اللهم إلا العتاة القساة الذين يتخذون الإجرام مرتزقا من غير اضطراب ، فالحمى يبين كل ما يصح أن يكون دفاعاً .
ولقد لاحظت القوانين ذلك ، فأوجب أن يكون لكل متهم في جنائية محام يدافع عنه ، فالنيابة قد تقدم الرجل إلى المحاكمة ، ويده مخضبة بالدماء ، ومديته تنطف دماً ، أو صدى الرصاصة التي ألهب بها رأس المقتول يدوى في الآذان ، ومع ذلك تندب له المحكمة من يدافع عنه ، إذ يجوز أن يكون مما أحاط بالجنائية ودفع إليها ، ما يخفف من شدة هذه الجريمة ، وما دامت النيابة تترافع ضده ، فليكن من المحامين من يدافع عنه .

ولذا نقول إنه في إعداد المرافعة إذا لم يوصله بحثه في القانون وحوادث القضية وأوراقها إلى ما يثبت الدعوى بيقين ، فليكتف بالرجحان ، فان لم يكن رجحان ولا شبهة ، فليرفض الدفاع في القضية المدنية والشرعية ، وليقدم في القضية الجنائية ، وعلى المحامي في هذه الحال أن يشعر بشعور المتهم ، ويحس بإحساسه ؛ ليستطيع أن يدافع عنه بحرارة ، ولينقل وجدانه إلى المحكمة .

قال بعض البلغاء في وصف محام قدير وسر مقدرته أنه يتعمق في درس الدعوى ، ويلج إلى قلب القضية ، فينظر بعين المتهم ، ويحس بأعصابه ، فيغضب غضبه ، ويصبح صياحه ، كأنه يطلب الرحمة لنفسه ، ويترجم عن بأس المسكين بيأسه ، يأخذ شبكة الاتهام ، ويلقيها على نفسه بافتخار ، ثم يقطعها تقطعا ، كأنه من مصارعى الرومان .

٢- وأما إعداد الردود على ماعساه يكون دليلا ؛ فيكون بأن يتخيل نفسه في موقف خصمه ، ثم ينظر في القضية بنظره ، و يجمع الأدلة التي تصلح له ، ثم يعود عليها بالهدم لبنة لبنة ، وبذلك يغشى مجلس القضاء ، ومعه كل الأسلحة ، فليقدر شهادات الشهود ، ثم يستعد للرد عليهم ، وليعرف أقوال الخصوم ، وليتمس من ثناياها ما يهدم مطالبهم ؛ وليحذر أن يكون السب مما يعده من الذخائر ، فانه سلاح ذو حدين ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه . ويظهر أن بعض الناس يتخذ من المحامي والخصومة ذريعة للنيل من كرامة خصمه ، فليحذر المحامي أن يطوع لهذا الصنف من الناس وأن يكون سيقا في يده ، ولا يصح أن يعبا برضاه أو سخطه ، فإنه إن جعل رضاه مقياسا لجودة المرافعة ، نزل بها من عليائها .

وقد جاء في كتاب الحماماه لأحمد فتحى زغلول «باشا» أن مونتسيكو أوصى المحامين من هذه الناحية قائلا :

أيها الحمامون ، إن فيكم غيرة على حقوق موكلتكم ، ونحن نمتدح ذلك منكم ، لكن غيرتكم تكون جريمة إذا أنستكم ما يجب عليكم نحو خصومكم ،

نعم أنا أعرف أن واجب الدفاع يقتضى عليكم بذكر سيئات خصومكم التى طوتها الأيام ، إلا أن فى ذلك ضررا لا يمتحنى ، ونحن لا نسمح لكم بذلك إلا إذا قامت الضرورة على أنكم كنتم إليه ملجئين .

خذوا عنا هذه الحكمة ، واذكروها على الدوام ، لا تقولوا الحق إذا لم يكن له من أثر غير الإضرار بفضلكم وكرامتكم ، فما أشد تعس اللسن إذا كان فى أكل لحم الغير ميتا ، ولعلنا لا نتألم من أمر ، ولا يكدر صفونا أكثر من تجاوز بعض الألسنة حد الكمال فى المقال .

إن الذى تضحك منه الناس لا يفرحنا ، ولكننا نبكى دائما على أولئك القاعسين الذين يشان شرفهم ، وتنهك حرماهم بقوارص المطاعن والكلام .

أبلىق أن يلحق الخزى ، ويركب العار كل من اقرب من رحاب هذا المجلس المقدسة ؟ يا للأسف ! هل يخشى البعض أن تظهر العدالة خالية من كل عيب ، بعيدة عن الرذائل والمساوىء وأى عمل يساء به الخصوم أكثر من انتحابهم وحرقتهم إذا خرجوا من الخصومة كاسبين ، وقد جعلت حدة القول مذاق للعدل مرأ ، ناشدتكم الذمة ، ما الذى نجيب به قوما يقولون لنا : أيها القضاة ، إننا أتينا للمثول بين أيديكم ، فكان حظنا أن رمينا بالنقائص وألبسنا جلابيب المخازى ، ولقد انكشفت لكم جراحنا ، فلم تصمدوها ، وجلستم لتنصفونا من إساءات أصابتنا بعيداً عنكم ، فنالنا من الإساءات أمامكم ما هو أعظم ، وأشد وقعا ، فلم تفوهوا ببنت شفة وأنتم الذين كنا نراكم فى مجلس قضائكم ملائكة الأرض ؛ فسكنم كأنكم أصنام من الخشب أو الحجارة لا تنطقون ، تقولون إنكم وليتم القضاء لتحفظوا علينا أوالنا ، وإن شرفنا أعز علينا من كل مال ، ولتحفظوا أرواحنا ، نعم وإن الشرف أعز على النفوس منها ، فإن لم تستطيعوا أن تردوا جماع خطيب أخذته حدته ، فدلونا على مجلس قضاء أعدل منكم ، وأحفظ لحقوقنا ، وما يدرينا أنكم لم تقتسموا تلك اللذة البربرية التى طلبها خصومنا ، ولم تفرحوا بما نالنا من اليأس ! وما تولانا من الأضرار ! وإن سكوتكم الذى نعهه ضعفا منكم هو فى الحقيقة لثم قد ارتكبتموه عمدا واختيارا .

أيها المحامون ، ليس لنا طاقة على احتمال مثل هذا التعب والتعنيف ، ولا نريد أن يقال إنكم كنتم في ترك الواجب عليكم أسرع منا في أدائه .

وكما لا يصبح أن يجعل الردود على الخصوم سباً وشتماً ، لما ذكره ذلك القاضي الحكيم ، كذلك لا يصبح أن يجعل الرد على شهادات الشهود بتجريح ذم الأخيار . فإن ذلك فوق أنه طعن في الدم بالباطل ، وتلبيس على للقضاء ، وعمل لا يليق بشرف المهنة ، ولا بأدب الخطابة ، هو منع لفضلاء القوم من أن يؤدوا الشهادة ، وحمل لهم على أن يكتموها ، وفي ذلك ضياع للحقوق ، وإهدار للدماء ، وعرقلة للعدالة في كل نواحيها .

وقد قال روس ، كما جاء في كتاب المحاماة .

ومن الأسف أن بعضهم عندما يعجز عن تنفيذ الشهادة وبيان سقوطها يرجع على الشاهد بما يحط من قدره ، ويسقط من اعتباره ، فيصليه نارا حامية ، وقودها التخيلات الوهمية ، والشبهات التي لا دليل عليها ، وينسون أنهم بذلك يلحقون الضرر برجل من الأخيار أدى واجبه ، ليعدموا رجلا من الأشرار خرج على القانون بجرمته ، وإنهم يمتنون والفصاحة والعقل باستعمالها في خدمة الإثيم ضد المستقيم ، حتى يتسنى لهم أن يقولوا لقد نجينا المحرم بقوة البيان وفصاحة المنطق وذلاقة اللسان ، لكن ذلك مجد لا يستقر زمنا طويلا في الأذهان .

٣- وأما ترتيب المرافعة : فيكون بأن يبدأ بمحصر وقائعها مسلسلة ، ثم يستنبط من الحوادث الأدلة التي يراها مؤدية لمطلوبه ، ويذكر الحجج القانونية التي يعتمد عليها في تقرير ما يقرر ، وليلاحظ عند ترتيب المرافعة الأمور الآتية :

١- أن يبدأ بأقوى الأدلة التي يتقدم بها عند ذكر الأدلة ، فإنه إن فعل ذلك سبق إلى ذهن القاضي عدالة مطلبه ، والفكرة الأولى عن شيء شديدة الثبات ، قارة في النفس أبلغ قرار ، وإزالتها من النفس تحتاج إلى جهود قوى ، وذهن ألمعي :

٢- أن يسهل على القاضى الاستنباط ، فيذكر له الحوادث فى صورة
ناطقة بما يريد ؛ ليسبقه القاضى إلى إدراك ما يريد أن يستنبط حتى إذا ذكر
له ما يستنبطه ، تمكن فى نفس القاضى فضل تمكن ، ويحىء فى الصورة
موافقا لتفكير القاضى ، وقد استثاره هو فى نفسه بحسن تصويره ، فيجتذب
بهذا ميله إليه .

٣- أن يكون على إلمام تام بنفسية القاضى وأسلوب تفكيره ، وما
يستويه من الآراء وما يستثيره من الأفكار والمعانى ؛ ليستطيع أن يعد
فى مرافحته ما يشبع رغبته الفكرية ، وليجعل كلامه صورة لما فى ثنايا
نفسه ، فيسكن فى قراراتها ، إذ يجد ما يلائمه ، ويعيش مع ما يوائمه وليستطيع
أن يعيش فى الجو الذى يعيش فيه القاضى ؛ فيكون بينهما فهم متحد فى كل
ما يقدم من أدلة واستنباطات .

طرق الإدلاء بالمرافعة :

إلقاء المرافعة هو روحها ، وهو عمادها ، وإليه يعود جزء كبير من
نجاحها ؛ إذ بغير حسن الإلقاء وجودة الإدلاء لا يكون التحضير قيمة ؛
ولا للإعداد أثر ، ومثل المحامى الذى يجيد الإعداد ، ولا يجيد الإدلاء كمثل
المعلم الذى يجيد تحضير الدروس ، ولا يحسن إلقاءها .

وليكون الإلقاء جيدا لابد من مراعاة أمور حق الرعاية ، منها :

(أ) ألا يلقى مذكرات كتبها ودونها ، بل لابد أن يلقى مشافهة لى
يستطيع أن يشرف بنظراته ؛ فيدرك كل ما يحيط بقوله ، من إقبال أو
أو إعراض ، من تنبه أو انصراف ، ولكى يستطيع أن يشرك فى التصوير
حركاته ونظراته ، والجمود على ألفاظ مكتوبة قد يحبس الذهن عن التصرف
التام فى فنون القول على حسب المقام ، ولهذا يقول الخبراء : إن أقل المرافعات
تأثيرا ما كان مكتوبا ؛ لأنها لا يستفيد فيها المحامى من الجو الذى يسود مجلس
القضاء ، ولا يتخذ منه قوة له .

(ب) وأن يلاحظ القاضى فى إقباله أو إعراضه ؛ وفى نظراته وإشاراته ؛

لكى يسيرا فى طريق واحد ، وفى متجه واحد ، فإن لاحظ منه إقبالا فى نقطة أشبع فيها القول ، وإن لاحظ منه إعراضا فى ناحية لا يصارحه بالخالفه فى وجهة النظر لأن المصارحة بالخالفه مخاصمة ، والمخاصمة تباعد ما بين المتناقشين ، وتوسع الهوة ما بين المتخاطبين ، وما وقف أمامه ليخاصمه ، بل ليعاونه فى إظهار الحق ، وليستدنيه إلى وجهة نظره . ولا يترك الأمر الذى أعرض عنه مرضاة له ، فقد يكون فى ذلك ضياع للحق ، وإخلال بواجب الدفاع ، بل يعتمد إلى الرفق والأناة ، ويترك مؤقتا التصريح فيما اعترضه فيه ؛ ثم يأخذ فى شرح أمور مسلم بها من الجميع تثبت صحة ما اعترم قوله ؛ ثم يهجم به فلا يجد إعراضا ، وعليه ألا يظهر منه فى أثناء ذلك ما يدل على أنه فهم إعراض القاضى عندما أعرض ، لأن القاضى إذا فهم أن الخصم علم إعراضه ، ثم ميله إلى التسليم ، وربما قاوم نزعة التسليم ؛ لأنه بشرهمه أن ينصر فكرته ، إن ظهرت للناس .

(ج) أن يلاحظ وقت القاضى ، فلا يطنب إلا إذا وجد متسعا من الوقت ، ولم يغن الإيجاز عن الإطناب ، لأن الإطناب حيث أغنى الإيجاز تطويل مل ، وإسراف فى القول من غير حاجة داعية إليه ، والإطناب حيث يضيق صدر القاضى بالسماع ، وحيث لا يتسع الوقت له تكليف بما لا يطاق ، فليوازن المحامى بين وقت القاضى ، ومصالحة القضية ، والقول اللازم ، وبذلك ينال السداد وحسن الاستماع والانتباه والوصول إلى الغاية المطلوبة ، والصالاة المنشودة .

(د) إعطاء المرافعة حياة وقوة بتغيير النبرات ، يرفع الصوت حيث يلزم الرفع ، ويخفض فى موضع الخفض ، ويبدى تأثيره بالحق الذى كان مضيقا ، أو بالعطف على الجانبى إن أراد أن يستدر عطف القضاة عليه ويسرع أو يبطئ فى القول ، حسب مقتضيات الأحوال ؛ فيسرع فى مواقف الحماسة ، ويتأنى فى مواقف الروية ، وكأنه فى هذه الحال يسير على قمة جبل تحته الهاوية ، فيقدر للرجل قبل الخطو موضعها .

وإعطاء المرافعة حياة وقوة يخلق في مجلس القضاء جوا فكريا عاطفيا يساعد على توجيه القضاء إلى ما يريد .

وإن المرافعة القوية بروح ملقيا ، وحسن تصرفه ، وقوة دلائله وظهور استنباطه تضع في رعوس القضاة صورا فكرية صادقة النقل لحتى من يدافع عنه ، إن كان الحق هو العباد .

لغة المرافعة :

ألفاظ الخطيب وأساليبه ، يجب أن تكون ملائمة كل الملاءمة للذوق العام الذى يسيطر على البيئة التى يخاطب فيها ، ولعرف الجماعة التى يخاطب أحد أشخاصها ، وقد بينا ذلك فيما سلف من القول ، وهنا نقول إن لغة المرافعة يجب أن تكون ملائمة للذوق اللغوى الذى يسود أهل القانون ، وأساليب مخاطبتهم ، والألفاظ الشائعة بينهم : ولغتهم فى الحقيقة قريبة من الفصحى ، وأعلى من العامية ، وهم فى ذلك ككل المثقفين بثقافة أدبية تهذيبية اجتماعية فى مصر ؛ فعلى المحامى إذن أن يتحرى فى مرافعاته أن تكون بلغة مرسلة لا تكلف فيها ولا تحسن ولا سجع ، ولما يشبه السجع ، تسودها السهولة بحيث تكون قريبة من لغة أولئك الخاصة المثقفين ، لا تشادق فيها ولا تفهق ، ولا نزول إلى العامية ، ونحن لا نبيح له العامية إلا فى حالين :

إحدهما : إذا أراد أن يأتى بملحة تفكهة للسامعين .

ثانيتهما : إذا لم يستطع تصوير فكرته تماما إلا بالعامية ، أو أراد أن ينقل عبارة شاهد ، ليناقشها ، فإن العامية تباح فى هذه الحال اضطرارا .

وقد يلجأ المحامى إلى العبارات الفخمة القوية الرنانة فى بعض القضايا الجنائية ، ليزر إحساس السامعين والقضاة ، كما إذا أراد أن يصور حماسة المتهم فى الدفاع عن نفسه أو عرضه مثلا ، فإنه يتكلم بعبارات قوية

تقرع الحس ، ليكون في ذلك ناقلا لقوة حماسة موكله ، واندفاعه فيما يفعل .

ويجب على المحامى في دفاعه أن يغير أساليب القول ويصرفها ، فرة يقول مستفهما ، وأخرى متعجبا ، وثالثة قصصيا ، ورابعة مستنكرا وهكذا ينوع عباراته ؛ ليكتسب كلامه جدوة .

وعليه أن يسوق كلامه في صورة مشوقة ، يبتدىء بعبارات مثيرة لاهتمام السامعين ؛ موعزة لأفكارهم ، حتى إذا تمت تهيئة الأذهان دفع إليهم بكل ما يريد ، وهكذا في كل أجزاء دفاعه ، حتى يتم له النصر .
يا الله المستعان .

خطب الوعظ الديني

تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس إليه

١ - الوعظ الديني هو الأمر بالمعروف في الدين ، والنهي عن المنكر فيه ، وقد أجمعت عليه الشرائع ، واتفقت على وجوبه الأديان ، فعليه قد قامت الدعوة إليها ، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الروحي ؛ ومن ضوئه اقتبست نورانياتها ، وقد قال في وصفه الغزالي :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولوطوى بساطه وأهمل علمه وعمله ، لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد .

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر - كثيرة في الشريعة الإسلامية ؛ حتى لقد عدت بحق شريعة التواصي بالحق ، والتناهي عن المنكر ؛ فقد قال تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » . وقال تعالى في سورة آل عمران : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وقال تعالت كلماته : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، ونهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

وقد روى أن النبي ﷺ قال : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله ، إلا كثفثة في بحر لجى ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر - إلا كثفثة في بحر لجى » .

وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

٢ — والأخبار متضافرة بما كان عليه سلف هذه الأمة من القيام بذلك الحق ؛ لا يهابون في ذلك سلطان ذي سلطان ، ولا تأخذهم رافة في دين الله ، ولا هواده في إقامة حقه ، والأخذ بناصر دينه ، كل شيء هين في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وكل عذاب سهل مساغ إذا كان من كلمة حق قالوها ؛ لا يمنعهم من أن يصدموها بها أقوى الحكام عتوا ، وأشدهم قسوة ؛ وأبعدهم في الأذى منالا ؛ وما أخبار وعاظ التابعين مع الحجاج وأشباهه من حكام بني أمية بعيدة عن الأذهان ؛ كانوا لا يتخذون فيما يفعلون تقية ، ولا يرضون في دينهم بالدنية .

يروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق ، وفيهم الحسن البصري والشعبي ، وأخذ يحادثهم فذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال منه ، وجاراه من معه تقربا له ، وأما من شره ، إلا الحسن البصري ، فصمت على مضض وعض على إبهامه ؛ إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال يا أبا سعيد ، مالي أراك ساكتاً ! قال ما عسيت أن أقول ؟ قال أخبرني عن رأيك في أبي تراب . قال سمعت الله جل ذكره يقول : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ؛ فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان ؛ فأقول : ابن عم النبي ﷺ ، وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات ؛ سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ؛ ولا يحول بينه وبينها . وأقول إن كانت لعلى هناة فالله حسبه . والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا فبسر وجه الحجاج ، وتغيره ، وقام عن السرير مغضبا ، فدخل بيتا خلفه ، وخرج الجمع ، فقال عامر الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، يقول : الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه ، وتقاربه في رأيه ؛ ويحك يا عامر : هلا اتقيت إن سئلت ، فصدقت ، أو سكت ؛ فسلمت .

قال الشعبي يا أبا سعيد : قد قلتها ، وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التبعة .

وبعث الحجاج إلى الحسن . فلما دخل عليه ، قال : أنت الذى تقول : قاتلهم الله ؛ قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ! قال : نعم . قال : ما حملك على هذا ؟ قال ما أخذه الله على العلماء من الموائق ليبينه للناس ولا يكتمونونه . قال يا حسن ، أمسك عليك لسانك ، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره ؛ فأفرق بين رأسك وجسدك .

هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا يكون الأخذ بتلك الشريعة المستقيمة ؛ والفريضة المحكمة ، فريضة الأمر بالمعرف ، والنهى عن المنكر ، تلك الفريضة التى لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح ، لارتبط حاضر الأمة بماضيها ، ولاتصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس النورانية .

٣ — وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثلاث مراتب :

فالمرتبة الأولى — دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير ؛ ليشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين ، فقال تعالى فى وصفهم : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر » .

والمرتبة الثانية — دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ببيان طرق الخير ، وتطبيق ذلك على أحوال الأمم ، وضرب الأمثال ، ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة ، وهم الذين قال تعالى فيهم . « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

والمرتبة الثالثة - تكون بين آحاد الأمة علماء وجهلاء بالتواصى على الحق ، والتناهى عن المنكر ، كل بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين مسلماً يتردى فى موبقة هو يعلمها ، ولو لم يكن من الخاصة تصدى لنصحه وإشاده .
وبيان ما أمره به الدين ، وما ينهاه عنه فى هذا المقام .

٤- وقبل أن نترك هذا نشير إلى أمر جدير بالنظر ، فقد اعترض بعض الذين ضعفت عزائمهم ، وأرادوا أن يسكنوا ويطمثوا ، فلا يقوموا بذلك التكليف العظيم - بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . ولا نجيب هؤلاء بغير المأثور عن صاحب السنة الشريفة الذى بين للناس ما نزل إليهم :

فقد روى أن أبا ثعلبة الخشنى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى : « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فقال : يا أبا ثعلبة ، مر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ؛ فعليك بنفسك ؛ ودع عنك العوام ؛ إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم ، للمتمسك فيها بمثل أنتم عليه أجر خمسين منكم ، قيل : بل منهم يا رسول الله . قال : لا بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، ولا يجدون عليه أعواناً .

٥- من هذه الكلمات الموجزة علمت مقدار عناية الدين الإسلامى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا غرابة فى أن يعنى به ذلك الدين السمح ، فإنه بناء الأمم ، وحفاظ الجماعات ، يمنعها من التردى فى مهاوى الضلال والفساد ، وما رأى العام الذى تعترف له الأمم بالسلطان وتجعله مقياس الرقى فيها ، ودليل التقدم أو علامة التأخر ، إلا وليد الإرشادات ، وثمره التواصى بالخير ؛ والتناهى عن الشر ، وإن شعور كل امرئ بأن عليه من الجماعة من له كالقريب العتيد ، يحصى عليه سيئاته ويعد له حسناته ، يدفعه إلى الكمال ، ويسير به فى طريق الرقى •

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له هذه القوة ، ولو كان

معتاده العقل ، وما يراه الناس حسنا ، فكيف يكون الشأن لو كان ذلك تحت سلطان الدين ، وإجابة لندائه ، ودعوة إليه ؟

٦ - إن الجماعات لاتصلح إلا بالدين ، ولا يقوم لها شأن بغير هدايته ، ولا تستقر إلا بقوته ؛ لأن الأديان تهذب العالم ، والجاهل ، وذا العقل القوى ، وصاحب العقل الضعيف ، فهدايتها عامة شاملة لا تخص فريقاً دون فريق ، بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين ، وتستولى على مشاعرها آياته .

قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه الآراء والمعتقدات - وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية . فلننا نراه ذا تأثير في الفنون ، والآداب والسياسة ... ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة ... ولاشك في أن سيطرة التفكير الديني على البشر ستمتد زمناً طويلاً ه .

نعم ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين ، لأنه سلوان الجماعات ، وعزاء البائسين وعزة المغلوبين .

إن الدين هو الذي يربي الوجدان الفاضل ، ويهذب الضمير ؛ ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة ، فيرشده يمس مواطن الإحساس في النفوس ويؤثر فيها بأبلغ تأثير ، ويصل إلى الأعماق في الهداية والصلاح .

٧ - والدين الإسلامي في عموميه في الأحكام يشبه قانون الأخلاق من حيث إنه يحكم على كل أفعال الإنسان الإرادية بالخير ، أو الشر ؛ فكذلك يحكم الإسلام على كل الأفعال بالقبول عند الله أوعدم القبول ، وكما أن الاخلاق تنوط الأحكام بالأغراض والمقاصد ، كذلك الدين ينوطها بالنيات ، ففي الحديث الصحيح « إنما الأعمال بالنيات » وفي الأثر « البرما حاك في النفس ، فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك »

ولما كان للإسلام هذا العموم في الأحكام كان صالحاً لإرشاد الناس في كل أمورهم ، وكان للوعاظ الإسلامي من النفع بمقدار ما يستطيع أن يقدمه من إصلاح في بناء الحياة الاجتماعية عند المسلمين ، ولقد لاحظت الحكومة ذلك ؛ فطلبت إلى الوعاظ في المساجد أن يخطبوا في بعض أمور

اقتصادية أو زراعية أو صحية ، ومن أمثلة ذلك أن وزارة الأوقاف أمرت بخطباء المساجد أن يخطبوا في الوقاية من السل ، وأرسلت إليهم نص الخطبة ، ومما جاء فيها : عباد الله ، كم لله علينا من نعمة ، وكم فيها شرع من حكمة ، فعلينا أن نشكر الله نعمته ، ونعمل ما نرجوه رحمة ، لأن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ، خلق الله الدواء ، وخلق معه الدواء ، وقدر به الشفاء فمن يرجو من الله شفاء علته ، فليتبع ما أرشد إليه في كتابه وليعمل بنصائح أهل الذكر ، فقد قال تعالى في كتابه المكنون : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وإن من أشد الأمراض فتكا بالإنسان مرض السل القتال ؛ وقانا الله شره ، وخفف عن المصابين ضرره . وإن على المصاب واجبين : واجبا لنفسه ، وواجبا لغيره ؛ فإذا قام بواجبه نحو نفسه ، وواجبه نحو أبناء جنسه ، فرج الله كربته ، وأذهب علته . . . يجب على المريض بهذا الداء أن يمتنع عن بلع بلغمه ؛ فإن في ذلك إضرارا بباطنه ، وخطرا على باقي أعضاء جسمه ، . ويجب عليه ألا يشرب لبنا قبل غليه ، فربما كان فيه من جراثيم المرض ما يزيد علته ، ويضعف علاجه . ويجب عليه أن يتخذ لنومه غرفة خاصة به ؛ فإن هذا أرجى لشفائه ، وأبعد عن أذى غيره ، ويجب أن تكون الغرفة الخاصة به تتخللها الشمس والهواء ؛ فإن في حرارة الشمس وتجدد الهواء عونا على قتل جراثيم المرض ، وتطهير الغرفة من آفاته . ويجب أن تتعهد الغرفة بالتنظيف والتطهير ؛ فإن فيها وقاية من المضاعفات ، وتخفيفا لوبلات الآلام .

هذه واجبات المريض نحو نفسه ، فعليه أن يقوم بها ، ولا يهمل واحدة منها ؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وأمرنا أن نقى أنفسنا من الأمراض ، وندفع شرورها ونتلافى أضرارها ، فمن أهمل في واجبه فلنما إثمه على نفسه .

وأما واجب المريض نحو الناس فالأعرضهم لأذاه ، وألا يكون سببا في إصابتهم بمثل ما أصيب به ، فإن المسلم من سلم الناس من لسانه (م ١٣ - الخطابية)

ويده فالله الله في صحتكم ؛ فلا تهملوها ، وفي صحة الناس فاحفظوها ،
وفي نصائح الأطباء الصادقين فنفذوها ، وفي كل حسنة فافعلوها ، وفي كل
سيئة فاتركوها ...

روى مسلم في صحيحة عن رسول الله ﷺ قال : « لكل داء دواء فإذا
أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل » . وفي مسند أحمد عن أسامة بن شريك
قال كنت عند النبي ﷺ ، وجاءت الأعراب فقالوا : أنتداوى يا رسول الله
فقال : نعم يا عباد الله ، تتداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا ووضع له شفاء
غير داء واحد ، فقالوا : ما هو يا رسول الله ؟ قال : الهرم .

ألا ترى أن منبشئ هذه الخطبة بين أن التداوى والوقاية من السل خيران
مقبولان مطلوبان في الشرع الإسلامى ؛ وبني على ذلك حث السامعين على
العناية بهذين الأمرين ، وبين بعض طرق الوقاية وضرورة الأخذ بأهل الخبرة
من الأطباء الثقات . وإذا كان الإسلام له ذلك الشأن في الإصلاح ، فالوعظ
الدينى الذى يدعو إلى الفلاح تحت ظلاله ينال الفوز والسبق ، والجماعة التى
تأخذ بهديه تنال السعادة والسلام .

ولقد سبقتنا أمة قامت على أساس هديه ، ومدنية شمخت على دعائم وعظه ،
فقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم يتخذون من القرآن الكريم
والسنة النبوية الشريفة وما يدعوان إليه وسائل إلى الإصلاح ؛ فكونوا دولة
أخذت ملك كسرى ، وهزت عرش قيصر .

الوعاظ والمرشدون :

ذكرنا المراتب التى بينها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وقلنا إن
المرتبتين الأولين (وهما دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، وإرشاد عامة
المسلمين) لا يقوم بهما إلا العالمون بأسرار الشريعة ، الفاهمون لمراميها ،
المركون لغاياتها ، وهؤلاء هم الوعاظ المرشدون المشار إليهم فى قوله تعالى :
« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن
المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وعملهم شريف عظيم ، لأن الذى يقوم به
يبين شرع الله للناس ، ويصلح به دنياهم وآخرتهم ؛ ويربى وجدانهم ، ويهذب

نفوسهم ، ويرشدهم إلى طريق الفوز ، والخروج من آلام هذه الحياة ،
ولشرف ذلك العمل أشار الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير الآية السابقة
إلى أن الأمة تختار مرشديها ، وتراقبهم ، فقال رحمه الله : والمخاطب بهذا
جماعة المؤمنين كافة ، فهم المكلفون أن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة ،
فهنا فريضتان : إحداها على جميع المسلمين ، والثانية على الأمة التي
يختارونها للدعوة ... والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة
لهذا العمل ، هو أن يكون لكل شخص منهم إرادة وعمل في إيجادها ،
وإسعادها ، ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة ، حتى إذا رأوا منها خطأ ،
أو انحرافا ، أرجعوها إلى الصواب . وقد كان المسلمون في الصدر الأول ،
لا سيما في زمن أبي بكر وعمر على هذا المنهج من المراقبة للقاتنين بالأعمال العامة ،
حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب (وهو أمير المؤمنين)
وبناه فيما يرى أنه الصواب ، ولا يدع فأنخلفاء على نزاهتهم وفضلهم ليسوا
بمعصومين . وقد صرح عمر بن الخطاب بخطئه ، ورجع عن رأيه مرارا .

والصفات التي يجب توافرها في المرشدين الداعين إلى دين الله كثيرة ،
إذ هي صفات الكاملين يفيضون بفضلهم على من هم دونهم ، والكمال
البشرى بعيد المدى ، مترامى الغايات ، كل يسعى منه إلى شأو ، ويصبوب
سهمه نحو هدف من غير أن يبلغ الغاية ، ويصل إلى النهاية .

ولنذكر لك بعض المشهور مما يجب على الواعظ التحلى به :

١ - يجب أن يكون الواعظ فيه صفات الخطيب ، وقد ذكرناها
موضحة فارجع إليها :

٢ - ويجب أن يكون على حظ عظيم من الشجاعة المعنوية ، يصرح
برأيه ، وبالحق الذي يراه في الدين واجب الرعاية ، لا يهمل في ذلك إغضاب
أو إرضاء أحد من البشر ، فما وقف نفسه للإغضاب أو الإرضاء بل وقف

نفسه للإصلاح والهداية ، ولا يهمله الأذى من المخلوق ، مادام يعمل لإرضاء الخالق . قال الغزالي في الإحياء : أوصى بعض الساف بنيه ، فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فأذن من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر ؛ ولذا قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف حاكياً عن لقمان : « يا بني ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك » .

وليس معنى ذلك أن يجافى الواعظ الناس ويخاشئهم ، فإن الموعدة الحسنة والحكمة هما طريق الدعاية الإسلامية الأولى ، فقد قال تبارك وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » فليأخذهم بالرفق في القول ، ولكن لا يسايرهم فيما لا يرضاه الدين ، بل يصدع بالحق ، ولا يرجو لغيره وقاراً ، فإن لان في سبيله ، وإذا اشتد فحيث دعا داعيه إلى الشدة ، يلين لبنال حق الله ، ويشد لينصر كلمة الله .

٣ - والورع والتدين الظاهر والعفة عما في يد الناس صفات يجب أن يتحلى الواعظ بها ؛ لأنه قدوة ، ويتخذ الناس منه أسوة ، ولأن إخلاص الخطيب من أسباب التأثير ، كما أسلفنا . والناس إن رأوا في الواعظ رجلاً يتخلى عمله عن قوله ، وأنه يقول ما لا يفعل ، ظنوا فيه الظنون ، ولم يعتقدوا أن قوله صادر عن قلبه ، فلا يكون له تأثير ، ويذهب كلامه هباء منثوراً . فمن تصدى للوعظ والإرشاد يجب أن يتسرل بسر بال التقوى ، وعليه أن يجتهد في ألا يكون في ظاهره ما يخالف الدين بأى نوع من المخالفة ، فإن منصبه خطير ، وعمله جليل ، والعيون إليه شاخصة ، ولأعماله كاشفة ، فإن كان منه معصية فليعمل على سترها ماسترها الله ، وليعلم أن من المجاهرة أن يعمل عملاً ستره الله عليه فيقول عملت كيت وكيت ، يكشف ستر الله ، وقد قال الغزالي في إحدى رسائله : أما الوعظ فلست له أهلاً ، لأن الوعظ ذكاة نصاب الاتعاض ، ومن لانصاب له كيف يخرج الزكاة ؛ وفاقد النور

كيف يستنير به غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام : عظ نفسك ، فإن اتعظت . فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني ، وقال نبينا ﷺ تركت فيكم واعظين : ناطق ، صامت فالناطق هو القرآن الكريم ، والصامت هو الموت ، وفيهما كفاية لكل متعظ ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره ، ولقد وعظت بهما نفسي فصدمت وقبلت قولاً وعقلاً ، وأبت وتمردت تحقيقاً وفعلًا... ومن هذا ترى أنه يشترط لجواز الوعظ الاعتاظ ، ولكن نراه في الإحياء يوجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على المرتكبين ، ويقم على ذلك الدلائل القاطعة . ومنها ما رواه عن سعيد بن جبير وهو قوله : إن لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر به أحد ، والتوفيق بين هذين النصين أن نقول إنه أراد بالأول من قام للدعاية ، ونصب نفسه للوعظ ، وأراد بالثاني الأمر بالمعروف والنهي الواجب على الكافة ، لا على الخاصة ، وهو المرتبة الثالثة في المراتب التي ذكرها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأيضاً فنحن ما اشترطنا في الواعظ ألا تكون منه معاص قطع ، بل اشترطنا التدين الصادق ، وألا يكون في ظاهره ما يناهز الدين من نفاق ظاهر ، أو كذب صراح ، أو عمل بنقيض يدعو إليه ، أو مجاهرة ببعض المعاصي بل يكون متديناً لا يصر على معصية ، وفيه سمات الصالحين ، وصفاء المتقين ، وصدق المؤمنين .

٤ - العلم التام بما كل ما يساعده في مهمته ، ويعين في الوصول إلى غايته ، ونيل بغيته . وقد أحصى الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى : «ولتكن منكم أمة... الآية» المعارف التي يجب على الواعظ الإلمام بها ، فكان منها :

(١) العلم بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وسلف الأمة ، والعلم بالقدر الكافي من الأحكام .

(ب) العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم ، واستعداداتهم

وطبائع بلادهم ، وأخلاقهم ، أو ما يعبر عنه في عرف العصر بحالهم الاجتماعية ، وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب العرب ، ومعنى هذا أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها ، وتاريخ كل قبيلة ، وسابق أيامها وأخلاقها ، كالشجاعة ، والجن والأمانة والحياة ، ومكانها من الضعف والقوة ، والغنى والفقر وما كان إقدامه مع لينة وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الإفرنج ، على حرب الردة ، إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة ، فلم يهب ولم يخف ، وقد خاف عمر ، وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين .

(ح) العلم بمناشيء الأهم والتاريخ :

ليعرف الفساد في العقائد ، والأخلاق ، والعادات ؛ فيبني الدعوة على أصل صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ، ويبلغ الكلام غايته من التأثير ؛ وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال ، ولهذا كان القرآن الكريم مملوفاً بعبء التاريخ (١) .

(د) علم النفس :

ليعرف الواعظ خواص العقل البشري ، ومناحي تفكيره ، والغرائز التي أودعتها النفس الإنسانية ، والميول التي كنت في أطوائها ، وبهذه المعرفة يستطيع أن يثير الأهواء والمنازع إلى ما يدعو إليه ، ويتبعث الميول من مراقدها ، ويوجهها إلى الغاية التي يريد بها ، والمقصد الأسمى الذي يبتغيه ، وفيما ذكرنا في مبحث « إثارة الأهواء والميول » ما يعطيك صورة واضحة لحاجة الواعظ إلى الإلمام بالعلوم النفسية . وقد قال الأستاذ الإمام في درس التفسير : لا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شيء من هذا العلم ، إذ لم يكونوا يدرسونه في الكتب ، ويتلقونه عن المعلمين ،

(١) من تفسير الأستاذ الشيخ رشيد رضا المشتغل على ما قاله الأستاذ الإمام في دروس التفسير فقلناه بإيجاز وتصرف قليل .

فإنكم إذا قرأتم التاريخ ، وعرفتم كيف كانوا يتجادلون ، أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه .

(هـ) علم الأخلاق :

وهو العلم الذى يبحث عن الفضائل ، والمثل الأعلى فى السلوك ، فهو يعطى صورة صحيحة للفضائل وما يفيد الناس ، وما لا يفيد ، وصلة الفضيلة بالعرف ، وهو فى الجملة يعين المتدين على فهم شىء كثير من أسرار الدين ، وما جاء فيه من واجبات وتكاليف ، فالعلم به يعرف الدارس كثيراً من حكم الشرع الإسلامى ، فهو دراسات عقلية ، يجد فيها المتبصر تعليلاً صحيحاً لكثير من مبادئ ذلك الدين الحكيم ، والواعظ فى حاجة إلى مثل هذه الدراسات ، ليقرب الشريعة من معروف الناس ومألوفهم ومعقولهم ، وما هو حسن فى نظر المفكرين .

(و) علم الاجتماع :

هو علم الجماعات ، يعطيك صورة لتكوينها وتفكيرها وطرق التأثير فيها ، ولا شك أن الواعظ يتصدى لقيادة جماعة إلى فكرة يدعو إليها ، فلا بد أن يكون عالماً بنفسية الجماعات ، وسلطان العادات ، وكيف يتغلب عليها ، ويمزق أغشية الجمود ، إن كانت الجماعة جامدة على باطل ، وكيف ينهه من حديثها ، ويكفكف من غربها ، إن كانت مندفعة منهورة وراء غاية باطلة .

وقد وضحنا فى صدر هذا الكتاب حاجة الخطابة إلى علم النفس والاجتماع والاتصال الوثيق بينهما ، والوعظ شعبة من شعب الخطابة ، بل هو أحوجها إلى هذين العلمين .

(ز) العلم بلغات الأمم التى يعظها ويرشدها ، وذلك بدهى ليستطيع مخاطبتها بما يصلحها ، فإنه لا يتيسر له ذلك بغير لغتها .

وقد ورد في صحيح البخارى أن النبي ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل مخاطبة اليهود الذين كانوا مجاورين له .

هذه العلوم كلها ضرورية للواعظ ، ويجب أن نقول فوق ذلك إنه لا بد أن يعنى عناية خاصة بدراسة الكون وما فيه من آيات دالة على قوة الخالق وعظيم قدرته ، وجليب تكوينه ، وحسن تدبيره .

وقد دعانا القرآن الكريم أن ننظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى أنفسنا ، وفى الآفاق ، وجعل ذلك من طرق الوصول إلى إدراك صفاته عز وجل ، فعلى الواعظ أن يسلك ماسلك القرآن الكريم ، فيوجه أنظار الناس إلى الكون وما فيه من آيات تدل على الوحدانية ، وسلطان الله القاهر . ولا يستطيع أن يوجه الناس ذلك التوجيه إذا لم يكن على علم ببعض ما فى الكون من أسرار وجلال .

(ح) الحلم ، وسفة الصدر ، والتواضع ، والصبر على الأذى :

فإن الجماعات التى استشرى فيها الفساد كالمريض ، والواعظ لها كالطبيب ، وكما أن المريض قد يدفعه جهله أو ألمه أو سوء تصرفه إلى أن ينال الطبيب ببعض سوء ، كذلك الجماعات التى أنهكها الشر ، قد يدفعها تغلغلها فى أحشائها ، وتمكنه من كيائها إلى أن تنال طبيب الأرواح ببعض الأذى ، وتقدم إليه ببعض سوء ، فعلى الواعظ أن يلاحظ هذا . وإذا كانت القلوب عنه معرضة ، والنفوس جاحمة ، والأهواء متحركة ، وناله من حدة سوء بعض الأذى — فليعلم أن المهمة لديه شاقة ، ويستعد لمجهود عظيم يبذله ، وليداوكلوم النفوس بالهدوء وسعة الصدر والصبر ولين الجانب وخفض الجناح ؛ فإن تلك الصفات رقية النفوس الشرسة ، وبلسم الجراح الناعرة ؛ وليعلم أنه ما وقف ليخاصمهم فيخصمهم ؛ ولكن ليداوى فسادهم ، فليؤلف القلوب والنفوس الشاردة بتلك الصفات ، وقد قال تعالى فى وصف النبي ﷺ : « ولو كنت قفا غليظ القلب لانفضوا من حولك » فالرفق واللين والصفح قوام الدعوة لله ، والإرشاد إلى صالح الأعمال ، ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالعفو بمجوار أمره بالأمر بالمعروف ، فقال تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

وعِظَ المأمون واعظ ، وعنف له في القول ؛ فقال له : يا رجل أرفق ؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره بالرفق ، فقال تعالى : « فقولوا له قولاً ليلاً ؛ لعله يتذكر أو يخشى » وروى أبو أمامة أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ، أتأذن لي في الزنى ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي ﷺ قربه ، ادن مني ؛ فدنا حتى جلس بين يديه ﷺ فقال النبي ﷺ : أتجبه لأملك ؟ قال : لا ، جعلني الله فداك . قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتجبه لإبتك ؟ قال : لا ، جعلني الله فداك ؟ قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم . قال ﷺ أتجبه لأختك ؟ (وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والحالة ؛ وهو يقول : لا ، جعلني الله فداك وهو صلى الله عليه وسلم يقول : كذلك الناس لا يحبونه) ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره ، وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه .

انظر إلى ذلك الهدى النبوي الحكيم ؛ وإلى تلك الموعظة الحسنة تصيب شغاف القلوب فتسيرها بسيرها ، وتهديها بهديها ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

أقسام الوعظ :

إن خطب الوعظ الديني تتشعب إلى شعب ، وليكون المتصدى للوعظ على بينة من أمر العمل الذي تصدى له ؛ ولينال النجاح فيه - يجب أن نذكر تلك الشعب ، ونبين طرق النجاح في كل شعبة ، فنقول : إن شعب الخطابة الوعظية أربع : خطب المجادلة في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه ، وخطب التعليم الديني للعامة ، وخطب تثبيت الإيمان في النفوس ، وخطب إصلاح العيوب ؛ والنهي عن المنكرات .

(١) - خطب الدعوة إلى الإسلام أو الدفاع عنه :

لا يتصدى لهذا النوع من الوعظ إلا ذو العقل الأريب ، الخبير بشئون الجماعات وأحوال الأمم ، الملم إماماً تاماً بالملل والنحل والأديان القديمة ،

ليستطيع الموازنة بين صحيح العقائد وسقيمها ، وحققها وباطلها ؛ فإذا دعا أوجادل كان على بينة من أمره .

ويجب أن يكون فوق ذلك مرنا على الجدل ، قوى الحجة ، ناهض الدليل ، لاتعروه حبة فكرية ، ولا يأخذ استهواء الخصوم ومغرياتهم ، ويكون ممن يحسن إصابة المقاتل ، وتحرى مواضع الضعف في خصمه ، يأتيه منها فيصيب الحز ، وفصل الخطاب .

وعند دعاية قوم إلى الإسلام يبين لهم من مبادئه ما يكون أحب لقلوبهم ؛ وأدنى لمألوفهم ، وأقرب إلى ما تفره عاداتهم ، وما هو عندهم في مرتبة التقديس ؛ فإنه إن فعل ذلك ربط الإسلام بجميل أعمالهم ، فيتجهون إليه طالبين ، ويبحثون عنه متعرفين ، والإسلام غنى بالمبادئ التي تألفها الجماعات ونحبها ؛ إذ هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها ، ففيه مبادئ الحرية على أكل ما تطلبه الجماعات الصالحة ، وفيه مبادئ الشورى ، وفيه مبادئ المساواة بشكل لم تسبق به شريعة ، ولم تطمح الجماعات الإنسانية إلى أكمل منه ، وفيه مبادئ التعاون بين الآحاد والطوائف والأمم ، وفيه مبادئ السلام ، وفيه مبادئ الرحمة والعطف الإنساني ، وكل جماعة ترضى ذلك وتألفه فليقبس الداعي إلى الإسلام قبسة من ذلك النور يتخذ منها مصباح دعوته ، ليستضيء به في دمجور الضلال .

وإذا آنس الداعي ممن يدعوهم إلها ورغبة في التعرف بعد ذلك ، هجم عليهم بحقائق الاسلام كما بينها النبي ﷺ ، وعرفهم أسرارها وحكمها وصلاحها ، وتاريخ الذين أقاموها ؛ وكيف كانوا أعلام الأنام ، وهداتهم إلى صلاح بشرى قويم .

وإذا اعترض معترض على الإسلام فهاجمه في إحدى شرائعه أو مبادئه . وأراد الواعظ أن يرد عليه - اعتصم بالمنطق في أشكاله وأقيسته فإنها هي التي تبين ما في الكلام من خطأ ، وما يشتمل عليه من باطل . وقد بينا ذلك في التفنيد عند الكلام على تنسيق الخطبة ، فارجع إليه .

وعليه أن يوازن بين الإسلام وبين غيره من الأديان خصوصاً دين الشخص الذى يدعوهُ أو يناقشه ، وليكن ذكر الواقع لدين غيره من غير سب ولا طعن ، حتى لا يحتق خصمه ، فيندفع فى الطعن فى الاسلام ، وتنتقل المجادلة من مناقشة عقلية إلى مسابة للأديان ، وليعتبر بقوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ؛ فیسبوا الله عدوا بغير علم » ، وبقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » :

ولنختم الكلام فى هذا النوع من الوعظ بكتاب أرسله النبى ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة يدعوهُ إلى الاسلام ، فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . أسلم تسلم ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ؛ وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول (١) ، الطيبة ، الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تدبغنى ، وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى . والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم الكتاب مع عمرو بن أمية الضميرى وقد قال هذا للنجاشى ما فيه حث له على الإسلام ، فلننقله لك لتعرف كيف كان ذلك السلف الصالح يدعو إلى الدين ، قال رضى الله عنه : يا أحممة (٢) إن على القول ، وعليك الاستماع : إنك كأنك فى الرقة علينا ، وكأننا فى الثقة بك - منك ، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك .

(١) البتول معناها العاهدة .

(٢) أصحمة اسم النجاشى .

الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحز ، وإصابة المفصل . وإلا فانت في هذا النبي الأُمى كاليهود في عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف ، وأجر ينتظر فقال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأُمى الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشاره مومى براكب الحمار - كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشنى من الخبر ثم كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه .

خطب التعليم الديني للعامة :

هذا النوع من الخطب دروس دينية يلقيها الواعظ على العامة ، يعرفهم فيها أصول دينهم والأحكام الشرعية العملية التي يدعوا إليها ، والفضائل الخلقية التي يحث عليها ، ويجعلها أسا لقيام الجماعة الإسلامية الفاضلة ، وهذه الدروس إما بيان عقائد ، وإما بيان الأحكام والفضائل .

وعليه في بيان العقائد وإثباتها

(أ) أن يتعد كل الابتعاد عن الشروح الفلسفية ، فإنها تسمو على مدارك العامة ، وتعلو على أفهامهم ، وقد تدفعهم إلى الضلالة ، لعدم فهمهم .
(ب) وأن يتعد عن مواضع الخلاف ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن ذكر الخلاف مضلة للأفهام ، محير للألباب ، مبعدها عن الهداية .

(ج) وليقول كل التعويل على الكتاب فليبين لهم أوصاف الله كما ذكرها القرآن الكريم لا يعدوه ، ولا يتجاوزوه ، وليذكر أوصاف النبيين كما وصف الله الأنبياء ، وليجعل السمع لا العقل هو الورد لمعرفة العقائد ، لأن فية الخير العذب للحقائق الدينية ، وأصول الاعتقاد ، ولنا أسوة حسنة في السلف الصالح ، فقد كانوا يعرفون عقائدهم من كتاب الله سبحانه وتعالى ، ومما بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من غير أن يتعرضوا لمناقشات فلسفية لا تصلح لغير دارسي الفلسفة ، ومن تمرسوا بدراسة العلوم العقلية ، ومن يجادلون في الأدیان للدفاع عنها .

وإذا كان الواعظ يعلم الناس أحكام دينهم وفضائله ، فعليه أن

يعمد إلى توضيح ذلك كل التوضيح وإن اضطر إلى القيام ببعض حركات يقوم بها - أداها لأجل التوضيح وليتصوروا الحكم تصورا دقيقا من غير التباس ، ولا إبهام ، وليختر من الأحكام العلمية لدروسه ما يكون العامة مظنة الجهل به ، ليكمل بذلك علمهم بالدين وتفاصيل أحكامه ، فليبين لهم مناسك الحج ، لأن أكثر الناس على غير علم بها ، وليبين لهم أحكام الزكاة ، فإنه يندر من العامة من يعرف حقيقة أحكامها مع فرضيتها عليهم ، وغاياتهم بها ، وليعلم المرشد أن علم أولئك بها عهد في عنقه هو مسئول عنه يوم محاسبة الديان ، وليبين لهم الأحكام بحكمها ، ليعرفوا فضل الشريعة وأسرارها ، ومراميها من أقرب طريق ، وأنجح سبيل .

وليدكر مع الأحكام الأحاديث الواردة فيها ، والآيات الشارعة لها ، من غير أن يتعرض للاختلاف في تفسيرها والمنازعات في تأويلها ، فإن ذلك لا تصل إليه أفهام العامة ، فليذكر الآيات والأحاديث إحياء لها ، وتقوية للأحكام ، وإقرار آله في النفوس ، من غير أن يثير حولها مثار الخلاف ، وعثر النزاع . ولقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يبينون للعامة أحكام الدين بالقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، ويقربونها من أفهامهم ومداركهم من غير أي خلاف ، وبهذا فليسترشد المرشدون .

(ج) خطب تثبيت الإيمان وتقويته :

هذا النوع من الخطب يتجه إليه الخطيب ، ليقوى برد اليقين في قلوب المؤمنين ، ويثبت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين ، ويلقى في نفوسهم الحماسة لدينهم ؛ ليستمسكوا بعروته ، ويجيبوا دعوته . وليجعل الخطيب قوام خطبته أحد الأمور الثلاثة الآتية أو جميعها وما هي ذه :

فضائل الإسلام :

فينين لهم فضائله . وكيف كان طريق الجهد والعلو في الدنيا والأخرى ، ويبين لهم أنه عصمة للجماعات ، وحفاظ لوحدها ، وأنه مربى الوجدان ، وموقظ الضمائر ، وأنه العاطف على المسكين وابن السبيل ، والداعي إلى

الإخاء والحرية والمساواة ، وأنه المشتمل على الشرائع التي تكون من يأخذون بها جماعة فاضلة ، أسست على تقوى من الله ورضوان .

الكتاب :

فيشرح بعض آيات الكتاب الحكيم المبينة حقيقة الإيمان الذاكرة أوصاف المؤمنين ، وما يكون لهم يوم القيامة من منزلة ، وما لهم في الدنيا من مكان ، وقد كان النبي ﷺ يجعل أحيانا خطبته كلها قرآنا ، ومن ذلك ما روى في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة : قالت : ما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

فالقرآن بما حف من جلال ، وبما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة ، وبما له من حلاوة ، وما عليه من طلاوة يهز الإحساس ، ويقوى الإيمان وفيه هدى للمتقين .

أخبار المؤمنين الذين صبروا ، وصابروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولم يجعلوا لغير الله على قلوبهم سلطاناً ؛ لا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يجعلون لرضا العبد أو غضبه مقاماً بجوار رضا الله أو سخطه ، أحلاس عبادة ، وأهل جلال وجهاد في سبيل ما يعتقدون .

والتاريخ الإسلامي خصب بهذه النفوس ؛ فقد كان من رجاله عدد عظيم جاهد وجال في سبيل الله ، ولم يعرف لغير الله عليه من سلطان ، وعلى رأس هؤلاء أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير وعبد الرحمن ابن عوف ، وغير هؤلاء من علية الصحابة . وخلف من بعدهم جمع من التابعين حاكوا نهجهم ، وساروا سيرهم ، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وكل هؤلاء ممن آثروا الباقية على الفانية ، والحق على الباطل . وذكر هؤلاء وبلائهم في سبيل الله ، وصبرهم على الأذى في سبيل ما يعتقدون — فيه طب القلوب ،

يرد شارد النفوس ، ويقوى ضعيف الإيمان . وإن في قصص أخبارهم عظة للمتعطين ، وعبرة للمعتبرين . ونورا للمستبصرين . وهم في حياتهم وأخلاقهم ودينهم قدوة لأهل التقى واليقين ؛ فليكثر الواعظ من أخبارهم فإن أخبارهم حياة القلوب وطب النفوس ، ودواء لأمراضها ، وما يعرفوها من غشاوات مادية ؛ وإن لهيب إيمانهم يبدد بحرارته كل سحب تتكون على نفس المهتدين .

وما كان قصص القرآن الكريم للنبيين ، وصبرهم وبلائهم إلا لما فيه من بث روح الإيمان ، والصبر على البأساء والضراء في نفوس قارئه .

وترى من هذا أنا نبیح للواعظ القصص ولكن مع إقرارنا للقصص في مقام الواعظ نرى أنه يجب أن يكون الواعظ القاص صادقاً متحريراً صادق الأخبار والمقبول منها ؛ ويجب أن يخرج الأخبار تخرجاً صحيحاً ؛ فلا يستنبط منها غير ما تنبئ عنه . ولا يستنبطها بغير ما تنبئ :

خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات :

في هذه الخطب يتجه الواعظ إلى إصلاح للعيوب الشائعة الضارة بالمجتمع ، الهادمة لبناء الأخلاق فيه ، فقوام هذه الخطب محاربة المنكرات ، ومقاومة الفجور ومنع الفواحش من أن تشيع في الذين آمنوا . ومن أجل أن يصل الخطيب إلى غايته لا بد :

(أ) أن يجعل الخطبة متصدية لمعيب واحد لا تعدوه ؛ لأنه لو تعرض لعدة عيوب لضعف التأثير ، وما استطاع أن يصل إلى مرامه . ولذا يؤخذ على بعض خطباء المساجد أنهم في كل خطبة من خطبهم ينون عن المعاصي جملة واحدة ، أو يحصونها إحصاء ، ويكررون ذلك في كل جمعة - والعاصي في غيه يعمه ، وهو عنهم وعن وعظهم لاه ، ولو خصصوا خطبهم بدل أن يعمموا لأجدى كلامهم ، ولأفاد وعظهم ؛ ولو وصلوا إلى بعض ما يريدون ، أو نصبوا له .

(ب) وليبدأ الواعظ في خطبه بأكثر المعاصي خطراً ، وأشدّها في بناء

الدين هدمنا ، وأعظمها فيه نكرا ، يأخذ في نهى الناس عنه حتى إذا اطمأن إلى تفورهم منه ، وإبعادهم انجبه بخطبه اتجاها آخر ، وهكذا حتى يثمر غرسه أينع الثمرات .

(>) وفي وعظ الناس بالنهى عن منكر يبين الخطيب لهم مضار المنكر النازلة بمرتكبه ، الحانقة به ، الموبقة له ؛ ثم يبين لهم مضاره بالمجتمع ، ويصور لهم حال جماعة من الناس فشا فيها هذا المنكر كيف تكون ، ويستعين على ذلك بضرب الأمثال ومقايسة الأشباه والنظائر ، ثم يصور لهم حال المجتمع وقد انتهى عن هذه المأثمة ، ونفى عن نفسه أضرار ذلك النكر ، ويذكر في هذا المقام حال السلف الصالح ، وما كانوا عليه من إصلاح ، وما نالوه من حظ عظيم في الدنيا والآخرة بسبب الابتعاد عن ذلك المنكر ، وأشباهه .

وبعد هذا البيان السابق يتجه إلى كتاب الله سبحانه يبين ما فيه من دلالة على قبح ذلك المنكر ، والآيات الواردة في الترهيب منه ، والترغيب في تقيضه ، وبمثل ذلك يستعين بحديث رسول الله ﷺ والمأثور عنه ، ويبين هديه عليه الصلاة والسلام ، فخير الهدى محمد صلى الله عليه وسلم .

الانشاء الديني

في الخطب الجدلية التي تشتمل على دعوة إلى الهداية الحمديدية يتحرى الخطيب أن يتكلم بلغة من يدعوهم ؛ ليستطيع أن يضع أفكاره في الألفاظ التي تدل عليها دلالة محكمة من غير احتمال لغيرها ؛ ولتكن عباراته واضحة القصد بيينة المقصد ؛ لا التباس ولا غموض ولا إبهام ولتكن بأسلوب رائق جذاب ، شفاف عن معانيه ، وألفاظ تثير الخيال وتجذب النفس .

وفي الخطب التعليمية يتحرى الخطيب أن تكون عبارته واضحة الصور في أذهان الناس من غير أى تنميق أو تحسين ، فقصدته الأول أن تنتقل معانيه إلى أحيائهم ، فيتصوروها كما تصورها هو ، وإن اضطر في سبيل ذلك

إلى أن يكون درسه كله بالعامية فليفعّل ؛ لأن الغرض من هذا النوع من الخطب التفهيم لا التأثير ، وتوضيح الفكرة لا تزيينها .

وفي خطب تثبيت القلوب تختار الألفاظ القوية الرنانة التي تؤسّر في النفس معاني قديمة روحية ، وتذهب بها في مجال المعنويات وتتجرد بها عن قيود الجسديات ، وتخلق بها في سماء الحقيقة ، فعلى الخطيب أن يختار ذلك النوع من الألفاظ ، وفي مواضع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومواعظ السلف الصالح من ذلك الشيء الكثير .

وفي خطب النهي عن العيوب وطلب الإقلاع عنها ينوع الخطيب عباراته ، فتارة يختار الألفاظ القوية التي تهز الحس هزاً عنيفاً إن أراد تحذيرهم بالترهيب من سوء العقبى ، وتارة يختار الألفاظ السهلة اللينة الرقيقة إن أراد اجتذابهم إلى السير فيما فيه حسن المآل ، وطورا يشرح بلغة لا تكلف فيها ، وكأنها حديث معتاد إذا أراد أن يأخذ بأيديهم ، ويضعها على الحقائق مجردة من غير إنذار ، ولا تبشير .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

الخطب العسكرية

هى الخطب التى يلقيها القائد على جنده ليثبت قلوبهم ، ويلقى الحماسة فى نفوسهم ، ويدفعهم فيها إلى حياة شريفة أو إلى موت عطر الذكر .

ولهذا النوع من الخطب أثر عظيم فى الحروب ؛ فهو الذى يقوى روح الجند المعنوية ، والقوة المعنوية لها الأثر العظيم فى الانتصارات ، كذلك يحدثنا التاريخ ، وبذلك تنطق الحوادث الآن . فما كانت النصره فى الماضى بالذخيرة والعدد ، ولكن بالتأييد والتثبيت وقوة الروح ، وعظم الثقة بها وبالله .

قال بطل الحروب نابليون : إن نسبة القوة المعنوية إلى القوة المادية فى الانتصار كنسبة ١:٣ ، وقال قائد ألماني محنك : لا تزال القوة المعنوية هى العامل الحاسم فى الحروب فى العصر الحاضر كما كانت فى الغابر . ولأريب فى أن الخطب العسكرية لها الأثر الواضح فى تقوية الروح المعنوية .

وينجح الخطيب فى هذا النوع من الخطب إذا جعل قوام خطبته :

(أ) بيان شرفه الغرض الذى من أجله يحاربون ، ويتقدمون إلى مواطن الردى ، حيث تخضب الأرض بالدماء ، فإن كانت الحرب دفاعا عن وطن فى خطر يبين ما فى السكون من ذلة وعار ودمار . وإن كان يدافع عن عقيدة بين ما فى الخذلان من نشر للفساد ، وما فى الانتصار من إقامة للحق والفضيلة .

(ب) وبيان الأثر الحسن لمن يتقدم لهذا البلاء بثبات جأش ، وقوة جنان ؛ فإما انتصار وعزة وفخار وشرف عظيم ، وإما موت وذكر عطر بالشناء ؛ إذ يكون له من جهاده لسان صدق فى الصالحين .

(ج) وبيان أنه لا يأمر بالقتال ، ويمتنع بدمه ، بل إنه يتقدمهم يوم اللقاء والزحف ليكون له منهم القدوة الحسنة .

ويجب أن تكون الخطبة بصوت جهورى رزين ، قوى النبرات وعبارتها حماسية نارية تلهب الإحساس بالحمية والرغبة فى اللقاء . وألفاظها تثير الآمال ، وتسمو بالخيال إلى مواطن الشرف والكبرياء فى الجندية . وليتحرر الخطيب الإيجاز ؛ فإن الألفاظ الموجزة تحفظ ، وتطبع فى ثنايا النفس ، وقد أمر أبو بكر رضى الله عنه يزيد بن أبى سيفان عندما أرسله على رأس جيش أن يوجز الخطبة فى الجند ، حتى لا ينسى الكلام بعضه بعضاً .

ومن أمثل الخطب العسكرية خطبة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى جنده قبيل موقعة صفين وقد جاء فيها :

اعلموا أنكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاودوا الكر ، واستحيوا من الفر ؛ فإنه عار فى الأعقاب ، ونار يوم الحساب . وطيبوا عن أنفسكم نفساً ، وامشوا إلى الموت مشياً ساجداً (١) وعليكم بهذا السواد الأعظم ، والرواق المطنب (٢) فاضربوا ثبجه (٣) ، فإن الشيطان كامن فى كسره (٤) ؛ قد قدم للوثبة يداً ، وأخر للنكوص رجلاً ؛ فصمداً صمداً (٥) حتى ينجلي لكم عمود الحق ، وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يترككم (٦) أعمالكم .

١ - المشى السجج : السهل والمراد أن يسروا إلى الموت يثبات وامثنتان .

٢ - الرواق ككتاب وغراب القسطاط ، والمطنب المشعود بالخيال . والسواد الأعظم جند الشام والرواق قسطاط معاوية

٣ - الثبج الوسط

٤ - الكر المراد به هنا الجانب

٥ - الصمد . القصد

٦ - يتركهم ينقص حكم .

المحاضرات العلمية العامة

قد زأت الجامعات في البلاد الراقية أن تمد جماهير المتعلمين بالبحوث العلمية تنويراً لأذهانهم ، وثقيفاً لهم ، وترقية للرأى العام ونشراً للثقافة في ربوع البلاد . ويرى بعض الذين تهتمهم مصالح بلادهم ونشر الأفكار الناضجة بين أهلها أن يتقدموا بالبحوث العلمية يلقونها على الملأ من المثقفين ، ولذا تكثر المحاضرات العامة في البلاد المتعدنية .

وهذا النوع من المحاضرات تقرب فيه المسائل العلمية ، وتسهل فيه الأفكار ، وتجذب الأسماع ؛ ولذا يعد من أنواع الخطابة ، وإن لم تكن بحوثة من الموضوعات الخطابية .

ويلاحظ في الخطب العلمية ألا تفقد صيقتها العلمية . ولا روحها الفكرية ، ولذا يجب أن يقل الخطيب فيها مما يثير الغضب أو الحزن أو الحماسة ؛ فما وقف ليثير أشجانهم أو أفراحهم ، ولا يحفز همهم ، أو يلهب حماسهم . ولكن وقف لينمي عقولهم ، ويمدها بخلاصة لما وصل إليه الفكر البشري في الموضوع الذي يطرقة .

وليس معنى ذلك أن يخلى كلامه وإلقاءه من الطرق الخطابية ، بل معناه ألا تسيطر المظاهر الخطابية على الحقائق العلمية ؛ فتطمسها أو تبعثرها وسط الجلو الخطابي ؛ فعليه أن يتخذ من الخطابات ما يساعد على تثبيت المعلومات في الرعوس ، وإثارة الانتباه ، وإيقاظ الشوق إلى ما يقول ؛ فالخطابات هنا وسيلة لا غاية ، وأمة للحقيقة لا سيدة لها .

ويجب الابتعاد عن المصطلحات العلمية ، والعبارات التي لا يفهمها ، إلا الأخصائيون في علوم تلك البحوث ؛ لأن المحاضرة تلقى على الجماهير المتعلمة إلى حد ، وفهم الفاهم للمصطلحات ، وغير العارف لها ، فاللقاء المحاضرة بالعبارات العلمية الجافة الغامضة على غير أهلها موجد لسأمهم ، ذاهب برغبتهم . فيجب الاتجاه إلى العبارات المألوفة ، وتسهيل الأفكار ، وتقريبها من

المعروف ، وضرب الأمثال والمقاييسات بين ما يعرفون وما يريد أن يعرفوه .
وعلى من يتصدى لنشر الثقافة بين عامة المتعلمين أن يختار من الموضوعات ما يجتذبهم ، أو ما ينفعهم في عامة أمورهم ، وعليه أن يبدأ المحاضرة بتمهيد يقرب فيه بين ما هو شائع بينهم من الأفكار والآراء ، وما هو بصدد إلقائه عليهم ، ليجذب نفوسهم ، وليثير تفكيرهم إلى ما يريد قوله ، ولا يني في أثناء محاضرتة عن أن يقرب كل فكرة إلى ما يعرفون ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما أمكنته الفرصة ، وبمقدار ما تواتره الحقائق العلمية في هذا المقام .

إلقاء المحاضرة :

يستحسن بعض المحاضرين أن يلقي محاضرتة من قرطاس ، لكيلا تذهب الحقائق العلمية في تيار الحماسة الإلقائية إن اعتمد على الخطابة من غير قرطاس ؛ ولكي يكون التعبير عن الحقائق دقيقا محكما . وقد وافق موريس آدم مع تشديده في الارتجال على كتابة المحاضرات وإلقائها ؛ لأن الارتجال في الخطب السياسية أو ما شابهها .

ويرى بعض المحاضرين أن أحسن إلقاء للمحاضرة الإلقاء من غير قرطاس ؛ ليستطيع المحاضر الإشراف على السامعين ، فيتبع حركات أفكارهم ، ويستطيع بهذا الإشراف اجتذابهم ، ولأن الإلقاء من ورق من شأنه أن يوحى بالملل والسأم .

ونحن نرى إذا عول المحاضر على الإلقاء من الورق أن يتركه وقتاً بعد آخر ، ويعتمد على ذاكرته ، ليستطيع الإشراف على السامعين ، وليتصل بهم روحيا ، ول يمنع سأمهم ، وعند القراءة يجب ألا يجعل كل نظراته فيما يقرأ ، بل يكون بعضها فيما يقرأ ، وبعضها يتجه به إلى السامعين ، فيبدأ بأول الجملة ونظره في القرطاس ، وينتهي منها ونظره إلى السامعين ، وهكذا في كل جملة ، وبذلك يجمع بين الحسنيين من كلتا الطريقتين .

وننبه هنا إلى أن الحركات والإرشادات يجب أن تكون قليلة جداً في المحاضرات العلمية . وبعض المحاضرين لا يعتمد مطلقاً على الحركات في محاضرتة . ومع ذلك يبلغ بها حد الكمال في الإلقاء والاجتذاب .

خطب التأبين

الخطب التي تقال في مناقب الرجال عند وفاتهم وفاء لهم على ما أسدوا من جميل وحسن صنيع ، وحثا للسامعين على اقتفاء آثارهم . عزاء للمكلمين بهم ، أو مشاركة في الحزن لهم ، أو للاشادة بذكرهم ، لأن في إظهار مناقبهم فخرا للرائين ، أو إظهار الألم والأسى .

وخطب التأبين قسمان : قسم تحليلي تدرس فيه نفس الرجل ، وأخلاقه وأعماله وآثاره العقلية أو غير العقلية . وهذا من قبل المحاضرات العلمية فله خواصها ومظاهرها . وقسم مجرد الثناء والمدح ، وذكر المناقب ، ولواعج الألم . وأحسن مسالكة :

(أ) أن يبدأ الخطيب خطبته بتلاوة آية من القرآن الكريم أو حديث نبوي شريف أو بيت شعر أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا ، وأن ما فيها إلى فناء ، لا إلى دوام وقرار .

(ب) ثم يبين ألم الفقد الذي نال الناس بموت ذلك العظيم ، والرزية التي عمت ، ولم تخص ، والكارثة التي شملت الجميع لفقده حتى إذا أثار في هذا شجون العيون .

(ج) اتجه إلى مناقب المتوفي فذكرها ثم إلى آثاره التي خلفها في أمته فينبها ، مع الأيادي التي قدمها للأجيال .

(د) ثم يبين الذكر الحسن الذي أعقبه ، واللسان العطر الذي يتحدث به الناس عنه .

(هـ) ثم ينتقل من هذا إلى حث السامعين على اقتفاء أثره ؛ والسير على منهاجه ، والعمل بمثل ما عمل ، وبهذا يختم قوله :

والألفاظ الخطابة التأبينية تكون من الألفاظ السهلة لا الألفاظ الفخمة ،

والأساليب العذبة من غير لين ولا ضعف هي أحسن الأساليب لخطب التأبين ،
لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن .

ويجب أن يكون في نبرات الصوت ونغماته ما يشعر بالحزن العميق ،
وينبئ عن الألم الدفين .

ومن أجود الخطب التأبينية ما قاله علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر
الصديق رضي الله عنه ، وقد تقدم في بيان إثارة الأهواء والميول .

خطب المدح والشكر

خطب المدح قسمان : قسم تاريخي تقريرى ، تمدح عطاء الرجال في حياتهم لاللزلى إليهم والتقرب منهم بل دراسة لأحوالهم ، وبياناً لصفاتهم ، وتقديرًا لمذاهبيهم ، وهذه إما علمية تحليلية إذا كان الغرض منها البحث والتحليل ، ورد الأمور إلى أسبابها ، والمقدمات إلى نتائجها ، وإما مباسية إذا كانت للدعوة للمذهب العظيم السياسى . والأولى تلحق بالمحاضرات العلمية ؛ فلها طرائقها ومسالكها ، والثانية تلحق بالخطب السياسية ، فلها خواصها وطرق النجاح فيها .

والقسم الثانى من قسمى المدح يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن الممدوح وتشريفاً له ، لا ابتغاء منفعة منه ، أو لإظهار شعوره نحوه ، وما يمكنه له من إجلال واحترام .

ويسلك الخطيب المادح من الطرق ما يراه أقرب لو صف ممدوحه وصفاً حقيقياً ، فإن أثقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهراً .
فعليه أن يبين بصدق :

١- سجاياه وأخلاقه وصفاته التى رفعت وأحلته فى تلك المنزلة السامية :

٢- ثم يبين أباديه البيضاء على الجماعة التى يعيش فيها ، وفضله عليها إن كان له عليها فضل ، وعليه إن كانت له عليه أباد .

٣- ولا مانع من أن يذكر شرفه النسبى وفضل أسرته ، ونبيلها وكرمها ، وما اشتهرت به من صفات سامية جليلة القدر إذا كان ممن لهم شرف نسبى ، فإن كان ممن سودتهم نفوسهم العصامية فليكتف بالإطناب فى صفاته الشخصية وأخلاقه وعلومه وسجاياه .

وخطب للشكر يسلك فيها نفس هذا المسلك ، ويزاد عليه أن يطنب فى ذكر النعمة التى أسداها الممدوح إلى الشخص ، وطريقة إسداها ، ووقته ، وتصدر تلك الخطب عادة بذكر نعم الممدوح وفضله عليه .

والله ولى النعم وولى التوفيق .

الْقِسْمُ الثَّانِي

تاريخ الخطابة العربية في عصور ازدهارها

الخطابة في العصر الجاهلي

الحاجة إليها

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين : عنصرها ، والبيئة التي أظلمها ، ولذلك يجب أن نلم إلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته ؛ لنعرف هل فيها ما يدعو إلى الخطابة والبيان ؟ .

للبلاد العربية أكثرها صحراء جرداء ، يندر فيها النبات والماء ، وتكثر الجبال والوهاد والرمال ورمضاؤها ؛ ولذلك كان سكان هذه الصحراء في شظف من العيش ، وقلة من الزاد ، واكتفوا من الحياة بالكفاف ، ورضوا بالقناعة . واطمأنوا إلى الخشونة مع العزة ، ولعدم المواصلات في الصحراء ، وتقطع أسباب الاتصال ؛ لم تكن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة ، بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها ، تخضع لزعيمها ، وتقدم له الطاعة ، وله فيها الكلمة النافذة ، وما كان اختيارهم زعيما لهم إلا تنفيذاً لقانون الانتخاب الطبيعي ، إذ يرأس القبيلة أقواها عقلا ، أو أشدها في الهيجاء بطشا ، أو أكثرها تمسراً بتجارب الحياة ، وفنونها . وعلاقة القبيلة بمن سواها من تنازع على مواقع المطر ، ومواطن الكلاء ، أو احتكاك صغير قد يؤرث عداوة ، ويخصب الأرض بالدماء .

وأطراف البلاد العربية ، كالخيرة واليمن ، والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام فيها خصب عظيم ، ولذا تكونت بها حكومات ، ولكن هذه الحكومات قبيل الإسلام كانت واقعة تحت سلطان فارس والروم ، ولا بد أن نتصور أن الخضوع للأجنبي ليس من طبع العربي ، ولا يلائم فطرته ، لذلك كان أولئك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبي في تملل ، راغبين في الانسلاخ من سلطانه .

ومكة المكرمة وما حولها للخصب القليل بها ، ولما كان يفد به الحجاج عليها من خيرات وثمار ، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام ، وانجار قريش ، لهذا كله كان بها ثروة ، وسلطان ، وشبه حكومة ، الرياسة

فيها لأكبر بيت في قريش ، وكان بمكة المكرمة دار ندوة يجتمع فيها زعماء العرب ، وأقيالهم من كل نواحي البلاد .

هذه الإمامة موجزة أشد الإيجاز لبيئة العرب وأحوالها - أما العربي فعضبي حاد بثور لأنفه الأسباب ، ويحمل السيف عند أول نداء ، إذا استولت على رأسه فكرة نفذها ، من غير تدبر للعواقب ، أبي لا يرضى ضيماً ، ولا يسكن إلى ذل ، جواد كريم ، يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة وفقر ، يرمى حرمة الجوار ، ويبني بعهده ، قال فيه بعض الفرنجة : إنه نبيل بفطرته ، وقد مكنته صحراؤه ، وضعف السلطان فيها ، من أن يعيش عيشة فروسية ، اعتماده في الحماية على سيفه ، لا على حكومة تحميهِ ، ولا دولة ترعاه ، وقد كان فيه بعض المساوئ ؛ سببها له جهله ، وأميته ، أوفقره ، وإدقاعه ، كقتل الأولاد ، خشية الإملاق ، والحاجة .

هذا هو العربي ، وتلك حياته وبيئته ، وهي لعمرى حافزة إلى الخطابة ، مستثيرة البيان الرائع .

فالتنازع المستمر ، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء ، تستدعي بياناً يثير الحمية ، ويقوى العزائم ، ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف ، وملتقى الختوف . ولا شيء يقوى روح المحارب أكثر من قول حافز ، وعبارات تهز أوتار القلوب .

انظر إلى كلمة هانيء بن قبيصة قبيل موقعة ذي قار :

يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الخذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية خير من الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن في ثغر النحور أكرم منه في الإدبار والظهور ، يا آل بكر قاتلوا ، فما من المنايا بد . انظر إلى هذه الكلمة كيف دفعت العرب إلى لقاء جنود فارسية وكان لهم عليها الغلب !

وكثيراً ما كان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح تقوم به إحدى القبائل التي لم يكن لها في الحصومة ناقة ولا جمل ، أو أحد الأشخاص ذوي النفوذ ، والعقل الراجح ، كما فعل هرم بن سنان ، والحارث بن عوف عندما أصلحا ذات البين بين عيس وذييان ، بعد أن كادوا يتفانون . ومجالس الصلح

تبين فيها أضرار الحرب ، وشائج القرى بين القبيلتين المتنازعتين ، إن كانت ؛ وذلك لا يكون إلا بالخطابة ، أداة الترغيب في النافع ، والترهيب من الضار الوبي .

وتعصب كل عربي لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش ، وقوة بأس ، وثبات في الهيجاء ، وصبر على اللأواء ، ووفاء للعهد ، ورعاية للجوار ، وإكرام للضيف ، وذلك تارة يكون بشعر قوى ، وأخرى يكون بكلام خطابي مبين .

والعرب مع تفرقهم ، وانقسامهم ، وتوزعهم في الصحراء ، وتمزقهم فيها كل ممزق ، كانوا أمة واحدة ؛ قال فيهم الجاحظ : العرب كلهم شيء واحد ؛ لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والقيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ، والاتفاق في الأخلاق ، وفي الأعراق ، ومن جهة الخثولة المرددة ، والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة ، واللغة والهمة والشئائل ، قالوا والمشاكلة من جهة الاتفاق والطبيعة والعادة بما كانت أبلغ ، وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم . وقد كان العرب يشعرون بهذه الوحدة الطبيعية ، ويحتنون إلى تقويتها بجميع كلمهم ، وقد قوى تلك الرغبة فيهم محاولة الفرس إذلالهم ، ومحاولة الحبشة قبل الإسلام الاستيلاء على الكعبة ، موطن تقديسهم ، وطمع الأجانب فيهم ؛ لذلك استدعت الحال أن يكون بينهم خطباء ، يدعون إلى هذه الوحدة الجامعة .

وإذا علمت أن العرب كانت لهم دار ندوة يجتمعون فيها ويتشاورون ويساجلون ويقررون ما يرونه صالحاً ، ولهم أسواق هي شبيهة بالمنتديات الأدبية ، يتبارى فيها المحيدون للقول ، إذا علمت ذلك ، فاعلم أن دار الندوة والأسواق ، كانت منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ ، وتزجي فيها غيرها .

كانت في العرب مساوىء كما أسلفنا وكانت بالغة الحد الأعلى من الشناعة وقد نعاها القرآن الكريم عليهم ، وكان بعضهم يستنكرها منهم قبيل الإسلام ؛ لذلك تصدى هؤلاء للدعوة بخطب رائعة إلى الفضيلة ، والحث

عليها ، ونبذ العادات السيئة ، والخرافات الباطلة ، وربما كان أظهر هؤلاء الدعاة أكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الأيادي .

وقد كانت قوة إحساس العربي ، وشدة حميته ، واندفاعه ، ومعيشتة في الصحراء صافية السماء ، من أعظم الدواعي للخطابة ، والاتجاه إليها ؛ فإن قوة العاطفة تدفع ذا البيان إلى تبيانها ؛ قال الأستاذ كركوس في كتابه فن التكلم في الجمهور : تصور راعياً يسوق نعمه في الحلاء ، قد حितه ابتسامة الفجر ، وهو يفتح للشمس قصره الذهبي ، أوناجاه الشفق الوردى ، وهو يخلع على الكون رداء السكون ، وانظر أى أثر يكون لهذا المشهد في نفسه فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذاً بروعته وجلاله أو يتناول زمماره ، وينفخ فيه زاهراً وطرباً ، وإذا كان خطيباً يرفع رأسه وعينه ، ويدعو إليه قوى الوجود الخفية ، باحثاً عنها في الريح العاصف ، أو الموجة الثائرة ، أو الغصن المائل مع الهواء ، أو الصخرة الصماء . ومن هذا ترى كيف تكون قوة العاطفة ، مع المنظر الطبيعي الذي يهز النفس البشرية ، يأخذ بلب العاقل ، دافعة إلى البيان الرائع إن تهيأت أسبابه ، وقد جعل الله للعربي من أميته سبيلاً لفصاحته .

وفي الجملة إن حياة العربي في الصحراء كان حياة فروسية ، وقوة شكيمة ، دفعته إلى البيان دفعاً . قال الأستاذ المؤرخ جورجى زيدان في الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية في بيان تأثير الخطابة في ذوى الفروسية : ويغلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية ، وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية . . . ولذلك تشابهت جاهلية العرب ، وجاهلية اليونان من هذا الوجه ؛ لأن كليهما أهل شعروخطابة ، وأهل إباء واستقلال ، ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، أما العرب فقد قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ؛ فالعبارة البليغة تقيمهم وتقعدهم ، بما تثيره في خواطرهم من النخوة .

موضوعات الخطابة

كانت موضوعات الخطابة أثراً للدوافع التي دفعت إليها ، وثمرة لها ، ولكن يجب أن نقول : إن العرب قد أثر عنهم القول في موضوعات دفعت إليها العوامل السابقة ، وموضوعات أخرى قد ساد لديهم القول فيها ، ومهما يكن من الأمر ، فالموضوعات التي تعرضوا للقول فيها منها .

إثارة المحبة ، وإيقاظ الحماسة ، وتثبيت القلوب :

وقد ضربنا لك مثلاً خطبة هانيء بن قبيصة في موقعة ذي قار ؛ وفي الواقع أن العرب قد قالوا في هذا أبلغ كلامهم ، وأصدق عبارات دالة على قوة شكيمتهم وإقبالهم على الموت بنفس إقوية ، وبأس وحية ، وطبعي أن يكون الحث على القتال ، والحض على اللقاء ، أعظم أغراض القول في أمة تعتمد القبيلة فيها إلى السيف في الدود عن حياضها ، والدفاع عن شرفها ، ولا حاكم يردع المعتدى ، ويزجر الطاغى ، بل طبعي أن يكون البأس فخر العربي ، والشجاعة شرفه ، وأن يكون كل قول خطابي يتعلق بالشجاعة والقتال أروع بيانهم ، لأن البدوى أخص صفاته البأس ، والقوة والبطش ؛ فلا غرابة في أن تكون أعظم موضوعات بلاغته .

الصلح :

كثيراً ما كانت الحرب تنتهى بالصلح بين المتحاربين كما أسلفنا ، ينهض به ذوو الرأي والحزم ، فيحسمون الداء ، ويقضون على العداوة التي كانت بين المقاتلين ، ومن أعظم الخطباء . الذين امتازوا بالقول في هذا المقام أكثم بن صيفي ، فكثيراً ما كانت ترد على لسانه في خطبه التي تشبه الدر المنثور مضار الحرب ، ومساوئها الوبيثة ، ونفع الصلح ، وعواقبه المريئة ؛ وقد يغلف فريق القول مع آخر ، فتوشك نيران الحرب أن تتأجج ، فيدخل أحد الناس للصلح ، ويقال من الخطب ما يناسب المقام ، كما وقع بين سبيع بن الحارث ، وميثم بن مثوب أمام مرثد الخير من المخاصمة « الأمالى ج ١ ص ٩٢ » .

المفاخرة والمنافرة :

وقد يتحدث رجالان في أمر صغير أو كبير ؛ فيتلاحيان ، ويشتد فخر كل منهما على صاحبه ، فينحان إلى شخص أو جماعة ، وكل يتقدم بفخره ، ومكان شرفه ، فيدلى به على مسمع من ذويه ، ومن ارتضاه حكما ، وتسمى هذه منافرة ، وقد كانت كثيرة لدى العرب ، ومن ذلك منافرة علقمة ابن علاثة ، وعامر بن الطفيل تحادثا ثم تهاجيا ، ثم تنافرا على مائة من الإبل ، يعطيا للحكم أيهما نفر عليه صاحبه ، وكانت منافرتهم إلى هرم بن قطبة ، فالتى كل منهما من بليغ القول مارأى فيه فخار له على ملاء من قوميهما ، وفي المنافرات كهذه المنافسة ميدان متسع للخطابة ، والبيان الرائع .

الدعوة إلى الفضيلة ونبد الخرافات :

وقد كان هذا من ميادين القول ، إذ وجد من العرب مصلحون حكماء ، رأوا ما عليه أقوامهم ، من انحذار في بعض الشرور ، وامتلاء رؤوسهم بالخرافات والأوهام الصادرة عن الجهل الموبق ؛ وقد كانت دعواتهم تجدد نفوسا مصيخة وقلوبا صائغة ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وجمع من خطباء عبد القيس وإياد ، وأكثم بن صيفي ، وكعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ومكان هذه الدعوة الأسواق التي كانت تعد منتديات العرب الأدبية كما ذكرنا .

الدعوة إلى الوحدة العربية :

وكثيرا ما كان ذلك في دار الندوة ، وفي وفود العرب على رؤساء القبائل ، وزعمائها ، والملوك من العرب ، وربما كان يقع منها شيء في الأسواق التي كانت فرصة اجتماع تتلاقى فيه القلوب المتنافرة ، وقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة العربية قبيل البعث النبوي ، عندما اشتد طمع الأجنبي فيهم ، وهاجمهم في موضع تقديسهم ، كما ذكرنا .

وانظر إلى خطبة عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم أمام سيف ابن ذى يزن ، عندما ذهب إليه في وفد من قريش ، بعد أن أجلى الحبشة عن بلاد العرب ، انظر إلى هذه الخطبة ترى فيها دعوة جريئة إلى الوحدة العربية ، جاءت في ثنايا المدح والثناء !

٦ - الرثاء والعزاء :

العربي حساس كما قلنا ، وقد يدفعه ألم الفقد ، فينطق لسانه ببيان محامد من فقده ، وموضع الآلام في نفسه ، والرثاء ميدان واسع للقول البليغ ، يكشف فيه اللسان عن ألم اللوعة ، وحزها في النفس ، إذ يفتق بما انفطر به القلب ، وانشقت المرائر ، وقد يجي العزاء بالسلوان ، وتصغير الدنيا ، والآمها ، كما قال أكرم بن صيني معزيا عمرو بن هند في أخيه :

أيها الملك ، إن أهل هذه الدنيا سفر ، لا يحلون عقد الترحال ، إلا في غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، ورحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك ، ويدعك . إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة ، وشاهد عدل ، فجعلك بنفسه ، وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة ، وصديق أتاك ، ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغدا لا تدري من أهله ، وسيأتيك إن وجد ، فما أحسن الشكر للمنع ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ؟ واعلم أنه أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

٧ - الوصايا :

قد يشاء العظم في قومه على الموت ، فيحس بالمنية ، فيوصي بنيه وعشيرته ، بما يجب أن يكونوا عليه ، وقد يرى زعيم القبيلة أن الموت يدب في جسمه ديبا ، فيجمع قومه ، وخاصته ، ويلقي إليهم بما يكون كعهد بينه وبينهم ، وقد حفظت الآداب العربية للعصر الجاهلي كثيرا من الخطب في الوصايا بلغت قمة البيان ، من ذلك وصية ذى الأصبع العدواني لابنه ، وأوس ابن حارثة ، ووصية أكرم بن صيني لقومه .

٨ - خطب الزواج :

تعود الأشراف عند زواج ذويهم ، أن يتقدم ولي الزوج إلى وليها بخطبة ، يطلب فيها يد موليته ، ويبين مزايا الزوج ، ويرد عليه وليها بخطبة كذلك ، ويسمى هذا النوع من الخطب خطب الأملاك ، ومن ذلك خطبة أبي طالب عندما تقدم يطلب يد السيدة خديجة بنت خويلد للنبي صلى الله عليه وسلم .

مرتبة العرب في الخطابة

يعد كثير من الأدباء العرب في المرتبة الأولى من البيان، والمنزلة السامية في الخطابة^(١)، وقد ذكر ذلك أبو حيان في مقابساته ؛ إذ قال حاكباً عن أبي سليمان: سمعته يقول نزلت الحكمة على رؤس الروم، وألسن العرب وقلوب الفرس ، وبدى الصين ، وقال : الحرف^(٢) الذي يدعى في العربية وينسب إلى الأدب موروث من العرب ، وذلك أن أرضها ذات جذب ، والخصب فيها عارض ، وهم من أجل ذلك أصحاب فقر ، وضر ، وربما دفعوا إلى وصال^(٣) وطى^(٤) ، وكل من تشبه في كلامهم وطريقتهم ، وعبارتهم ، ارتضه ما هو غالب عليهم .. ألا ترى أن الشيع غريب عندهم ، والرعب مذموم منهم ، وهذه هي الحال التي فرقت بين الحاضرة والبادية ، وقد زادتهم جزيرتهم شر ، لكنهم عوضوا الفطنة العجيبة ، والبيان الرائع ، والتصرف المفيد ، والاعتدال^(٥) بظواهر ؛ لأن أجسامهم نقيت من الفضول ، ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول ، وصار المنطق الذي بان به غيرهم بالاستخراج مركزاً في أنفسهم ؛ من غير دلالة عليه ، بأسماء موضوعة ، وصفات متميزة ، بل فشا فيهم كالإلقاء والوحى ؛ لسرعة الذهن ، وجودة القريحة .

ونرى من هذا أنه يثبت للعرب أن الحكمة جرت على ألسنتهم ، وأنهم موصوفون بحدة الذهن ، والبديهة الحاضرة ، وأن المعنى الجيد يسارع إلى خواطرهم كالوحي ، والإشارة السريعة ؛ لجودة قريحتهم ، وكل تلك الصفات تضعهم في المرتبة الأولى من الخطابة .

وقد ادعى مثل هذه الدعوى ، وزاد عليها أن العرب لا يسامهم .

(١) الحرف : الميل عن الكسب وقلة المال

(٢) الوصال : أن يصل نهاره يليه جائئاً .

(٣) الطى : الميت جائئاً .

منزلتهم الخطابية أمة من الأمم ، الجاحظ ؛ إذ قول في البيان والتبيين :
وجملة القول : إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند ،
فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة ، لاتضاف إلى رجل معروف ،
ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة ، وذاب على وجه
الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ، وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق
نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام ، وتفصيله
ومعانيه وبخصائصه ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكره
بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس ،
وكل معنى للعجم ، وإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ،
وعن معاونة ، وعن طول التفكير ، ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الأول ،
وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل
شيء للعرب ، وإنما هو بديهية ، وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ،
ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكية ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى
الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بر ، أو يحذو بغير ،
أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، فما هو إلا أن
يصرف وهمه في حملة المذاهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني
أرسالا ، وتنتال عيب الألفاظ اثيالا ، ثم لا يقيد على نفسه ، ولا يدرسه أحداً
من ولده ، الخ . الخ .

وملخص ذلك الكلام أنه يدعى : أن العرب في المرتبة الأولى في البيان
وأن الأمم اليونانية والفارسية والهندية دونهم بلاغة وفصاحة . ونحن
نوافقه في الأولى ، ونناقشه في الثانية ؛ إذ كيف ساغ له أن يوازن بين
خطباء العرب ، وغيرهم من الأمم ، مع عدم توافر لأسباب ، والمهيات التي
تمكنه من الحكم الصادق ؛ إن من الصعب الموازنة بين فصاحة لغة وأخرى ،
والموازنة في المقدرة الخطابية بين أمم مختلفة .

جاء في مقابسات أبي حيان : قلت لأبي سليمان فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب ؟ فقال هذا لا يبين إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة ، وحق ، تم نضع القسطاس على واحدة ، واحدة ، حتى نأتى على آخرها وأقصاها ، تم نحكم حكماً بريئاً من الهوى والتقليد والعصية والمين ، وهذا مالا يطمع فيه إلا ذو عاهة .

فهل وازن الجاحظ هذه الموازنة ؟ وهل أوتى علماً باللغات ، واحدة واحدة تم حكم حكماً بريئاً من الهوى ، والتقليد ؟ إن الجاحظ قد اندفع وراء العصية ، والخصومة الشعبية ؛ فادعى دعواه هذه ، وكانت اندفاعاته بعيدة عن الحق كل البعد ، عندما أنكر خطب اليونان ، وادعى ألا بلاغة ولا خطابة عندهم ، إن التاريخ يحفظ لهم عصرأ ازدهرت فيه الخطابة ، حتى كان لها معلمون ، ومربون ، وكان الشباب اليوناني يرى الخطابة مطمحاً ، وأملأ يسعى إليه ، ليكون له نصيب من الرأي في إدارة شئون بلاده ، هذا القصر هو عصر بيركليس ، وما سبقه ووالاه ، وكانت أغراض القول واسعة ، وفرصة كثيرة ، ففي المنتديات الأدبية ، وفي المجالس ، وفي المشاورات السياسية

كان القول البليغ هدفهم ، كل يشد له قوسه ، ويرمى إليه سهمه ، وكانت الدعاوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأرجاء ، وكانت الخطابة فيها غرضاً مقصوداً ، واستمرت الخطابة في اليونان ، ما استمرت فيهم الحرية السياسية ، حتى استولى عليهم فيليب ، وكان أبلغ خطبائهم ديموستين ، وجاء الرومان ، فحييت الخطابة ، وكان سيد خطبائهم شيشرون .

ويجب أن ننصف الحقيقة فنقول : إن خطباء اليونان والرومان لم تكن أكثر خطبهم ارتجالية ، بل كانت تعد إعداداً ، فالخطيب الأثيني مهما تبلغ ثقته بنفسه ، لا يمرؤ على الوقوف موقف الخطيب ، قبل أن ينظر نظرة عميقة فيما سيلقيه قبل إلقائه ، خشية النقد المر الصادر عن سامعين ذوى أفهام ثاقبة ، ونظرات فاحصة كاشفة ، وكان شيشرون الروماني يهذب خطبه ويتمرن على إلقائها ، قبل التقدم لإلقائها على الجماهير ، حتى أنه في سن الستين قبل أن يقتل ، كان يمرن نفسه على الإلقاء .

ولا يمنع هذا من أن يكون بينهم مرتجلون ، ولكن كانوا أقل عدداً :
أما خطباء العرب فقد كانوا لإميتهم ، ولتعويلهم في بيانهم على اللسان وحده
مرتجلين ، تحضيرهم فيما بين الجنان واللسان ، ويقول الجاحظ فيهم :
وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد
عنده أظهره .

وفي الحق إن الخطيب العربي يعد في الطبقة الأولى بين خطباء الأمم ، وإن الخطابة
العربية في العصر الجاهلي كانت حية ناهضة ؛ لتوافر الدواعي إليها ، ووجود ذوى
اللسن والبيان ، وأولئك كانوا كثيرين ، خصوصاً في قبيلتي عبد القيس وإياد :

ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها

الألفاظ :

أول ما يلاحظه القارئ للمأثور من خطب العرب في الجاهلية على ألفاظها :

١- قوة وجزالة حتى تعل أحيانا إلى الخشونة ، ولعل السبب في ذلك :

(أ) قوة نفوسهم ، وشدة بأسهم ، واندفاعهم في حماسة ، فإن الكلمات صورة حية لنفس قائلها ، نجيش صدورهم بالأس ، فتندفع ألسنتهم بكلمات ، هي صورة لتلك القلوب القوية الجريئة .

(ب) ومعيشتهم في الصحراء بيأسائها ، ولأوائها وشدتها ، صبحوا لابرون إلا ما فيها من جبال وآكام ووهاد ، فيكون كل ما يصدر عنهم مناسبا لتلك المناظر ، مأخوذا من تلك المشاهد .

(ج) ومناسبة تلك الكلمات الجاسية الشديدة ، للموضوعات التي قيلت فيها ، فأكثرها قيل في دعوة إلى قتال ، أو في مفاخرة بنزال ، أو في وصف يوم كريمة ، ونحو ذلك .

وأنسب الكلام لهذه الموضوعات ما كان شديداً ، قوى الأسر ، فحما ضحما ، ليقرع الحس ، ويدفع النفوس إلى حيث ترتخص الأرواح .

٢- وقد كان في كلماتهم الحوشية الغربية ، ولعل هذه كانت من لغة حمير التي طغت عليها لغة قريش ، حتى أخذت في الاندثار ، وبقي في الخطب والشعر منها كلمات نائية ؛ لأنها تعيش في غير بيئتها ، منفردة عن أخواتها .

٣- وتجد في خطبهم سوق الحقيقة قائمة ، وسوق المجاز كاسدة ، فألفاظهم إلا قليلا مستعملة فيما وضعت له ، وذلك لإحاطتهم الكاملة بلغتهم ، وعلمهم

علما صحيحا بمدلولات الألفاظ ، ووجه دلالتها عليها ، وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ في مدلول آخر ؛ لعدم وجود طوائف من المعاني ليس في العربية ما يدل عليها ، وهذا لا يمنع أن يكون في كلامهم الكنايات الرائعة ، والأمثال السائرة ، والتشبيهات المحكمة ؛ فإن ذلك كان عندهم ، ولكن لم يكن كثيرا في خطبهم ؛ لأرسالهم القول ارتجالا من غير تحضير وتهئية .

المعاني :

معاني الخطب الجاهلية :

١ - فطرية تنشأ عن اللمحة العارضة ، والفكرة الطارئة ، وعفو الخاطر من غير كد للفكر ، ولا تعمق في النظر ؛ لأنهم لم يكونوا أهل علوم يسودهم التفكير المنظم ، والتقسيم المستقرى ، والتتبع لكل أشتات الموضوع ؛ ليجمع شملها في خطبة ، ويضم متفرقها في بيان .

٢ - لذلك جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء ، وغير سلسلة الأفكار ، لا يأخذ المعنى بحجز الآخر في فكر ترتيب ؛ لتستوفي الموضوع كله ، وأصدق الخطب التي تدل على هذه الحال فيهم ، خطب أكثم بن صيفي ، فإنها حكم منتثرة ، بل هي در منشور غير منتظم في عقد .

ولكن إذا اتحد الغرض في الخطبة ، جاء التماسك في الجملة في أجزائها ، وكثيرا ما تكون الخطب التي على هذه الشاكلة موجزة كل الإيجاز ، كخطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها .

٣ - وقد كان عدم تماسك أفكارهم من دواعي كثرة الحكم والأمثال في خطبهم ، حتى لقد رأيت أن أكثم كما بينا ، كانت خطبه كلها حكما ، وقد يستشهد بعضهم بحكمة عالية لغيره ، أو بمثل سائر ، يضربه ، ليقايس بين حال من يخاطبهم ، وحال من قبل المثل فيهم .

٤ - وأخص ما يمتاز به المعاني الخطابية عند العرب صدقها ، وعدم وجود الإغراق والمبالغة فيها ، وذلك لما فيهم من صراحة ، وحب للصدق وللحقيقة .

٥ - وقد ترى في نصائحهم ووصاياهم معاني اجتماعية ، وخلقية عالية ، ولكنها في جملتها ليست مبنية على دراسة وبحث ، بل هي صورة لتجارب الحياة ، تنبئ على الأسئنة من غير كيد للذهن ، ولا تعمق في الدرس ، كما أسلفنا .

الأسلوب :

١ - أول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية أنك لا تجد الخطب قد لوحظ فيها حسن الافتتاح ، وتنسيق الموضوع ، وتجزئته ، ثم حسن اختتامه ؛ فإن ذلك شأن الخطيب الذي يحبر خطبته ويزور كلامه ، ويهيؤه . ويعدده ، ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك ، بل كانوا يرتجلون الكلام ارتجالاً ، لذلك لم تكن خطبهم منسقة مجزأة ، بل كانت في الجملة غير متماسكة ؛ لعدم تماسك معانيها كما بيناه .

٢ - وأسلوبهم الكلامي لا تكلف فيه ، ولا صناعة ، لعدم عنايتهم بتهيئة القول ، ولذلك خلا من كل المحسنات اللفظية ، كالجناس والتورية ، وما إلى ذلك مما نص عليه في علم البديع .

٣ - كانوا أحياناً يسجعون في خطبهم ، كما ترى في سجع الكهان ، وأحياناً يأتون بجمل مزدوجة ، كما ترى في خطب الوفد العربي لدى كسرى ، وأحياناً يرسلون القول أرسالا ؛ ولكن أيهما كان أكثر ، وأشيع ، الكلام المرسل ، أم المسجع والمزدوج ؟ لقد اختلف الأدباء في الإجابة عن هذا السؤال ؛ ففريق يقول إن السجع والازدواج كانا أكثر شيوعاً على ألسنة الخطباء من الأرسال ؛ لأن المروى من خطب الجاهلية أكثره مسجوع أو مزدوج ، وإنك لتقرأ ما رواه الأماشي . والعقد الفريد ، وغيرها من كتب الأدب منسوبة إلى العصر الجاهلي ؛ فترى أن أوضح ما يظهر في ديباجته السجع والازدواج ، ولا يطعن في هذا بالشك في صحة النسبة ؛ أو بالرواية بالمعنى ؛ لأن من يقول قولاً على لسان غيره ، ولو كاذباً ، يجتهد في أن يكون كلامه صورة قريبة

مما يجزى على ألسنة من ينحلهم قوله ، فالرواة الذين نحلوا الجاهليين تلك الخطب لا يسد أن يأتوا بكلامهم على النحو الذي يعرفه الناس عن العصر الجاهلي ، فإذا أتوا بذلك الكلام مسجوعاً ، فهو يدل على أن الناس في عصر الرواة ما كانوا يعرفون عن خطب العرب ، إلا أن أكثرها مسجوع ، وخسبك هذا دليلاً على شيوع السجع عند الجاهليين .

ويرى آخرون أن الأرسال هو الأكثر شيوعاً على ألسنة الخطباء ، لأنه هو الذي يتفق مع الارتجال ، والقول على البديهة الذين عرفوا في العرب ، ولأنه هو الذي يساق الفطرة ، ولأن أكثر كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي ثبت صحته ، وأكثر خطب الصحابة التي لا مجال الطعن في صدقها مرسل قليل السجع ، والازدواج ، وأكثر أولئك أدرك العصر الجاهلي ، فلو كان السجع طريقاً خطيباً معروفاً مألوفاً لهم ، ما خالفوه ، ولا نعرف أن من أوامر الشرع ما يدعوهم إلى المخالفة ، والابتعاد عن أمر معروف عند الجاهليين أنه من طرائق التأثير اليباني ، ولأنه قد تواتر عن العرب أن الكهان كان لهم كلام مميزات بديعته ، يحالف المألوف للعرب ، وامتاز ذلك الكلام بالسجع المتلزم فلو كان السجع أمراً شائعاً يشمل الجزء الأكبر من خطب الخطباء ، ما امتاز كلام الكهان عن سواه ، وما صار له لون يغير بقية الكلام ، ولأنه قد جاء في البيان والتبيين للجاحظ : قيل لعبد الصمد ابن الفضل بن عيسى الرقاشي لم تؤثر السجع على المنشور ، وتلزم نفسك القوافي ، وإقامة الوزن ، ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد ، لقل خلاني عليك ، ولكنى أريد الغائب ، والحاضر ، والراهن ، والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتيقيد ، وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره .

وهذا الكلام يدل على أن أكثر الخطب الجاهلية ، لم يكن سجعاً ،
ولما مضاع أكثرها ، ولم يبق إلا أقل من العشر ، ويردون على الفريق
الأول في استدلاله بكثرة السجع في المروى على أنه للكثرة في الخطب —
بأن الخطب المسجوعة هي التي رويت . مع قلتها بالإضافة إلى غير المسجوع ؛
وذلك لنفاسها ، وسهولة حفظها ، وقوة علوقها بالنفس ، وثباتها فيها ،
لما فيها من التزام قافية ووزن ، وهما يسهلان اللفظ . وأنت ترى أن كلاله
وجهة ، ونحن إلى الثاني أميل .

الإيجاز والاطناب :

وقبل أن نختم الكلام في الأساليب العربية نتكلم على الإيجاز والاطناب
في خطبهم ، فنقول : لم نجد في المأثور عن العرب خطبة طويلة ، بل كلها
موجز ، ولعل الذي بين أيدينا جزء من خطبة طويلة ، علق بالقلوب ،
وذهب أكثرها في ضلال نسيان الراوى أو هو الخطب القصار حفظها الرواة ؛
لقصرها ، وعجزوا عن ضبط الطوال ؛ لطولها ؛ وذلك لأن أخبار العلماء
والأدباء والرواة تدلنا على أن العرب كانت لهم خطب طوال ، وأخرى
قصار ، ولكل حال تقتضيه في نظرهم ، ففي خطب النكاح مثلاً يطيل
الخطاب ، ويقصر الحبيب وفي خطب الصلح كانوا يطيلون ، قال الجاحظ :
« والسنة في خطبة النكاح أن يطيل الخطاب ، ويقصر الحبيب ، ألا ترى إلى
قيس بن خزيمة بن سنان لما ضرب بصفحة سيفه مؤخرة راحتي الحاملين
في شأن حمالة (١) داحس (٢) والغبراء . وقال : مالى فيها أيها العثمانان (٣)
قالا : بل عندك ؛ قال : عندي قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ،
وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، أمر فيها بالتواصل ، وأتمى

(١) الحمالة الدية

(٢) داحس والغبراء . فرستان كانتا سبياً في حرب طاحنة .

(٣) العثمانان واحدها عثمة وهي الطمع . والشئ اليابس .

فيها عن التقاطع . قالوا فخطب يوماً إلى الليل . فما أعاد فيها كلمة ولا معنى ،
فقليل لأبي يعقوب : هلا اكتفى بالأمر بالتواصل ، عن النهى عن التقاطع ،
أو ليس الأمر بالصلة هو النهى عن القطيعة . قال : أو علمت أن الكناية
والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشف ؟ ويظهر أنهم
كانوا يطيلون القول في المفاخرات ؛ لأن الإنسان إذا مال إلى الشيء أكثر
من ذكره ، والفخر بالحسب والنسب ، وشريف الخصال من صفات العرب
التي امتازوا بها .

وقد كانوا في إطالتهم ، وإيجازهم بلغاء ، أقوالهم محكمة ، وقد قال
الجاحظ في وصف الطوال منها : « ومن الطوال ما يكون مستوياً في
الجودة ، ومشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف
الجياد ، وقال في وصف العرب بشكل عام : ولم أجد في خطب السلف
الطيب ، والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً
ردباً ، ولا قولاً مستكرها .

الخطيب الجاهلي

وعاداته

الخطيب العربي زعيم القبيلة ، أو بطلها ، أو حكيما ، أو قاضيا ، أو رجل من آحادها ، ولكن يمتاز بميزة ليست في دهائها ، يجعله في منزلة تسمح له بأن يدعو ، فيجاب ، وأن يرشد ، فبشترشدوا به ، ولذا كان الخطيب العربي من أسد العرب رأيا ، وأحكمهم نظر ، وأبعدهم مدى ، فرجاحة الفكر أولى مميزات الخطيب العربي في قومه ، فأكرم بن صبي أحكم تميم ، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب ، وكعب بن لؤي كان شيخ كنانة في عصره ، وعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش ، وأنبأها ، وأسدها فكراً ، وكل أولئك خطباء .

والخطيب العربي يخطب قوما اشتهروا بالفصاحة واللسن ، وسلامة الفطرة ، فلا يؤثر فيهم ، ولا ينال من قلوبهم ، إلا إذا كان يعلوهم فصاحة ، ويسبقهم لسانا وبيانا ، فلا يكون فيه بالأولى عيب من العيوب البيانية التي لا تتفق مع فصاحة اللسان ، وجودة النطق ، فلا يكون فيه عي ، ولا حصر ، ولا فافأة ، ولا ممتعة ولا شيء من عيوب النطق والبيان ، وكذلك كان الخطيب للعربي فصيح العبارة ، طلق اللسان ، واضح اللهجة جيد الإلقاء .

كان الخطيب في الجاهلية يدعو العرب أحيانا إلى خوض غمرات الموت ، والسبح في لجج من الدماء ، فلا يصح أن تتنافى حاله مع ما يدعو إليه ، لا بد أن يكون جرىء القلب ، قوى النفس ، رابط الجأش لا تعروه رعدة ، ولا اضطراب في موقفه ، وإلا ضعف تأثيره ، وذهب كلامه هباء ، وكذلك كان خطيب الجاهلية ، شجاع جرىء ، ثابت الجنان ، رابط الجأش ، لا اضطراب ، ولا وجل ولا خوف .

٤ - كان خطيب الجاهلية جهر الصوت مرتفعه . وكانوا يستحسنون ذلك في الجملة ، ولذلك قالوا في وصف الخطيب المحيد خطيب مصقع ، من الصقع وهو رفع الصوت .

حضور البديهة من أخص أوصاف الخطيب العربي ؛ لأن أكثر خطبه مرتجل ، والارتجال عدته وذخيرته بديهة حاضرة تسعفه بما يريد في أوجز مدة .

لم يكن الخطيب العربي منفراً في شكله ، بل كان أقرب إلى الجمال ، والجمال من مظاهره في نظرهم سلامة الأسنان والقم ، وقوة الجثمان ، واستقامة القناة ، فيكون كالرمح لا انحناء فيه ، وبياض الوجه .

ولذا قال الشاعر مادحا خطباء قبيلته .

خطباء حين يقوم قائلنا بيض الوجوه مصاقع لسن
والخطيب الجاهلي ذو مهابة ، وسمت ووقار وشرف ، وبزة حسنة ، وحسب ونسب ، وفي الجملة فيه أكثر أوصاف الخطيب الكامل .

ومن عادات العرب في الخطابة :

(أ) أن يقف الخطباء على مرتفع من الأرض .

(ب) وأن يكونوا على زى خاص في العمامة واللباس تفخياً لعمله .

(ح) وأخذهم المخصرة (١) بأيديهم ، ومن ذلك قول الشاعر .

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم إذا وصلوا أيماهم بالمخاطر

وكانوا أحيانا يعتمدون على القسي بدل المخاصر ، ومنهم من كان يتخذ المخاص في خطب السلم ، والقسي في خطب الحرب ، إشعاراً بما ينوي قوله ، وليكون لسان حاله متفقاً مع مقاله في الدعوة إلى القتل والقتال .

(د) ومن عاداتهم أيضاً رفع أيديهم ، ووضعها ، وتأدية كثير من أغراضهم بحركاتها ، إن كان ثمة داع لذلك ، ولم تذهب تلك الحركات بهيئة الخطيب ووقاره وورزنته .

وقد انتقلت عادات كثيرة من عادات الجاهلية في الخطابة إلى الإسلام ؛

(١) شئ يشبه العصا .

من المأثور خطب العرب في الجاهلية

كثرة الخطباء في الجاهلية ، وقلة المروى من الخطب

خطباء الجاهلية كثيرون ، من أقدمهم كعب بن لؤى (الجلد السابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم) ، كان يخطب العرب عامة ، ويخص على البركتانة خاصة ، ولما مات أكبروا موته ، وأرخوا به حتى عام الفيل ، ومنهم ذو الأصبع العدواني ، وسمى بذلك ؛ لأن حية نهشت إمام رجله ، فقطعته ، ومنهم أبو عمار الطائي خطيب مدحج ، وقد بلغ النعمان بن المنذر حسن حديثه ، فحمله إليه ، وكان النعمان شديد العريضة ، قتالا للندماء ؛ فقتله في مجلس شراب له ، ومنهم النعمان هذا وخطباؤه عند كسرى : أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميمي ، والحارث بن عباد ، وقيس بن مسعود البكري ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامري ، وعمر بن الشريد السلمي ، وعمر بن معد يكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري ، وكلهم يشار إليه بالبنان في العرب ، ومنهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ ، وأبو طالب عمه ، وقيس بن ساعدة الأيادي خطيب عكاظ ، وداعي العرب إلى التوحيد ، ومنهم عطار بن حاجب بن زرارة ، وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب بين يديه .

وبعض القبائل اشتهر بكثرة الخطباء ، كأبياد ، وعبد القيس ، قال الجاحظ : وشأن عبد القيس عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إباد تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان ، وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت بالبحرين ، وشق البحرين وهم من أشعر قبائل العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية ، وفي معدن الفصاحة ، وهذا عجيب ! .

وإذا كان خطباء الجاهلية كثيرين كما رأيت ؛ فلا بد أن تكون خطبهم

كثيرة ، ولكن المأثور من الخطب قليل ، لا يتناسب مع تلك الكثرة .
جاء في صبح الأعشى : قال صاحب الريحان والريحان : إن
ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر ، من جيد المنثور ، ومزدوج
الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور
عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره ، لأن الخطيب ، إنما كان يخطب
في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك أو الإصلاح بين العشائر ،
أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه
بخلاف الشعر ، فإنه لا يضيع منه بيت واحد .

قال : ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام ،
وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه ، فأطار ذكرها ،
ما تميزت عن سواها .

ولماذا كان حظ الخطب النسيان ، وحظ الشعر الحفظ ؟ يعلل
ذلك القلقشندي ، بشيوع قول الشعر في الحواضر ، البوادي ، وبين
الخاصة والعامة ، وسهولة حفظه ، وكون الخطب لا تكون إلا من عظماء
الفصحاء ، واختصاصها بالمواقف العظيمة التي ربما لا يحضرها دهاء
العرب ، فقد كان يقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ،
ومن فاز بقدر الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويخصون ذلك بالمواقف
الكرام ، والمشاهد العظام ، والجالس الكريمة ، والمقامات الحفيلة ،
وما يلقى على العامة تتبادله الألسنة ، ويشيع ، أما ما يلقى على الخاصة
فغير شائع ، ولا معروف ، ولا تتناقله الرواة ، ولكن إذا كان هذا
يصلح علة لنسيان ما كان يلقى على الخاصة فما علة نسيان ما كان يلقى
في الأسواق والجامع العامة ، وما كان يلقيه زعيم القبيلة على القبيلة كلها
صغيرها وكبيرها ؟ يظهر أن العلة لهذا :

(١) أمية العرب ولو كان العرب يكتبون على الرقوق ، أو ينقشون

على الاحتجاز كالأمم ذوات الحضارات ، لوجدنا آثارهم ناطقة بخطبتهم
ومجاوراتهم التي تشتمل على القول البليغ ، والبيان الرائع ، الآخذ بالآليات .

(ب) وكون الشعر سهل الحفظ والنثر صعبه ، إذ الوزن في الأول
جعل الآذان تنشط لسماعه ، والقلوب تميل إلى حفظه .

ومهما يكن من الأمر فما بقي يعطينا صورة للخطابة في الجاهلية
وإن لم تكن كاملة ، ويبين لنا حالها ، وإن لم يكن البيان شافيا
وافيا :

نماذج من خطب الجاهليين

١ - كلمة قيصة بن نعيم حين قدم على امرئ القيس

مع وفد بني أسد

وفد على امرئ القيس بعد قتل أبيه رجالات من بني أسد ، فيهم قيصة بن نعيم ، فبالغ أمرؤ القيس في إكرامهم ، واحتجب عنهم ثلاث ليال ، ثم خرج إليهم ، فنهض قيصة ، وقال : إنك في الحبل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتتنقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب ، محتمد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الخفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية ، إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ، ما يطول رغبته ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزقيته نزارا واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارح ، كان الحجر العاج والعمّة فوق الجبين الكريم ، وإعفاء الحمد ، وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولشكن مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الخالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المبكرات صوتا فقدناه إليك بنسعة (١) ، يذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته (٢) فقبيل رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام . أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت

(١) النسخ بكسر التون سير من الجلد تشد به الرجال .

(٢) القصرة الباقي بعد الانتحال أو أصل للمق .

به القضب إلى أجفائها ، لم يردد تسليط الإحن على البراء . وإما أن وادعتنا
إلى أن تضع الحوامل ، فتسدل الأزر ، وتعتقد الجمر فوق الرايات .

جواب امرئ القيس :

فبكي امرؤ القيس ، ثم رفع طرفه إليهم ، وقال : لقد علمت العرب
أن لا كفء لحجر في دم ، وأنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ؛ فأكتسب به
سبة الأبد ، وفث العضد ! وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها
ولن أكون لعلها سبيا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل من
القلوب حنقا ، وفرق الأسنة علقا .

إذا جالت الحرب في مأزق تصافح فيها المنايا النفوسا

وصية زهير بن جناب الكلبي بنيه

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه فقال : يا بني إني قد كبرت سنى ،
وبلغت حرسا (١) من دهرى ؛ فأحكمتني التجارب ، والأمور تجربة واختبار ؛
فاحفظوا عني ما أقوال ، وعوه : إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل
حند الثواب ؛ فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو وسوء ظن بالرب ، وإياكم
أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر
قوم قط ، إلا ابتلوا ؛ ولكن توقعوها ، فإن الإنسان في الدنيا غرض ، تعاوره
الرماة ، فمقصر دونه ، ويجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم
لا بد أن يصيبه ؟

وصية ذى الأصبع العدواني

لما احتضر ذو الأصبع العدواني ، دعا ابنه أسيدا ، وقال له : يا بني ،
إن أباك قد فنى ، وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما
إن حفظته ، بلغت في قومك ما بلغته ؛ فاحفظ عني : ألن جانبك لقومك
يجبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر

عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ،
ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز
جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في
الصرخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ،
فبذلك يتم سؤددك .

خطبة لمرثد الخير في الصلح

جاء في الأمل بسنده : كان مرثد الخير بن ينكف بن معبد يكره
ابن مضحى قتيلا ، وكان حديبا على عشيرته ، محبا لصلاحهم ، وكان سبيع
ابن الحارث ، وميثم بن مثنوب بن ذى رعين ، تنازعا الشرف ، حتى
تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر ، فيتفاني جذماهما (١) فبعث إليهما
مرثد ، فأحضرهما لصلح بينهما ، فقال لهما . إن التخط (٢) وامتناء
الهجاج (٣) واستحقاب (٤) اللجاج سيقفكما على شفا هوة ، في توردها بوار
الأصيلة (٥) وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال
العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة (٦) وأنما في فسحة رافهة ، وقدم
واطدة ، والمودة مثرية (٧) والبقيا معرضة (٨) ، فقد عرفتم أبناء من كان
قبلكم من العرب ، ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى
التقاطع ، ورأيت ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور (٩)
أموارهم ، فتلافوا القرحة قبل تفاقم التأى (١٠) ، واستفحال الداء ، وإعواز
الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء ، استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت
الشحناء تقضبت (١١) عرا الإبقاء ، وشمل البلاء .

(١) الجذم الأصل (٢) التخط ركوب الرجل رأسه في الشر (٣) الهجاج
في الشر (٤) استحقاب اللجاج حمل حقيقته ، والمراد من هذا اعتزام الحصرمة والشر .
(٥) الأصيلة الأصل (٦) السهمة القرابة (٧) مثرية هنا معناها بتصلة (٨) معرضة
معناها ممكنة (٩) الأمر الذي يرجع إليه والمراد هنا العاقبة (١٠) التأى بفتح الهمزة وسكونها
الإفساد والقتل والجرح (١١) نقضت معناها تقطعت .

خطبة عبد المطلب بن يدي ذي نواس

ذهب وقد من قريش إلى ذي نواس بعد أن ظفر بالحبشة ، وأجلاهم
عن بلاده ، فلما مثلوا بين يديه ، قال عبد المطلب : إن الله أيها الملك ،
أحللك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شائخا ، وأنتك متبتا طابت أرومته ،
وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب
موطن ، فأنت آيت اللعن رأس للعرب ، وربيعها الذي به تخصب ، وملكها
الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومقلها الذي يلجأ إليه العباد ،
سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، وإن يهلك من أنت
خلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك
الذي أبهجنا بكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهئة ، لا وفد
المرزقة (١) .

خطبة أبي طالب في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة « رضي الله تعالى عنها »

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا
بلدا حراما ، وبيتا محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس . وإن محمدا ابن
عبد الله بن أجي لا يوزن به فتي من قريش ، إلا ربح به بركة وفضلا وعدلا
ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال مقل فإن المال عارية مسترجعة ، وظل
زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتهم
من الصداق فعلى .

خطبة أكرم بن صيفي

في قومه عندما جاءه نبي الله صلى الله عليه وسلم

روى في مجمع الأمثال عن ابن سلام الجهمي قال : لما ظهر النبي
ﷺ بمكة المكرمة ، ودعا الناس إلى الإسلام ، بعث أكرم بن صيفي ابنه
حبشيا ، فأتاه بنجر ، فجمع بني تميم ، وقال : يا بني تميم ، لا تجثروني .

سفيا ، فإنه من يسمع يخل أن السفية يواهن من فوقه ، ويثبت من دونه ،
لاخير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ، ودخلنى زلة ، فإن رأيتم منى
حسنا ، فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك ، فقومونى أستقم . إن ابنى
شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى
عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ،
وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن
الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس
بمعونة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن
الذى يدعو إليه حقا ، فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا ، كنتم
أحق الناس بالكف عنه ، وبالستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث
بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمدا ،
فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخرأ ، ائتوا طائعين ، قبل أن تأتوا
كارهين . إن الذى يدعو إليه (محمد صلى الله عليه وسلم) لو لم يكن دينه
لكان فى أخلاق الناس حسنا ، أطيعوذر ، واتبعوا أمرى ، أسأل لكم
أشياء لا تنزع منكم أبدا ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عددا ،
وأوسعهم دارأ ، فلانى أرى أمرأ لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا
عز . إن الأول لم يدع للآخر شئنا ، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق
إليه غمر المعالى ، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز .
فقال مالك بن نوية قد خرف شيخكم ! فقال أكنم : ويل للشجى
من الخلى ، والهقى على أمر لم أشهده ، ولم يسبقنى .

نصيحه الجمانة بنت قيس لجدها الربيع بن زياد

اشترى قيس بن زهير درعا من مكة ، فاغتصبها منه عمه الربيع ابن
زياد ، فتقدمت الجمانة بنته ، وقالت :

إذا كان قيس أبى ، فإنك يارببيع جدى ، وما يجب له من حق

الأبوة على ، إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ؛ والرأى الصحيح
تبعته العناية ، وتجلى عن محضه النصيحة . إنك قد ظلمت قيسا بأخذ درعه ،
وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض متنصر ، والبادى أظلم ،
وليس قيس ممن يخوف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ؛ فلا تركزن الى
منابذته ، فالخزم فى مئاركتة ، والحرب متلفة للعباد ، ذهابة بالطارف
والتلاد ، والسلم أرنجى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال . وبحق أقول : لقد
صدعت بحكم ، وما يدفع قولى ، إلا غير ذى فهم . ثم أنشأت تقول .

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
هراى أبى رأى البخيل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

الخطابة في صدر الإسلام

تمهيد:

في عصور الانقلابات الفكرية والاجتماعية ، والسياسية تسود الخطابة ، حيث يصطدم القديم والجديد ، والمألوف ، بما هو غريب بدىء ، إذ تدهش له العقول ، فتتحير بعض الألب . - يلا أو قصيرا وتضطرب بعض النفوس بين ما ألفت من قديم ، وما عرفت من حديث ، وينكر الحق بعض الذين يرون مصلحتهم العاجلة في التمسك بالقديم ، والأخذ بأهدابه ، والنفوس الصافية ، والقلوب الزاكية تدرك الصواب ، وترفض عنها أدران الباطل ، تمحص الحق ، وتتجلب سائغة ، وتتجه إلى نوره ، يشتد الاختلاف بين أولئك وهؤلاء ، كل يدلى بحجته ، وكل يزيد اجتذاب الجماعة إلى طريقه ، وكل يتخذ وسائل الإغراء ؛ لتسلك مهيعه ، وذلك بلسان ذرب ، وبيان رائع ، وبلاغة واصلة إلى أعماق القلوب . واعتبر ذلك في عصورنا الحديثة بالثورة الفرنسية ، حيث فكت فيها الألسنة من عقلاها ، واندفعت تنطق بعبارات ملهية ، تثير الثائرة ، وتشبع النفوس الثائرة ؛ وتوقظ القلوب الخائرة . وقبلها كانت الثورة الإنجليزية التي وضع على أثرها الدستور الإنجليزي أول الدساتير الحديثة ، وأقدمها ، انطلقت فيها الألسنة بخطب قوية ، وألفاظ نارية ، وكذلك كانت الثورة الأمريكية ، واعتبر ذلك في القديم بحال اليونان في عصر بيركليس ، إذ ازدهرت الخطابة لهذا الانقلاب الفكرى والاجتماعى والسياسى ، الذى توج به تاريخ ذلك العظيم . واعتبر ذلك أيضا بحال الرومان في عصر يوليوس قيصر ، إذ كانت الخطابة هي التى تلقى النخوة في قلب الرومانى ، فجعلت منه فاتحا في الشرق والغرب ، تحقق الراية الرومانية حيث وضع قدمه ، وحيث خفق قلبه بالنجدة والبأس والمروءة . وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أحدث دينه الحق انقلابا سياسيا ، ودينيا ، واجتماعيا ، وفكريا في العرب (بل في كل العالم) لم ير

التاريخ له نظيراً ، فلا بد أن تكون قد صحبته حركة بيانية خطائية ، لم تعرف في أمة من قبل ، وكذلك كان ، فإنه بمجرد أن صدع النبي ﷺ بالحق ، ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب ، وانبعث ذلك النور الوضاح ، فأضاء السهول والجبال ، بمجرد أن كان هذا ، تجرد المقاتل من العرب للرد عليه أو الدعوة إليه : وكان وهو القصيح القرشي ، ذوالبيان النبوي يجادل ويتناضل ، ويدافع ويصاول ، وليس له إلا لسان أيده روح القدس ، وحق أوحى الله سبحانه به ، وإذا عرفت أن الحجة التي كان يدلي بها برهاناً على رسالته وحجة لدعوته من نوع الكلام ، وإن كان من رب العالمين ، وفيه المثل الكامل للبلاغة ، إذا علمت ذلك ، وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان . علمت أى مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية .

هذا إجمال ، وما سيأتى تفصيله .

الحياة الإسلامية في صدر الاسلام

لتعرف ما طرأ على الخطابة من تغير في الدواعي والأغراض ، يجب أن نعرف ما طرأ على النفس العربية من تغير في مظاهرها ، وأحوالها الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية .

الأحوال الدينية :

كان العرب في القديم يعبدون الأوثان ، ويكاد يكون لكل قبيلة إله تعبده فلما جاء الإسلام جمعهم على إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى . « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » وبدلهم مكان العادات الجاهلية ، عادات إسلامية عالية ، تركى النفس وتطهر القلب ، وتعمل من الشخص العربي الذي لا يحسن إلا بشخصه وقبيلته شخصاً اجتماعياً ، يوثق الصلة بينه وبين بنى الإنسان . وإن شئت أن

تعرف ما أودعه الإسلام نفس العربي من فضائل اجتماعية ونفسية ،
فاستمع إلى مايقوله جعفر بن أبي طالب للنجاشي : كناقوما أهل جاهلية ،
نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسى
الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله ،
إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله وحده
لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة
والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن
الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول
الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، أمرنا أن نعبد الله وحده ،
لأنشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ،
فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان
من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ،
وظلمونا ، وضيعوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا .

فالإسلام كما ترى كل فضائله لتربية النفس ، وتركيتها ، وجعل العربي
وكل مسلم صالحا للائتلاف مع غيره ، وبعد أن كانت كل فضائله في
الجاهلية شخصية ، وجهه الإسلام إلى الفضائل الاجتماعية ؛ ليلتم مع سواه ،
وبعد أن كانت الشجاعة في المبارزة والمناضلة للمفاخرة ، صارت في
الجهاد في سبيل الله لرفع كلمته ، وبعد أن كان الجود ليملأ المعطى ماضغيه
فخرا ، صار في إمداد المجاهدين ، وسد حاجة المعوزين ، وإعطاء السائل
المحروم ابتغاء مرضاة الله ، وحنانا وعطفا على بني الإنسان .

تغلغل الدين في كل شيء في هذا العصر ، فصاروا لا يصدرون في
عمل إلا عنه ، وكانوا كلما جد شأن ، أخذوا حكمه من الدين ، إما بنصر
عليه ، وإما بتأويل يرد إليه ، وإذا صح قول نبيون : إن البواعث الدينية
والإيثارية والتقوى ، هي التي يقوم عليها بناء الأمم . فلن نجد أذل من

حال العرب على صدقها فإن الدولة الإسلامية العربية قامت بباعث من الدين الحكيم ، وتآلفت بوحي الإيثار الذى أودعه الله قلوب العرب ، وحميت بالتقوى والعزيمة حتى آخر عصر الخلفاء الراشدين .

الأحوال الاجتماعية :

قلنا إن الدين كان يسود فى كل شيء ؛ ولذا ساد فى أكثر نواحي الحياة الاجتماعية ، وما لم يسده كان واقعا تحت تأثير اجتماعى تقليدى ، تنتقل فيه الأخلاق بالعدوى ، لا بالفكر والإرادة ، ومهما يكن من شيء ، فقد امتازات الحياة الإسلامية الأولى : فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأكثر زمن الخلفاء الراشدين بمظاهر اجتماعية منها :

محو العصبية أو سترها إلى حين :

إجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على العصبية » .

ونستطيع أن نقول : إن العصبية الجاهلية اختفت فى عصر الخلفاء الثلاثة الأولين خصوصا عصر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ فإن المسلمين كانوا سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وهم جميعا أمام حكم الله سواء لأشريف ولا وضيع فى تنفيذ الأحكام

وما يروى فى ذلك أن جبلة بن الأيهم ، وقد كان ملكا من ملوك الغساسنة ، وطىء إزاره رجل من فزارة ، فأنحل ، فرفع جبلة يده ، وهشم أنف الفزارى ؛ فشكاه هذا إلى عمر رضى الله عنه ، فبين له عمر أن الحكم القصاص ، أو عفو الأعرابى ، فقال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين ، وأنا ملك ، وهو سوقة ؟ فأجابه عمر :

إن الإسلام جمعك وإياه ؛ فليست تفضله بشيء ، إلا بالتقوى والعافية .
غفر جبلة إلى بلاد الروم .

اختفت العصبية ؛ لنهى النبي صلى الله عليه وسلم في مثل الحديث السابق كما ذكرنا ، ولأن العرب جمعوا تحت لواء واحد في الفتح الإسلامى ، فتألفت قلوبهم ، وسرت عصبيتهم ، وشغلهم الجهاد عن الفخر بالآباء ، والتمسك بالأنساب .

انتقال العرب من البداوة :

وتأثر الكثيرين من العرب ببعض الحضارة لما يلي :

(١) لاختلاطهم بغيرهم من الأمم ، فان المدن العربية كانت تموج بعد الفتح الإسلامى بعناصر مختلفة من الأمم الأخرى ، فالكوفة التى بناها عمر بن الخطاب للعرب ؛ ليطلوا منها على الصحراء ، كانت تموج بالموالى ، والمدينة المنورة كانت (لأنها قصبة الدولة) مقصد ذوى الحاجات من كل الطوائف والأمم ، والغنائم بما فيها من الأسرى ، ما كانت توزع على المجاهدين إلا فى المدينة المنورة ، ومكة المكرمة كانت مقصد الحجيج من العرب ، وغيرهم من المسلمين .

(ب) ولاستخدام العرب للرقيق ، لما توزعوه أفيثا وغنيمة ، وقد كان العبيد والإماء من أمم ذوات حضارات قديمة ، فأثر أولئك فى البيت العربى ، وأدخلوا فيه عادات ، كن عند العرب .

(ج) ولكثرة ما أفاء الله عليهم من مال ونعم ، فقد ورثوا نعيم كسرى فى فارس ، وقصر فى الشام ومصر ، وكانت لهم من ذلك حياة فاكهة ، رقت طباعهم ، ورطبت نفوسهم ، وفى الجملة تغيرت الحياة العربية ، وانتقلت من بداءة جافة إلى نوع من الحضارة المتمزجة بالبداوة ، قد سيطر عليها الدين ، وعقلها من أن تصير انهماكا فى الملاذ والعبث والجون .

الأحوال السياسية :

اجتمع العرب تحت لواء واحد ، لا يسيطر عليهم إلا الدين ، وذهبوا إلى الممالك ، فدوخوها ، واستولوا عليها ، وورثوا سلطان الفرس ،

وسلطان الروم في الشرق ، وصاروا حكام هذه الأمم ، يتضافرون في إدارة شئونها ، ويتآزرون في هدايتها ، فوحدوا أمرهم ، وجمعوا أشتاتهم وجعلوا الحكم ليس مظهر العصية ، ولكن مظهرا لوحدة دينية ، فالخلافة فيه لا تمثل قبيلة ، ولكن تنفذ حكم الله ، والخليفة لا يحكم بسلطانه ، ولكن بسلطان الله سبحانه ، وهم جميعا مسئولون عما يوافقون عليه ، ويأثمون إذا سكتوا عن إرشاده فيما لا يوافقونه فيه من حكم .

أرسلوا حكاما للأمم المفتوحة وهداة ودعاة إلى الإسلام ، وهم في كل هذا لا يصدرون إلا عن الدين الجامع بينهم فالسياسية في ذلك العصر كان مصدرها الدين ، وكان ذلك من أسباب وحدتهم ، وتلاقيهم في جامعة الدين بعد طول افتراق ، ولكن الخلافة في آخر عصر الخلفاء الراشدين طمح إليها أقوام ، ليسوا هم الأولى ، ونافسوا ذوي الجدارة والأولوية ، بل نازعوا الخليفة الرابع بعد أن بويع ، فكان من ذلك فتن وحروب وانقسامات ، فوق التي انتهت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وحالت الحال ، وتغيرت الأمور والأحوال .

دواعي الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر

كانت دواعي الخطابة في ذلك العصر تتفق مع ما عرض لهم ، وما سادهم من حياة ، وما طرأ عليهم من أحوال وشئون سياسية واجتماعية .

وكان بدهيا أن تكون أول الدواعي للخطابة الدعوة المحمدية والرد عليها ، فقد جاء محمد ﷺ بذلك الدين الجديد في قوم ، القول صناعتهم ، والبلاغة جل عنايتهم ، فناداهم بأبلغ القول ، وخاطبهم بأروع الكلام ، وخطب في مجامعهم مؤيداً رسالته ، ناشراً دعايته ، حتى ضاقت صلتهم عن سماع قوله ، بعد أن عجزوا عن مجادلته ومقارعة الحجة بالحجة ، فامتشقوا الحسام ، وتكلموا باللسان بدل اللسان ؛ فالخطابة كانت الأداة الأولى للدعوة المحمدية ، وكانت السلاح الذي يرفعه خصومه في الرد عليه ، فكانت تلك الدعوة سببا في انتشار الخطابة ، ورفع درجة البيان .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى الناس في مواسم الحج ، وفي المجامع ، وفي المنتديات ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويأتى في ذلك بأبلغ الكلام . انظر إلى خطبته الموجزة يوم صدد بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين ، إذ قال صلى الله عليه وسلم :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتنجزون بالإحسان إحساناً وبالشر شراً ، وإنها للجنة أبدل أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » .

بيان الأحكام الشرعية :

لما دخل الناس في هذا الدين أفواجا أفواجا كان النبي ﷺ ، يبين لهم أحكام دينهم ، ويعرفهم ذلك الشرع الشريف ، وذلك الهدى القويم ، ويبين تفضيل ما أبجل القرآن الكريم ، كما قال تعالى كلمته : « وأنزلنا إليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ثم يوضح له ما أشكل عليهم فهجة ،

أوما التيس من أمر هذا الدين ، وذلك البيان كان بأقوال محكمة ، فيها وحى النبوة ، وقبس من نور الرحمن ، وقد قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » . وانظر إلى خطبته عليه الصلاة والسلام التى مطلعها : « أيها الناس ، إن لكم معالماً ؛ فاتموا إلى معالكم » ؛ وخطبته صلى الله عليه وسلم التى مطلعها : « كأن الموت فيها على غير ناقد كتب » . وخطبته فى حجة الوداع . انظر إلى تلك الخطب ، ترى فيها الترغيب مع الترهيب ؛ والموعظة الحسنة ، والإيجاز الذى وفى ، وجمع فأوعى ... !

المشاورة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم على أمر خطير استشار أصحابه ، عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وتلك الشورى تكوّن بخطبة قيمة ، يعرض عليهم الأمر فيها ، ويتعرف رأيهم ، ويأخذ بما اتفقوا عليه ، ورجحوه ؛ ليكون فى ذلك قدوة للمسلمين ؛ فلا يستبد بعضهم ببعض ، ولا يغالى أحدهم فى تقدير نفسه زاعماً أن رأيه إلهام بالصواب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، إذ كان أولى البشر بذلك سيد البشر ، ولكن الله سبحانه جعل فيه أسوة حسنة ، وليكون حجة على كل من تحدّثه نفسه بذلك الطغيان .

ومما استشار فيه النبى ﷺ أصحابه مسألة فداء أسرى بدر ، واخراج إلى المشركين فى غزوة أحد . وقد نهج الخلفاء الراشدون منهجه صلى الله عليه وسلم عاملين بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » فأبو بكر كان يستشير الصحابة فى كل أمر دنى شأن ، ويتعرف رأيهم إذا التبس عليه حكم من الأحكام ، وكذلك كان عمر رضى الله عنه ، بل إنه وسع باب الشورى ؛ لما جد فى زمنه من شئون وأحداث استدعت المشاورة ، وتعرف رأى الصائب وسط الآراء المتبادلة ، وقسم شوره قسمين :

شورى خاصة :

وتلك كانت تتألف من عليّة الصحابة ، المهاجرين الأولين والأنصار السابقين ، وأولئك يستشيرهم فى صغرى الأمور وكبرائها :

شورى عامة :

وتتألف من أهل المدينة أجمعين ، يجمعهم في الحرم النبوى الشريف ، وإذا ضاق بهم ، جمعهم خارج المدينة المنورة ، وعرض الأمر الخطير ، ورأيه فيه ، وكان سكان المدينة المنورة في هذا يشبهون سكان أثينا ، إذ كان كل شخص له رأى في إدارة شئون الدولة . وفي الشورى العامة تبادل الخطب ، ويدلى كل ذى رأى برأيه وحجته ، ومن المسائل التى استشار فيها عمر سكان المدينة المنورة ، خروجه على رأس الجيش إلى فارس ، وقد ذكر الطبرى في ذلك .

خطب الصحابة على وطلحة وغيرهما ، التى أبدوا فيها آراءهم ، وأدلتهم منها مسألة أرض سواد العراق ، وغير هذا كثير .

ونرى من ذلك كله ، كيف كانت الشورى في ذلك العصر ، كشأنها في كل العصور ، محركة للألسنة ، دافعة أهل البيان إلى البيان .

الحرية الشخصية :

كفل الإسلام للعربى حريته الشخصية بل نماها فيه ، وسلك بها الطريق القويم ، الذى يجعل تلك الحرية مثمرة صالحة ، ولا يجعلها داعية لتمزق الجماعة ، وذهاب ريحها ، وأقول نجمها ، وقد سار الخلفاء الراشدون على سنن هذا الدين في إحياء النخوة العربية والمحافظة عليها .

انظر إلى العربى الذى يقول لعمر بن الخطاب والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد عمر الله سبحانه أن جعل في المسلمين من يقومه بالسيف إذا اعوج ! .

وانظر إلى المرأة التى تقطع على عمر خطبته عند مادعا إلى حشد المهور قاله تعالى : « وإن آتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا : أناخذونه بهتاناً وإنما مبيناً » . فيقول خطأ عمر وأصاب امرأة !

انظر إلى هذين المثالين ، ترى كيف كان يتمتع العربى بحرية شخصية كاملة . ويقول بعض الأدباء : إن الخطابة تزهو وتقوى في كل أمة تتمتع بالحرية الشخصية ؛ وكل أمة غلبت على أمرها ، وفشت فيها المذلة ،

ضعفت الخطابة فيها ، وتحولت من الحماسة إلى الضراعة ، ولذلك امتنعت الخطابة في العبرانيين كما نقل إلينا ، وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثي والحكمة ، وتنميق الشكوى ، وتنسيق التظلم ؛ لهذا نقول : إن الحرية التي سادت المسلمين في صدر الإسلام كانت داعية للقول البليغ ، يجابهون به الخلفاء الراشدين ، ولولا ما في صدورهم منها ، ما ظهر ذلك القول ، وما تقدموا معترضين على الخلفاء الراشدين بخطب ممتازة .

الجهاد في سبيل الله :

اعتدى المشركون على المسلمين ، فأمر الله ، نبيه بأن يقاتل المشركين كافة ، كما يقاتلونه كافة ، فقاتلهم عليه الصلاة والسلام حتى صار الدين كله لله سبحانه ، لاسلطان لأحد على القلوب . ومن بعده أبلى المسلمون الثابتون بلاء حسناً في قتال المرتدين ، وفي حروبهم فاتحين البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت الخطابة ذخيرة معهم ، يحتفظ بها القواد دائماً ؛ ليمدوا بها الجند ، إن رأوا فيهم إعياء ؛ فيجعلوا من ضعفهم قوة ، ومن تفهقهم تقدماً وانتصاراً .

قال نابغة الحروب نابليون في بيان مقدار حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية :
نسبة القوة الجسدية إلى القوة المعنوية في الانتصار كنسبة ١ : ٣ .

وقال أحد القواد الألمان في ذلك العصر : إنه مع التقدم الفني في العصر الحديث ، نرى العنصر المعنوي يبرهن على أنه في الحاضر ، كما كان في الغابر ، العامل الحاسم في الحرب .

فالجيش من غير روح تدفعه كالسيف من غير يد تحمله ، لا يزيق دماء ، ولا يدفع عادية ؛ ولا يخذى الروح إلا الخطابة ، وكلما كان القائد أملك لعنان القول مع أخذ الأهبة ، كان أكثر انتصاراً ، فالجهاد في سبيل الله فتح للخطابة باباً واسعاً .

ولاية الأمر

كان أولياء الأمر يعنون بإطلاع المسلمين على سياستهم ، وسنة حكمهم . ويتهزون الجمع ، والأعياد ، والمواسم ، خصوصاً موسم الحج ، فرصة

لذلك يبينون فيها ما يريدونه من طاعة في الحق ، وكان كل خليفة بعد تمام بيعته ، يتقدم للجماعة المسلمين ، ويبين ما سيأخذهم به ، وما يدعوههم إليه ، كذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكان الولاة والعمال يسرون على ذلك النهج ، يبينون للرعية ما سيتبعونه في حكمهم ، ويسلكونه في إرشادهم ، وفي كل ذلك إحياء للخطابة ونشرها ، ورفع لعمدها .

الدعوة إلى الوحدة :

كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية غرضاً مقصوداً من أغراض الخطابة ، وداعياً حافزاً من دواعيها ، فقد كانت الوسيلة لجمع المسلمين إذا تنافروا ، بها ترجع النفوس للشاردة ، وتلتئم الجراح الناعرة ، وتهب القلوب النائرة . وقد حدث في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ما مهدد الوحدة الإسلامية ، لولا هدى المصطفى ، كما حدث في توزيع الغنائم بعد حرب هوازن ؛ فقد حز في نفوس الأنصار . أن لم يأخذوا منها شيئاً ، وسرت القالة منهم بذلك ، فوقف عليه الصلاة والسلام خطيباً . ورد نفوسهم للشاردة إلى نور الحق المبين . وقد كادت تتمزق الجماعة الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتذهب ريح المسلمين باختلافهم ، حتى كاد الأنصار يولون عليهم خليفة ، والمهاجرون مثله ، لولا حكمة أبي بكر في خطبته ، وعزمة عمر . وكانت الخطابة هي البلم الشافي ، والدواء الناجع ، عندما تطيش أحلام ، وتهيج نفوس .

الفتن الداخلية :

لم تستمر الوحدة الإسلامية وارفة الظلال أمدا طويلا ، فقد نبئت الفتن في عصر الخليفة الثالث ، واضطربت بها مراحل القلوب ، حتى أنتجت نتائجها ، وأثمرت ثمراتها ، وكانت أولها نفس ذلك الخليفة الشهيد ، ولم تذهب الفتن برأسه ، بل تشعت الإحن ، واشتدت الحن من بعده ، وانقسم المسلمون في عهد الخليفة الرابع إلى أنصار له وأنصار لمخالفه ، ثم خرج من بين الصفوف بعد حرب صفين من أنكر على الفريقين خطتهما ، فكان المسلمون بذلك أحزاباً ثلاثة : حزب مع أمير المؤمنين علي ، وحزب مع

معاوية الخارج عليه ، وحزب خارج على الفريقين ، وكل له أنصار من الخطباء المصاقع ، يؤيد فكرته ، وينصر دعوته ، وعلى سيد خطباء تلك الفترة ، انفتق لسانه بالبيان الرائع ، والقول السانع ، والحكمة الفائقة ، حتى أورث الأخلاف طائفة من الخطب ، هي نهج البيان ، ومشروع الحكمة ، ونور الحق ، ووضح الحقيقة .

وإذا كانت الخطابة قد وجدت في العصر الجاهلي حياة تناسبها لأنها وجدت العربي يحيا حياة فروسية ، فقد وجدت في الحياة الإسلامية لها حياة أنسب ، إذ أن العرب كونوا فيها لهم دولة تستظل بظل الدين ، وتجد في الإيثار والتقوى والإيمان روحاً وقوة وثباتاً . وكانت تلك الدولة تثور عليها الزوابع العاتية ، والرياح العاصفة ، فينبى الخطباء ، للمنافحة والمدافعة ، والمجاهدة والمصابرة ، وكلما اشتدت الحومة كانت الخطب نيراناً متأججة . أو برداً وسلاماً ، ترد القضب إلى الأجفان والقلوب النافرة إلى الاطمئنان .

عوامل رقي الخطابة

وجدت الخطابة في البيئة الإسلامية عوامل رقي ، وأسباب تقدم ونمو ، فقد كانت حياة العربي خصبة بالتقوى والإيثار وقوة الروح ، أحس بأن ملك كسرى يتزلزل تحت سيفه ، وقيصر ينكمش فراراً من قوته . وذلك للدين الذي تورد على قلبه ، فإنه هو الذي أوجد تلك القوة التي تدكدك العروش ، وتزلزل القلوب ، وتجعل من ساكن الصحراء حاكماً لفارس وملك الروم في الشرق .

وإذا كانت الخطابة كما أسلفنا ، تستمد قوتها من النفس ، فلا بد أن نذكر الأمور التي كانت في تلك الحياة ، وغذت النفوس غذاء نمت به الخطابة ، وازدهرت ، وقويت ، ونهضت ، وأعظم تلك الأمور شأناً ، وأجلها في حياة العرب خطراً ، وفي الخطابه أثراً .

القرآن الكريم :

جاء القرآن الكريم ، فبهز النفس العربية وأصاب شغافها ، وقد تحدى أعظم البلغاء فيهم ، أن يأتوا بسورة منه ولو مفتراة ، فعجزوا أن يأتوا .

وقد قال الجاحظ في إعجازه : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، في زمن ، أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله ، وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والخيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو في ذلك يحتاج عليهم بالقرآن الكريم ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى معارضته إن كان كاذباً ، بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقرباً بعجزهم عنها ، قالوا أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوا ، ولو مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو تسكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجده ، ويحامي عليه . ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض الشعراء من أصحابه ، والخطباء من أمته ؛ لأن سورة واحدة ، وآيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه ، من بذل النفوس ، والخروج عن الأوطان ، وإنفاق الأموال ؛ وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب ، في الرأي والفضل بطبقات ، ولم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولم الأسجاع واللفظ المنشور ، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدنائهم ، ومحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطاب المكشوف البين ، مع التفرع بالتقصير والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ؛ والكلام سيد أعمالهم ، وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة ، على الغلط في الأمر

الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه ، وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل
وهم يبدلون أكثر منه ١ » (١) هـ بتصرف قليل .

وإذا وكان أثر القرآن الكريم في مناوئيه ، وهم قوم خصمون ، هو ما علمت
من تحير ودهشة وعجز ، بل إعجاب يخفيه الغرض ومرض النفس بالشرك
والعناد ، والخالفة ، فكيف يكون أثره في الآخذين بهديه ، المقتبسين من
نوره ؟ لقد أثر القرآن الكريم فيهم أبلغ تأثير ، وأفادت الخطابة أعظم فائدة .
وجنت منه أكبر الثمرات ، وقد كانت فائدتها من ناحيتين :

إحدهما : مما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم :

(١) فقد كسبها سعة في المعنى إذ قد أتى بمعان ، لم يتورد العرب من
قبل مواردها ؛ كانوا قوما حسيين ، ولغتهم حسية ، فجاء القرآن الكريم ،
وحدث عن النفوس ووصفها ، فأحسن وصفها ؛ حلل نفس الضال وعلّة
ضلاله ، ونفس المهتدى وعريق اهتدائه ، صور تقلبات القلوب وخلجات
النفوس ، وما يؤثر في المشاعر ، فدعا ذلك المسلمين إلى الاعتراف من منله
العذب ، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية ، وسمت اللغة العربية
إلى مستوى ما كان يتهيا لها بغير القرآن الكريم ، وأثر القول في الأمور
المعنوية وحسن تصويرها في الخطابة جلي لا يحتاج إلى تبيان .

(ب) وقد جاء القرآن الكريم في لفظ سهل متين ، خال من الألفاظ
الخشنة الجافة ، يصل إلى الأغراض من أقرب مسالكها ؛ فأعجب بذلك
قارئه وسامعوه ، فحاكوه في نهجه ، وإن لم يساموه في قدره ، وتهذبت
به اللغة أتم تهذيب ، فسهلت عباراتها ، ورقت أساليبها ، واستأنست ألفاظها ،
إذ سن لها نوعا من التعبير لم تنهجه ، فكان فتحا جديدا فيها بالفاظه
وأساليبه ، كما كان فتحا جديدا في العالم كله ، بهديه وتقويمه وتأديبه .
وأثر ذلك في ألفاظ الخطابة واضح غير خفي .

ثانيتهما :

أن الخطباء قد أخذوا ينهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال ، إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الإقناع الخطابي ، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم مالا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها ، إذ تجد فيها استقامة المعنى ، إذا قسته بمقياس المنطق ، فتجد المقدمات قد تلاءمت مع نتائجها ، وتوافرت فيها شروط الإنتاج ، كما تجد فيها جمال اللفظ ، وجودة الأسلوب ، ومخاطبة الإحساس ، وإثارة الرغبة . اقرأ قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » تجد الدقة المنطقية وجمال اللفظ ، ومخاطبة الوجدان ، قد اجتمعت مع حسن الإيجاز فتعالت كلمات الله سبحانه وتعالى .

وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك ، فوجدوا فيه معلما لطرق الإقناع والاستدلال ، لا يقاضيه أجرا ، فتأثروا بطريقته ، واقتبسوا من عباراته وشاع بينهم الاقتباس منه ؛ حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شيء من القرآن الكريم .

قال الجاحظ : كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن الكريم ، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالشوهاء ، ففي الحق وجد الخطباء المثل الأعلى في الكتاب العزيز ، فنهجوا نهجه في الإقناع ، وإقامة الحجة ، واقتبسوا من لفظه ، واستعانوا بروحه ، فحيوا في بلاغتهم وخطبهم حياة جديدة .

الحديث النبوي الشريف :

كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو الكلام الذي يلي منزلة القرآن الكريم احتراماً وإجلالاً ، وقد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء ، بلغ من البلاغة الذروة ، ووصل من الروعة إلى القمة ، هو جوامع الكلم ، وفيه روائع الحكم ، هو القول الفصل ، لافضول فيه

ولا تزيد، أخذ من القرآن الكريم، وأوحى إليه به الرحمن ، لكلامه جلال
لاتجده في سواه ، وتحيط به هالة روحية ، تحس منها بشعاع النبوة ، ولو
أن كلامه عرض عليك منسوباً لغيره لأنكرت النسبة ، ورددت الحق إلى
نصابه ، وقد أثار ذلك روح العجب ، والإعجاب في أصحابه ، حتى قال
له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ،
فما سمعت أفصح منك ؟ فمن أدبك ؟ » فقال عليه الصلاة والسلام :
« أدبى ربى ، فأحسن تأديبى » .

وقد قال الجاحظ في وصف كلامه صلى الله عليه وسلم : هو
الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ،
ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى : « قل (يا محمد)
وما أنا من المتكلفين » فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب
التقدير ؛ استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع
القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن المجين السوقي ، فلم ينطق
إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ،
ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ،
وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام .
وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط
له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا
أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتبس
إسكات الخضم إلا بما يعرفه الخضم ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج (١)
إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة (٢) ولا يستعمل المواربة ، ولا يهز ولا يلمز (٣)
ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام
أعم نفعاً ، ولا أحسن لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهبا ، ولا
أكرم مطلباً ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ،

(١) الفلج : الظفر والقفوز .

(٢) الخلافة : الخديعة في القول .

(٣) يلزم : معناه يغتاب .

ولا آيين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم ثم قال بعد ذلك :
ولعل بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن
أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ، ما ليس عنده
ولا يبلغ قدره . كلا ! والذي حرم التزيد على العلماء ، وقبح التكلف عند
الحكماء ، وبهرج (١) الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من
ضل سعيه .

وقد كان للحديث أثران في الخطابة :

إحدهما : من ناحية تأثيره في اللغة :

(أ) لأن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعاني ، وثروة من
الأساليب ، التي كانت تعد من النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً وابتكاراً
مثل قوله : « حمى الوطيس » ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام :
« المضعف أمير الركب » ، وقوله : « مات حتف أنفه » ، وقوله :
« هدنة على دخن » ، وقوله : « لا ينتطح فيه عزان » وقوله « لمن ساق
إبلا بعنف ، وعليها نساء » وقوله عليه الصلاة والسلام : رويك رفقا بالقوارير .
(ب) ولأن الحديث هذب اللغة تهذيباً قريباً من تهذيب القرآن الكريم
إذ سهل ألفاظها ، ورقق أساليبها وذهب بالخشوش منها ، فكان لكل
هذا أثره في الخطابة ؛ لأنها شعبة الأدب الأولى في ذلك العصر ، بل أعظم
شعبه وأظهر مظاهره .

لأنهما :

أن كثيراً من الخطباء كان يرطب لسانه في خطبه بشيء مما أثر عن
الرسول صلى الله عليه وسلم ، تيمناً بقوله ، واسترواحاً للسامعين وليكسبوا
كلامهم روعة ، وليستشهدوا بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم على صحة
ما يدعون ، وإذا علمت أن أكثر الخطب في ذلك العصر ، كانت تدور على
مبادئ الدين قوامها ، علمت مقدار عنايتهم برواية أحاديث رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، والاستشهاد بها في خطبهم ؛ فإن الحديث إذا صح عندهم كان فيه فصل الخطاب ، واعتقدوا أن الخطيب بروايته يصيب محز الصواب :

الحضارة :

أخذت الحضارة تغزو نفوس أولئك البدو ، ولكنها لم تستول عليها استيلاء تاما كما علمت ، فاجتمعت فيهم قوة البدوى ونخوته وبعض دماثة الحضرى ورقته وقد علمت أسباب ذلك فيما بيناه من شرح أحوالهم الاجتماعية وبقي أن تعرف أثر ذلك في خطبهم .

كسبتهم تلك الحضارة ، سهولة في التعبير لم تكن فيهم ، إذ هذبت من طباعهم ، وقللت من جفوتهم وخشونتهم ، فلانت من غير ضعف وابتدال عباراتهم ، كما كسبتهم سعة الخيال ، وغزارة في المعاني وعرفانا تاما بما تقتضيه الأحوال ، وقد كسبهم اختلاطهم بالأمم ، وهم ذووا الذكاء الفطرى ، والفراسة القوية ، معرفة كثيرة بأحوال النفوس فاستخدموا كل ذلك في خطبهم ، وبدأت غزيرة المعاني متنوعة الموضوعات وافية فيما يقصد إليه الخطيب من غرض ، وما يتجه إليه هدف ومرمى .

تكوين حكومة نظامية :

كان تكوين الحكومة الإسلامية عاملا عظيما من عوامل اتساع موضوعات الخطابة ، فقد كانت هى أداة اتصال الحاكمين بالمحكومين ، بها اتصل الخلفاء بالشعب في خطبهم العامة ، وبها اتصل الولاة في الأقاليم بمن يحكمونهم ، بين هؤلاء وأولئك ما يريدون أن يكون المحكومون عليه من طاعة في الحق وإرشاد للحاكم من غير تمرد أو عصيان .

الوعظ الدينى :

كان الوعظ الدينى له الشأن الأول ، لأن الدين كان أساس وحدتهم ، وجامع كلمتهم ، ومكون دولتهم ، ولذلك كان له الاعتبار الأول ، وقد

حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعله قوام هذه الأمة ، ومناط عزها ، وطريق ارتقائها ، قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وقد كانت الخطبة فرضاً في الجمعة لذلك الغرض ، فكان للخطابة من ذلك المبدأ الديني السامي ، مبدأ التواصي بالحق ، والتناهي عن الشر ، رقى أى رقى ، وسمو عظيم ! إذ جعلت من شعائر الدين ومظاهره القويمة .

الألفاظ والأساليب والمعاني

(١) الألفاظ :

صفت ألفاظ الخطابة ، وسهلت ، ورقت وعذبت وذلك لتأثيرهم بالقرآن الكريم ، واقتفائهم طريقه ، وسلوكهم سبيله ؛ إذ رأوه المثل الأعلى للكلام ، فحاكوه ، وإن لم يتساموا إليه ، ولأن نفوسهم هذبت ، وألان الإسلام من جفوتها ، ونهته من شدتها ، وبدلها مكان القسوة رحمة ، ومكان العنف رفقاً ، حتى إن الرجل الذي كان يثد ابنته ، فلا ينشق قلبه لها يعطف ؛ أصبح بالإسلام يسمع كلمة الحق ، فتتحدّر عبرته ؛ وتلذذ نفسه حشرات ؛ وإذا رقت النفس وسهلت ، لا يصدر عنها إلا العذب السهل من الألفاظ ؛ فإن الكلمات صورة حية للنفس التي تجيش بها ، ولأن الله سبحانه أورثهم ملك كسرى وقيصر ، فجاءتهم الغنائم ، وأصبحوا فاكهين في نعيم ، بعد أن كانوا في شظف من العيش ، وخشونة من الحياة . ولقد قال خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم متنبئاً بما يكون : والله لتألن النوم على الصوفي الأذربي ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان ، وقد كان أن نال العرب من نعيم الحياة أشطرا ، بعد أن ذاقوا من الشقوة أبؤسا . وتلك الحال التي تنبأ بها ذلك الإمام العظيم ، لم تتم في ذلك العصر ، وإن اتخذت خطواتها فيه .

وإذا كان العربي قد ذاق هذا النعيم ، ورأى مناظر الترف ، وعاش في مشاهد ، فلا بد أن تلبس ألفاظه ، وتسهل عباراته ، لأن الألفاظ صورة لما يألفه القائل ، ويعرفه المتكلم .

٢ - ولقد ذهب من الألفاظ الغريب الحوشي لاجتماع العرب على لغة واحدة هي لغة قريش ، وذهاب اللغات الأخرى ، فلم يبق منها إلا النادر من الألفاظ والأساليب ؛ ولأن الخطابة كان عمادها في الإسلام المؤلف المكشوف ؛ لأن الغاية كانت ، إما إفهام السنن والأحكام والشرائع ، وإما الحث على الجهاد ، وإما المشاورة وإبداء الرأي والنصيحة للإمام ، وكل هذا يقتضى الوضوح والسهولة .

وكانوا بمقتضى تعاليم الإسلام أبعد الناس عن الأغراب والتوعر ، والتفهيق والتشادق ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، « أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون » ، لذلك كان المسلمون يميلون إلى التكلم في خطبهم بكلام يشبه الكلام العادى في سهولته ، وعدم تكلفه ، لولا انسجام في التعبير ، ولولا التحميد والبسمة والثناء على النبي صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك من الأمور التي اختصت بها الخطبة . كما سنين إن شاء الله تعالى .

المعاني :

إن المعاني الخطابية سلك مسلكا يتفق مع الحياة الإسلامية في مظاهرها التي سبق بيانها ؛ إذ أن تلك الحياة هي التي وجهت الخطابة وجهتها ، وهي التي استوحت الخطابة منها معانيها .

وقد كانت المعاني دينية ، فخطبهم في الحروب ، دعوة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ، وإعلاء لكلمته ، ورفع لدينه ، ونشر لدعوته وخطبهم في الشورى صورة لفهمهم الدين ، كل يدلي بالرأى ويربط دعواه بالمبادئ الدينية . وخطبهم في الاجتماع والألفة أدلتهم فيها القرآن الكريم والسنة ، والمبادئ الإسلامية المعروفة من الدين بالضرورة . وهكذا كل

أغراضهم الخطائية ، الدين فيها قطب الرحي ، وعليه يدور كلامهم ، وفيه يختلفون ، وبه يتفقون ؛ وذلك لأن الدين قد تغلغل في كل مظاهر حياتهم ، كما أسلفنا لك ، وكان هو المسيطر على ضمايرهم ، والقانون الخلقى الذى إليه يحتكمون ، والشرع الذى على مقتضاه يسرون ، ولأن كتاب الله وسنة رسوله ، كانا ينبوع المعرفة الذى إليه يردون ، وعنه يصدرن ، فلم يكن لهم علم إلا علم الكتاب ، ولا معرفة إلا من سترسول صلى الله عليه وسلم وهديه ، فلا عجب إذا صارت معانى الخطابة كلها دينية خالصة .

وقد كان الخطباء يسلكون فى الاستدلال الخطابى الطريق المنطقى ، والطريق الوجدانى ، وذلك لتأثرهم طريق القرآن الكريم فى الاستدلال وأخذهم من معانيه ، ونيلهم من هديه ، إذ كان المثال الذى يحتذونه ، والمنار الذى يهتدون به .

واقراً خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى سقيفة بنى ساعدة ، ترى فيها الدليل المنطقى ، قد التقى مع الدليل الوجدانى ، وأحكمت الأواصر بينهما ، من غير أن يطنى أحدهما على الآخر ، واقراً خطب الفاروق عمر رضى الله عنه فى شوره ، وخطب من يوافقونه ، أو يردون عليه ، ترى الحقائق المنطقية ، قد صيغت فى قالب دينى يثير الوجدان ، ويوقظ العاطفة ، ويلهب الحمية ! وهكذا فى كل أغراضهم البيانية ، لأن حماسة الدين تجتمع مع الحقيقة ، فتتمدها بحرارة الإيمان ويقظة الوجدان ، وقوة الإحساس .

وكانت المعانى لما سبق قوية التأثير فيمن يخاطبون ، إذ توافرت فيها شروطه ، وتكاملت أسبابه ، وهما الدقة فى الفكر والاستنباط ، وإثارة العاطفة ، وإنهاض العزيمة .

وكانت المعانى سلسلة متصلة الأجزاء ، محكمة الأواصر ، ولم تكن منتثرة ، كما كانت فى العصر الجاهلى ، ولعل السبب فى ذلك اجتهادهم فى صوغ كلامهم صياغة استدلالية ، لينتج النتائج التى يريدونها ، واتساع معلوماتهم بسبب ذلك الدين الجديد ، ووحدة الغرض الذى جعلوه هدفاً

لكلامهم ؛ يصوبونه إليه ؛ لينالوه ، وإنك ترى ذلك الإحكام ، وهذا التماسك واضحاً في أكثر خطب ذلك العصر ، خصوصاً خطب الإمام على رضى الله عنه ، وأقرأ خطبته عندما استشار الفاروق عمر الصحابة في غزوه فارس بنفسه ، ترى التماسك بين أجزاء القول ، وأخذ بعضه بحجز بعض ، واضحاً كل الوضوح !

وعدم المبالغة والإغراق واضح كل الوضوح في الخطابة الإسلامية ؛ ذلك لأن الخطباء الإسلاميين من العرب الذين امتازوا بالصراحة والصدق ، وهما صفتان تتنافيان مع المبالغة والإغراق ، ثم هم قد امتازوا باستقامة الفكر ، وسلامة النفس ، والإغراق ليس إلا مظهراً للشطط الفكرى ، ومجازة حد الاعتدال البيانى ، وهو من نوع التفهيق الذى نهى عنه الدين ، ولهذا باعدوه ، وتجاافوا عنه ؛ لأنه لا يتفق مع الهدى القويم ، والسنن المستقيم .

الأسلوب :

إن الأسلوب الخطابى في العصر الإسلامى بلغ من الإحكام مبلغاً سما عن أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة ، أو ينهد إليه خطباء أى زمن سابق أو لاحق لذلك العصر .

وأول ما يلاحظه القارئ لخطب ذلك العصر أن الخطبة صارت مجزأة ومقسمة ، كل قسم يلحق سابقه ، تبتدى بمقدمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى ، ويثنى عليه بما هو أهله ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يهجم على الموضوع ، فيقدم ما يراه دليلاً لدعواه ، وبرهاناً لما يراه ، وبعد أن يتم القول فيه ، ويوفى على الغرض يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، يدعو أن يوفقه إلى الرشاد ويلهمه السداد . ولبعض الخطباء صيغة دعاء ينحتم بها قوله . قال ابن عبدربه : كان آخر كلام أبى بكر الذى إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته : اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك .

وكان آخر كلام عمر الذي تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : اللهم لا تدعني في محرة ، ولا تجعلني من الغافلين .

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، والاستدلال بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يعتمدون إلى الحديث ، فينهلون من نيره ، ويتجهون إلى الآية القرآنية ويرطبون بها كلامهم ، فيكون فيها فصل الخطاب ، وقطع كل جواب واعتراض ، وإذا علمت أن كل معانيهم دينية ، علمت مقدار قوة الحديث الشريف والقرآن الكريم في استدلالهم ، وفصلهما في خصوماتهم ففيهما فيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وصحيح الآراء وسقيمها .

وفوق ذلك ، فالكتاب الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، فهما من البلاغة والفصاحة والروعة واللفظ الجزل والأسلوب الرائع ، والمحكم من المعاني ما علمت ، فاتجهوا إلى الاقتباس منهما ؛ ليكسبوا كلامهم طلاوة وليعطوه حلاوة ، وليقتبسوا من القرآن الكريم والحديث الشريف قوة في التأثير ، وريناً في الآذان ، ورهبة في القلوب ، وجلالاً في الأنفس ، وبهجة في المشاعر ، وقد تعلقوا الآية القرآنية بالخطبة فترفعها إلى الذروة من البيان والقمة من التأثير ، وبلوغ المقصد من أقصر طريق ، وأقرب مهيع ، ولذا أكثر الخطباء من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، حتى صار ذلك عرفاً شائعاً .

وقد نقلنا آنفاً عن الجاحظ ما حكى من أن الخطبة تسمى شوهاء ، إذا لم تجمل بآية من كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقال في مقام آخر : كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع ، آى من القرآن الكريم ؛ فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وحسن الموقع .

وفوق أنهم كانوا يستشهدون ويقتبسون من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة قد أخذوا يحاكونها في مناهجها الكلامية ؛ ويسيرون

سيرهما من غير تسام إلى منزلتهما البلاغية ، وذلك طبعى ، فإن الإنسان إذا وجد أمامه مثلاً كاملاً ، اجتهد في محاكاته ، وإن لم يبلغ مبلغه ، ولم يصل شأوه

وقد يحمل الخطب أحياناً بآيات من الشعر تناسب المقام ، وتتصل بالموضوع ، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه في خطبته في الأنصار ، إذ قال :

يا معشر الانصار ، لو شئتم أن تقولوا : إنا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، لقلتم ؛ وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد ، وإن طال به الأمد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى يشكر جعفرأ :

جزى الله عنا جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فرلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذى يلقون منا مللت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلت

عدم التكلف : وكانوا لا يعمدون في خطبهم إلى التحسين والتزين ، ولا يكاد يمتاز كثير من خطبهم عن لغة التخاطب ، إلا بهذه العناية التى يقصد إليها الإنسان عندما يريد اجتذاب السامعين إلى فكرة أو مذهب أو رأى ، ولم يكن الذوق العام الأدبى في ذلك العصر يجيز تكلف التحسين .

ويروى أن الأحنف بن قيس وفد على عمر بن الخطاب ، فتكلم بكلام خلاب ذهب فيه كل مذهب ، فكان جزاؤه عنده أن حبسه عن الرجوع إلى بلده حولاً وبضعة أشهر ، ثم دعاه إليه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافق صنع اللسان ، وإنى خفتك ، فاحتبستك ، فلم يبلغنى عنك إلا خير .

وللرغبة في عدم التكلف والتزين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشادق ، والتفنيق ، وسجع الكهان .

وقد قل السجع في ذلك العصر ؛ لأن النفس العربية الأمية كما بينا كانت تميل إلى عدم التكلف والصنعة . وزاد الخطباء ابتعاداً عن السجع نهى

النبي صلى الله عليه وسلم عن سجع الكهان ، فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ : قالوا : فقد قيل للذي قال يا رسول الله : رأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ؛ أليس مثل ذلك يطل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . وقد كان السبب في نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من السجع فوق أنه تكلف كما ذكره الجاحظ في قوله : إن كهان العرب كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وإن مع كل واحد منهم رثياً ، من الجن ... قالوا فوقع النهى في ذلك ؛ لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

هذا وقد رأينا في نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على رضي الله عنه سجعاً كثيراً فشك كثير من الأدباء في نسبته إلى الإمام على إذ رأى الخطب ذات السجع الكثير المشتمل عليها ذلك الكتاب لا تتفق مع المعروف من عدم التكلف في ذلك العصر ، وعدم القصد إلى تحسين الكلام تحسیناً متكلفاً كما لا يتفق مع ما عرف عنهم من قلة السجع في خطبهم ، وعاب بعض الأدباء المتعصبين على عليّ كرم الله وجهه ذلك السجع ؛ للانتقاص من فضله ، وقد رد عليهم ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة ، فقد جاء فيه : فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين . فأما التكلف المستحسن ، فأى عيب فيه ؛ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك . . . وقد بينا أن كثيراً من كلامه (صلى الله عليه وسلم) مسجوع ، وذكرنا خطبته (خطبة الوداع) ، ومن كلامه عليه الصلاة والسلام المسجوع خبر ابن مسعود ، رحمه الله تعالى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : استحيوا من الله حق الحياء ؛ فقلنا إنا لنستحيي يا رسول الله من الله تعالى ، فقال : ليس ذلك ما أمرتكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

ومن كلامه المشهور لما قدم المدينة المنورة عليه الصلاة والسلام أول قدومه إليها قال : : أيها الناس أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . ونحن نوافقه في أن السجع القبيح ما كان التكلف فيه واضحاً تظهر سماجته ، ولكن نخالفه في أن كثيراً من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كان مسجوعاً ؛ فإن ذلك هو القليل ؛ إذ أن خطبه صلى الله عليه وسلم بين أيدينا وأحاديثه قد جمعتها كتب السنة الصحيحة ، فهل يستطيع أحد أن يدعى أن السجع يصل في كلامه عليه الصلاة والسلام إلى عشره ، حتى يصح أن يقال إن السجع كان كثيراً ، بل الأغرب والأكثر عجباً أن يقول ابن أبي الحديد إنه في أكثر خطبه صلى الله عليه وسلم .

فان الحق الذي أجمع عليه مؤرخو الآداب أن السجع قليل في خطب ذلك العصر ، وأن تلك القلة واضحة في خطب النبي عليه الصلاة والسلام وفي كلامه ، والحكم الذي لا ترد حكومته هو الرجوع إلى ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام ، والموازنة بين مقدار المسجوع وغير المسجوع ، فسنجد حتماً أن المسجوع قل ، والكثرة غير مسجوعة .

طول الخطب وقصرها :

أكثر الخطب المروية عن هذا العصر قصير لا طويل ، فيه الإيجاز أظهر من الإطناب ، ولعل هذا الموجز جزء من خطبة طويلة حفظ هذا الجزء ، وتبعثر الباقي في الأسماح ، أو لعل الموجز من الخطب هو الذي استطاع أن يحفظه الراوى ، لسهولة حفظه وجودته أكثر من سواه ؛ لأن رواية الخطب في هذا العصر كسابقه ، كان المعول فيها على الرواية السماعية ، لا على الكتابة ؛ إذ لم تكن الكتابة قد انتشرت ، ولأن الخطباء لم يعمدوا إلى كتابة خطبهم ، ولم يعمد الناس إلى كتابتها ، لعدم اعتيادهم ذلك ، ومع هذا ففي المروى خطب طويلة كخطبة حجة الوداع المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثير من خطب الإمام على رضى الله عنه التي صحت نسبتها إليه ،

وكبعض خطب الشهيد المقتول عثمان رضى الله عنه عندما اندلعت نيران الفتنة واشتدت وكخطب الفاروق عمر رضى الله عنه في بغض شوره ، كخطبته في أرض سواد العراق ، وكل هذا يثبت أن الخطب في ذلك العصر فيها القصير ، وفيها الطويل ، وقد كانوا يضعون الأمور في موضعها ، فلا يطيلون في غير مواضع الطول ، ولا يوجزون في غير مواضع الإيجاز ، وهم في الحقيقة أميل إلى الإيجاز ، أخذاً بأهداب الدين ، وتمسكاً بأوامره ، ولا يطيلون إلا عندما تضطروهم الحاجة إلى الإطالة ، ويحملهم الموضوع والمقام على الإطناب ؛ فيطنبون غير مختارين ، لأنهم كانوا يخشون أن يكون التطويل من باب اختيار المجالس ، والتشادق ، والتفهيق ، والثرثرة المنهى عنها ، ولأن الإنسان كلما كثر لفظه كثر سقطه ، فيخافون السقط لأنهم ذوو القلوب النيرة ، والنفوس المطمئنة .

يروى أن عمار بن ياسر تكلم يوماً ، فأوجز ، فقليل له لو زدتنا ، فقال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة ، وقصر الخطبة ، وورد في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام قال : إذا وعظت جندك ، فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً .
وسنأتي لك في المختار لصورتي الموجز والمطنب معاً .

الخطيب في صدر الإسلام

انصف الخطيب الإسلامى بما انصف به الخطيب الجاهلى من فصاحة بيان وجودة نطق ، وسداد رأى ، ومراعاة لمقتضى الحال وسمت ووقار ، وقوة شخصية ونفوذ وقوة نفس ، وقد كمل الإسلام هذه الصفات فيه ، وزاده أخرى ، فالخلفاء الراشدون ، ومن لهم بهم شبه فى الدين والإيمان ، فيهم قوة النفس وقوة الروح بمقادير لا توزن بها أقدار الجاهليين ، وحسبك أن تعلم أن قوة نفس أبى بكر رضى الله عنه ، ونفوذه الشخصى ، وما وهبه الله من قوة تأثير هى التى جمعت الوحدة الإسلامية إذ شارفت التمزق ، وقد كان عمر لا يسير الشيطان فى طريق يسير هو فيه ، كما جاء فى الأثر ؛ لمهابته ، وقوة نفسه ، وعظم روحه ، حكم العرب بالهبة والدين ، وردعهم بنفسه من غير سيف ، ولا ما يشبه السيف ، كان إذا لاحظ على أحداً أمراً ضربه بدورته ؛ فتفعل فى نفسه ما لا يفعله السيف فى الجسم ، والمهابة على ما بينا أعظم ما يعاون الخطيب على اجتذاب النفوس إليه .

وقد زادوا بالإسلام علماً ، إذ وجدوا فى القرآن الكريم ينبوعاً علمياً لا ينضب ، ووجدوا فى السنة معينة فكراً لا يحف ، واختلاطهم بالناس زادهم علماً بأحوال النفوس ، وخبرة بمواضع التأثير ، فعلم الخطيب الصحابى أغزر من علم الخطيب الجاهلى ، وفكره أوسع ، ونظره أشمل وأعم ، وشتان بين هدى الجاهلية ، وهدى الرحمن ، وشتان بين عابد الأوثان ، والخاضع للديان .

والخطيب الإسلامى قريب إلى النفوس ، غير بعيد عنها ، لأن أولئك القادة والصفوة المختارة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، كانوا يحبون الله ويحبهم ؛ وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، ومن أحبه الله ألقى عليه محبة الناس ، ومن تواضع مع المهابة وقوة النفس أحبه الناس ، وهابوه ؛ فيكون تأثيره فيهم أشد ، وقوله أروع .

وكان الخطيب الإسلامى تهذيب الدين له ، ومخالطة بشاشة الإيمان لنفسه ، حلما واسع الصدر ؛ لا يضيق صدره بالحق حرجا ؛ فلا يمتنع عن أخذ الحقيقة من أى قبيل ، ولا يجد غضاضة فى الرجوع إلى الحق إن وقع فى الباطل ، ومن كان شأنه كذلك اتصل كلامه بالقلوب ودخل على العواطف ، لأن الناس يثقون من أنه لا ينطق إلا بما يجيش به صدره ، وما يراه الحق ، فيصدقونه ، إذ خلا عن شبهة التكلف والرياء ، وعن تهمة الملق والنفاق .

كان الخطباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قد اشتهروا بحبهم للقاء ، فدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآثروا على كل عرض من أعراض الحياة ، ورغبة من رغبات النفوس ، قد أحبوا الله ورسوله أكثر من أنفسهم ، وارتخصت أرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وليس منهم إلا كل ندب محتسب نفسه لله ورسوله ، كانوا كذلك فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا كذلك من بعده ، ومن كان شأنه كذلك وثقت به القلوب ، وتعلقت به النفوس ، والثقة بالخطيب تسهل وصول كلامه إلى مواضع التأثير فى السامعين ، فيصل كلامه إلى شفاف القلوب ، ويفتح مغلقها .

والقول الجملى : أن الخطيب الإسلامى قد ادرع بصفات ترفعه إلى أسمى منازل خطباء العالم فى كل العصور .

الخطباء والمروى من الخطب

كثر عدد الخطباء التابعين في هذا العصر كثرة لا تعدلها كثرة في أى عصر من عصور الخطابة ، وإمامهم سيد المتكلمين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودونه منزلة أفواج من الخطباء ، أولهم على بن أبى طالب ، ثم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الله بن عباس ، وبلى هؤلاء كثيرون منهم عمرو ابن معد يكرب الزبيدي ، ومن خطباء الشيعة صعصعة بن صوحان وأبو الأسود ، ومن خطباء الخوارج عبد الله بن وهب الراشبي ، ويزيد بن عاصم المحاربي وغيرهم ، وقد توج هذا العصر بوجود عدد عظيم من النساء يجدن الخطبة والبيان ، منهن السيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وسودة بنت عمار ، وأم الخير بنت الجريش ، والزرقاء بنت عدى ، وأم كلثوم بنت الإمام على رضى الله عنهما ، وغيرهن كثير .

ولم يكن المروى بمقدار كثرة الخطباء ، وإن كان كثيرا في ذاته ؛ وذلك لأن التعويل في الرواية كان على السماع ، وقد يتبعثر في الآذان ما يعول فيه على السماع ، ولا يصل إلى الأجيال ، وهذه خطبة الوداع مع الحاجة إلى روايتها ؛ لما اشتملت عليه من الشرائع والأحكام ، قد رويت بعدة روايات ، اختلفت فيها بعض الألفاظ ، وإذا كان ذلك هو الشأن في المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع منزلة كلامه الشرعية والبلاغية ، وله من الاعتبار والتقدير ما نعلم ، فكيف يكون الشأن في كلام غيره ، ممن لا يتسامى إلى منزلته صلى الله عليه وسلم بيانا واعتبارا :

المختار من خطب هذا العصر

خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار .

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مغنم حنين قريشاً والقيائل العربية ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، حزنوا في أنفسهم ، وظنوا أنهم هانوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، فدخل سعد بن عبادته على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ؛ لما صنعت في هذا النىء .
 ى : صبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار شيء . قال صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لى قومك في الحظيرة (١) فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون ، فردهم ، فلما اجتمعوا إليه ، أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه بالذى هوله أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ماقالة (٢) قد بلغتني عنكم ، وموجدة وجدتموها في أنفسكم . ! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة (١) فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، لله ولرسوله المن والفضل ، فقال : ألا تنجيونى يا معشر الأنصار . ! قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فصدقتم ، ولصدقتم أنيتنا مكذباً فصدقناك ، ونخذولا فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . وجدتم

(١) أرض عليها سور . وكانت حظيرة الأنصار بجوار متجة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) القالة : حديث الشر

(٣) عالة : جمع غائل وهو الكثير العياله قليل المال .

فى أنفسمكف فامعشر الأنصار فى لعاعة (١) ، من الدنيا تألفت بها قوماً لفسلموا
وكلنكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون فامعشر الأنصار أن فذهب الناس
بالشاة والبفر ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكف ، فوالذى نفس محمد ففده
لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار
شعباً (٢) لسلك شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار
وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا (٣) لحافهم ، وقالوا :
رضفنا برسول الله صلى الله علفه وسلم قسماً وحظاً .
ثم انصرف رسول الله صلى الله علفه وسلم .

(١) اللعاعة : البقية اليسرة :

(٢) الشعب : طرفق بفن الجبلفن .

(٣) أخضل لخته : بلها :

خطبة الوداع

إن الحمد لله نحمده ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذي هو خير .

أما بعد . أيها الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فإنني لا أدرى ، لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت . اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (١) وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر (٢) الجاهلية موضوعة ، غير السدانة ، والسقاية . والعمد قود (٣) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بغير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ، إنما النسيء (٤) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحرمونه

(١) موضوع يعنى ساقط ، فلا يؤدي الزائد من رأس المال لأن الربا معناه الزيادة .

(٢) المآثر جمع مآثرة ومآثر الجاهلية مفاخرها التي تؤثر ويروى حديثها وخبرها .

(٣) القود : قتل النفس بالنفس .

(٤) النسيء : شهر كانت العرب تزيده لتفصل بين شهرى الحرم ذى الحجة والمحرم

بشهر حلال .

عاما ، ليوطثوا^(١) عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ، وواحد فرد ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت . اللهم ، أشهد .

أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(٢) وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين ، وأطعنكم ، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان^(٣) ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد . فلا ترجعهن بعدى كفارا . يضرب بعضكم أعناق بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ، كتاب الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم ، أشهد . أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت . قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس إن الله

(١) ليوافقوا .

(٢) المراد بالفضل هنا المنع الشديد .

(٣) العوانى جمع عانية والمعنى أسيرة .

قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش . وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة ، والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله .

خطبته ﷺ في مرض الموت

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده ، حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد في الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

أما بعد . فإني أيها الناس ، أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا مني خفوق^(١) من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري ، فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا ، فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشحاء من قبلي ، فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقا إن كان له ، أو حللني ، فلقيت ربي وأنا طيب النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغن عني ، حتى أقوم فيكم مرارا .

خطبة سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة

بين حق الأنصار في الخلافة

قال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه : يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن حمدا عليه الصلاة والسلام ، لبث بضع عشرة سنة في قومه ، يدعوهم إلى عبادة

(١) الخفوق هنا الغياب .

الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قومه ، إلا رجال قليل
وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ، أن يحرروا دينه ،
ولأن يدفعوا عن أنفسهم ضياعا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق
إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ،
والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد
على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها ،
وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا (١) حتى أثنى (٢) الله عز وجل لرسوله
بكم الأرض ، ودانت بأسيا فكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ،
وبكم قريش عين ، استبدلوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

خطبة أبي بكر في السقيفة

يبين حق المهاجرين

أراد عمر الكلام فقال أبو بكر : على رسلك ، ثم حمد الله واثني عليه
ثم قال : أيها الناس : نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاما ، وأكرمهم
أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة
في العرب ، وأمسهم رحما برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في
القرآن الكريم عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار
إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم ،
وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب
إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفوسوا على إخوانكم ما منحهم الله
من فضله .

(١) الداخر الدليل .

(٢) أثنى المراد بها هنا أخضع .

خطبة أبي بكر رضى الله عنه

حين أشير عليه بترك المرتدين

أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله لا يموت ، أيها الناس ، ألان كثر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب . والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون ، قوله الحق ، ووعد الصديق ، بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

أيها الناس ، والله لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده ، حتى أبلغ من نفسى عنذرا ، أو أقتل مقتلا ، أيها الناس والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت بالله ، إنه خير معين .

خطبة عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

خطب عمر بعد توليه الأمر فقال : إن الله عز وجل قد ولانى أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإني أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده ، كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قسمكم كالذى أمرنى به . وإنى امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئا إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل . وليس للعباد منها شىء ، فلا يقولن أحد منكم : إن عمر تغير منذ ولى ، أعقل الحق من نفسى ، وأتقدم وأبين لكم أمرى ، فأيا رجل كانت له حاجة ، أو ظلم مظلومة أو عتب علينا فى خلق ، فليؤذنى ،

فلما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم ، وحرمانكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عنتكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع ، إلا ماجاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما يحضرتني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله .

خطبة أخرى

لعمر بن الخطاب

أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن الكريم فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني خازناً وقاسماً . إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فاعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي ، ثم بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة ، أبطأ عنه العطاء ، فلا بلو من رجل إلا مناخ راحلته . إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي ، فابتليت بكم ، وابتليت بي وإني لن يحضرن من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة ، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنككن بهم .

خطب عثمان وطلحة وعلي

عندما استشار عمر المسلمين في خروجه

على رأس الجيش إلى فارس

جاء في تاريخ الطبري وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن عمر
رضي الله عنه استشار المسلمين لما أراد أن يخرج إلى العجم وجيوش
كسرى ، وهي مجتمعة بنهاوند .

خطبة عثمان :

فقام عثمان فتنهد وقال : أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل
الشام ، فيسيروا من شامهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ، فيسيروا من
يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصريين البصرة والكوفة ،
فتلقى جمع المشركين يجمع المسلمين ، فلذلك إذا سرت بمن معك ، ومن
عندك ، تكن في نفسك بالكافر من عدد القوم ، وكنت أعز عزا وأكثر .
إنك لا تستبقى من نفسك بعد اليوم باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزير ،
ولا تكون منها في حرز حرير . إن هذا اليوم له ما بعده ، فاشهده بنفسك
ورأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

خطبة طلحة :

ثم قام طلحة فقال : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ،
وعجمتك البلايا ، وحنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ،
لا ننبؤ في يدك ، ولا نكل أمرنا إلا إليك ، فأمرنا نجب ، وادعنا نطع ،

واحملنا نركب ، وقدنا نقد ، فإنك ولى هذا الأمر ، وقد بلوت ، وجربت ،
واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

خطبة على :

ثم قام على ، فقال : أما بعد ، فإن هذا الأمر لم يكن نصره ، ولا
خذلانه بكثرة ولا قلة ، إنما هو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعزه
وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ . فنحن على موعود من الله ، والله منجز
وعده ، وناصر جنده . وإن مكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ،
ويمسكه ، فإن انحل تفرق ما فيه ، وذهب ، ثم لم يجتمع بخدافيره أبدا .
والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلا ، فإنهم كثير بالإسلام ، أقم مكانك ،
واكتب إلى أهل الكوفة ، فإنهم أعلام العرب ورؤساؤهم وليشخص منهم
الثلاثان وليقم الثالث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم ،
ولا تشخص الشام ولا اليمن ، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم ،
سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت
الحبشة إلى ذراريهم ، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك
العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين
يديك من العورات والعيالات . إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا ، قالوا
هذا أمير العرب وأصلهم ، فكان أشد لكليهم عليك . وأما ما ذكرت
من مسير القوم ، فإن الله أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير
ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى
بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر (١) .

فقال عمر : أجل هذا رأى ، وقد كنت أحب أن أتابع عليه .

(١) تقدمت هذه الخطبة في القسم الأول من الكتاب برواية أخرى .

خطبة عثمان بن عفان

رضي الله عنه

خطب سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما عاب حكمة بعض الناس ،
وجاءوه متظلمين شاكين ، فقال بعد أن حمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما
هو أهله :

أما بعد ، أيها الناس ، فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جئت
شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكن منتهى نفسي ، وكذبتي ، وضل عني رشدي :

ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من زل فليتب ، ومن أخطأ
فليتب ، ولا يتأدى في الهلكة ، إن من تمادى في الجور ، كان أبعد
من الطريق » .

فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت . وأتوب إليه ، فمثلني نزع
وتاب ، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم ، فليروني رأيهم ، فوالله لئن ردني
الحق عبداً ، لاستن بسنة العبد ، ولأذلن ذل العبد ، ولأكونن كالمرقوق ،
إن ملك ضبر ، وإن عتق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فلا يعجزن
عنكم خياركم أن يدنوا إلى ، لئن أبت يمينا لتتابعني شمالي . فرق له الناس ،
وبكى بعضهم .

خطبة لعل بن أبي طالب

في الحث على القتال

خطب على ليلة التقى جيشه جيش معاوية في صفين ، فقال : الحمد
لله الذي لا يبرم مانقض ، ولا ينقض ما أبرم ، لو شاء ما اختلف اثنان من

هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا جحد المفضلون ذا الفضل فضله ، وقد ساقطنا وهؤلاء القوم الأقدار ، حتى لفت بيننا في هذا الموضع : ونحن من ربنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء لعجل النعمة ، ولكان منه النصر حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم الحق أين مصيره ؟ ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا إنكم لاقوا العدو غدا إن شاء الله ، فاطلبوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، وألقوهم بالجحد والحزم ، وكونوا صادقين (١) .

خطبه أم الخير بنت الحريش

جاء في العقد الفريد أن أم الخير بنت الحريش البارقية خطبت في صفين تعرض جند علي بن أبي طالب على قتال معاوية ، فقالت : أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عيباء مبهمة ، ولا سوداء ملهمة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين ! أم فرارا من الزحف ! أم رغبة عن الإسلام ! أم ارتدادا عن الحق ! . أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم ، قد عيل الصبر (٢) ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب ، أزمة القلوب ، فاجمع

(١) قد تقدم كثير من خطب علي بن أبي طالب في القسم الأول من هذا الكتاب ، فارجع إليه فهو مما يصور الخطابه في صدر الإسلام .

(٢) يقال عال الشيء فلانا عليه فعيل الصبر معناه غلب .

الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، وأررد الحق إلى أهله .
هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل الرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها
إحن بدرية (١) ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين
الغفلة ، ليدرك بها ثارات عبد شمس . ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر لانهم
لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبرا معشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على
بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، وكأنى بكم قد لقيتم أهل الشام
كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج
الأرض ، (٢) باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعمّا قليل
ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين
مناص ، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة
ذهب إلى النار ، ثم قالت : قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ،
وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) الإحنة الحقد وجمعها إحن .

(٢) الفجح الطريق الواسع .

الخطابة في العصر الأموي

تمهيد :

هذا العصر هو ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث ، وطول مدة الخليفة الرابع ، أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر علي ، أو صدى لما كان فيها ، فالدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي نبت منها السلطان للأموية ، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشروعة ، والدم المهراق ، ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء ، وهتك الحرم ، فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية ، وقتل الحسين قتلة فاجرة ، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير ، واتساع سلطانه ، ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن خاض في الدماء خوضا ، ومرج فيها مرجا ، والخوارج الذين ظهروا في عهد علي رضي الله عنه ، تفاقم خطبهم ، واشتد أمرهم في ذلك العصر ، وكانوا شوكة حادة في جنب الدولة الأموية ، تمنعها من أن تنقلب في أعطاف النعيم الهادئ الساكن ، وأن تستسيغ لذة الملك صافية من غير أن ترنق بما يكدرها . والشيعا الذين ظهروا في آخر عصر عثمان رضي الله عنه قد اتسعت مذاهبهم ، وكثرت دعاويهم ، وتفرقوا فرقا ونحلا مختلفة ، وكانوا أحيانا يرفعون السيف ، ويدفعون أحد أولاد علي إلى الانتقاض فيذهب دمه على شفرات سيوف بني أمية ، كما فعلوا بزيد ابن علي ، وأحيانا يسكنون ، وينشرون بين الناس أفكارا ليست من الدين في شيء ، ومنها ما ينقض مبادئ الدين ، ويذهب بقوته .

وقد كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر ، ونقلوا إلى الناس صورة للسلف الصالح ، أهل السبق والإيمان ، كابن عباس ، وأنس ابن

مالك خادم رسول الله ﷺ ، والتابعون الذين شافهوا عليّ الصحابة ونقلوا عنهم - كان هؤلاء وأولئك رابطة اتصال بين ذلك العصر وما سبقه فكان متصلا به ، وإن لم يكن مثله قوة دين ، وثبات يقين ، وأخذاً بالسنن القويم ، والهدى الحكيم .

وفي هذا العصر لم يفن العرب في غيرهم ، ولم تلاشهم المدينيات والحضارات الأجنبية التي غزوها ، وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم ، بل كان الأمويون ذوى تعصب شديد للعرب والعربية ، وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة البادية ، وفصاحتها ولسنها ، فكانوا يرسلونهم ، والعود أخضر إلى البادية ، ليتفصحوا بفصاحة أهلها ، ويندوقوا شيئا من خشونتها ، ليتربوا على البأس والنجدة والهمة والنشاط ، وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقلوا فيه النقص حتى قال عبد الملك في ابنه الوليد : أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه إلى البادية ، لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة مختلطة بالبداءة .

ولئن كان التاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب ، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذوو السلطان ، فلن ينسى التاريخ أنهم صيروا الخلافة ملكا عضوضا ، يتوارث ، وأنهم غلبوا سياسة القهر ، وحاولوا نشر كل شيء من شأنه أن يبعد ملكهم عن منافسة المنافسين ، وطمع الطامعين ، ودفعهم الأمر إلى مجاوزة حد الاعتدال . وقد كان من أثر منازعة العرب لهم ، ومغالبتهم إياهم ، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم مناحرات بالسيف ، ومنازعات بالقول أفادت منها الخطابة أكبر فائدة ، وانتفعت منها أكبر النفع ، وسنفصل الأجمال فيما يلي :

الحياة العربية في العصر الأموي

الأحوال السياسية :

تطلع الأمويون للخلافة في وقت سادت فيه الفتن ، وتشنت فيه الإحن ، وركب كل امرئ رأسه ، اضطربت الحال على أثر مقتل الخليفة الثالث ، عثمان رضي الله عنه ، فتسامت همه معاوية إلى ولاية أمر المؤمنين ، ونازع سيف الإسلام عليا في خلافته وكاد على أن يضربه الضربة القاصمة في صفين ، لولا خديعة التحكيم التي فرقت جيش على ، وأثبتت نائبة الخوارج ، ولما قتل على رضي الله عنه ، ونزل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، واستقام له الأمر ، رجعت القضب إلى أجفانها ، وبسياسة جمعت إلى الشدة اللين ، وإلى الحزم الحلم ، سكنت الفتن إلا قليلا ، غير أنه سكون لا شيء فيه من الرضا ، فالقلوب كثير منها نافر ، ولكنها الرغبة والرغبة ، والطمع والخوف وما أنهكت به الأمة من حروب دائبة مستمرة ، كل هذا جعل الناس يسكنون ، وإن كانت قلوب تستنكر ، ولذا لم تنته خلافة معاوية ويتول يزيد ، ويتحرك الحسين وابن الزبير ، حتى ظهر الخروج على هذه الدولة في إعلان لاسر فيه ، فخرجت المدينة المنورة ومكة المكرمة ، وتحركت فتن العراق ، وكثر خروج الخوارج الذين تعددت مذاهبهم ، وتباينت آراؤهم ، وبكثير من الدماء ، وكثير من الإرهاق ، عادت الحال إلى نوع من الهدوء ، بعد أن أبيحت المدينة ، وقتل الحسين .

وهكذا استمرت الدولة نزاع تارة يشتد ، وأخرى يسكن ، خوارج يخرجون أحيانا ممتشقين الحسام ، وأخرى يدعون بدعائهم قولا ، والخلفاء يبيعون دماءهم .

وعلويون يسكنون تارة ، ويخرجون عاربين تارة أخرى وملوك

الأمويين يدفعون هؤلاء وأولئك مرة بالسيف ، وأخرى بالخدعة وثالثة بإلقاء بذور الشر بين خصومها ، وفي وسط تلك الزوبعة وجد القول أذانا وقلوبا .

الأحوال الاجتماعية :

في وسط هذا الاختلاف الذي ألمعنا إليه ، وتحت ظل الأمويين ، قامت العصبية الجاهلية التي سترها الاسلام ، ودعا إلى محوها من القلوب اشتد النفور بين القحطانيين والحجازيين ، وبين الربيعين والمضريين ، وكان من بعض الخلفاء ما أضرم نيرانها ، وزادها حدة وقوة ، والحقيقة أن كثيراً من حروب هذا العصر وفتنه كانت العصبية دافعة له ، وإن سترت بستار من دعوة دينية أو نزوع إلى طاعة ، أو تشيع لآل الرسول ﷺ .

ويلاحظ أن المظاهر الاجتماعية في ذلك العصر ، قد أخذت تختلف باختلاف البلدان التي غلبت فيها العناصر العربية وهي الحجاز والعراق والشام . فهي في الحجاز غيرها في العراق وهي في الشام غيرها فيهما :

ففي المدن الحجازية وجدترف بعد أن لم يكن ، وذلك لأن الدولة الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج إلى الأقاليم ، حتى لا ينازعوها السلطان ، وأدرت عليهم من الخيرات ما منعهم من التفكير في الانتقاض عليها ، وأكثر أولئك من ذوى القلوب والعواطف الشديدة ، والعقول القوية ، ولكنها بناييع صافية قد تسلطت على صخور ، فلم تنبت ما يظل مستظلاً ، أو يطعم طعاماً ، فاتجه بعضهم إلى اللذائذ يشتارون عسلها ، وأنشئوا الحيطان والحدائق ، وجعلوا من الطائف والرياض بين مكة المكرمة والمدينة المنورة جنات فيها متع النفوس ، وانصرفوا إلى الإماء والشهوات .

أما في العراق ففتن دامة ، وقلق مستمر ، وحياة اجتماعية غير محكمة الصلات ، والسبب في ذلك أنه قد سكنه في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين طوائف من أجناس مختلفة فمنهم العرب وأغلبهم مضر يون ، ومنهم النبط ، ومنهم الفرس ، ومنهم آراميون ، ولكل طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد ، تستمدّها من قوميتها الأولى ، وجنسياتها القديمة ، وحد الاسلام دينهم ، وقرب ما بين لغاتهم ، ولكنه لم يجمع أهواءهم ، ولم يوحد إحساسهم ، ولذلك بدت في العراق أفكار مختلفة ، وأهواء متناقضة وإحساسات متنازعة ، إذ قد نجم من هذه العناصر المتخالفة مخلوط غير تام المزاج ، يتوجد في ظاهره ، ويختلف في باطنه . ويجتمع كذلك تكثر فيه الفتن ، ويشتد الاضطراب .

ويذكر ابن أبي الحديد أن لفتن العراق سببا آخر ، وهو حدة ذكاء أهل العراق ، فقد جاء فيه :

قال أبو عثمان الجاحظ العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء ، وطاعة أهل الشام ، أن أهل العراق أهل نظر ، وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر ، يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح ، والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء . وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد ، لا يرددون النظر ، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ، وما زال العراق موصوفا أهله بقلّة الطاعة وبالشقاق على أهل الرياسة .

أما في الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائدا ، ولكن في احتشام في أكثر الأحيان ، ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم ، وليحفظوا لهم صفتهم الدينية ، وكيلا تتألب عليهم العرب ، وأكثرهم متدين ، ففي قصور الخلفاء كل وسائل الترف ، قيان وغناء ، ولكن لا يظهرون بشيء من ذلك أمام

العامة ، بل كان الصدر من خلفاء بنى أمية يستمع إلى غناء المغنين من وراء حجاب .

والشام لأنها قصبة الدولة ، كان الناس يفدون عليها من كل ناحية ، وهى تموج بالوفد ، ويتبادلون القول مع الخلفاء ، وفى الحق إنها كانت ميدان المباراة فى تملق الخلفاء ومدحهم ، والزلفى إليهم ، بالخطب أحيانا ، وبالشعر أحيانا ، وفيها كانت المفاخرات ، والمنافرات بين أيدى الخلفاء ، وتحت سمعهم وبصرهم .

الأحوال الدينية :

عاش فى صدر هذه الدولة طائفة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وعاش التابعون أكثر مدتها ، وكان هؤلاء وأولئك يدارسون الدين ، ويعرفون الناس أحكامه ، ويبثون روحه ، والخلفاء فى الجملة ، كانوا يظهرهم تمسكهم بالدين ، بل حمايتهم له ، يقولون ذلك بألسنتهم ، وإن كان منهم من يخالفه ، فعبد الملك بن مروان الذى وقف يخطب مرة فقال : من قال لى اتق قطع عنقه ، يظهر الحمية الدينية ، إذ يبلغه أن الحجاج قد شتم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، فينذر الحجاج ، ويرعد ويبرق ، ويشتد ويحتد ، وذلك لتجرى كلمة الثناء من أنس رضى الله عنه ، فيكون لها أثرها فى نفوس العامة والدهماء .

والناس قد استمروا على تدينهم ، ولكن خفت فيهم حرارة الإيمان ولم يكونوا كسلف هذه الأمة قوة دين وثبات يقين ، وحات العصبية الجاهلية فى بعض النفوس محل الدين ، وانتشرت فى بعض الجهات فسوق ومفاجر ، وشاع على ألسنة الشعراء تهاج مقذعة ، وشتائم لاذعة وأقوالهم تنتشر بين الناس ، فتزع الأخلاق ، وتفسد النفوس ، وتضعف روح الدين ، وإذا ساغ لولى عهد المسلمين يزيد بن معاوية أن يدفع شاعرا

نصرانيا ليس للاسلام في نفسه خربة أن يقول في الأنصار وهم الذين آووا
ونصروا :

ذهب قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمام الأنصار

إذا ساغ ذلك لابن الخليفة وهو المسئول الذي يجب أن يظهر حاميا
للدين ، فكيف يكون شأن دهاء الناس ، ومن ليس للتقد عليهم من
سلطان ، لذلك لم تقيد الألسنة بقيود الدين كما كان الشأن أولا ، وكان
لذلك أثره في الخطابة كما سنين إن شاء الله تعالى .

دواعي الخطابة وموضوعاتها

في العصر الأموي

كثرت دواعي الخطابة في صدر الدولة الأموية ووسطها ، واتسعت
موضوعاتها ، وتشعبت نواحيها ، وكان أعظم دواعيها وأوسع موضوعاتها :
الفتن .

الفتن التي قامت في صدها الدولة الأموية ، وتأججت نيرانها ،
واشتد لهيبها بعد موت معاوية عندما تولى يزيد ، فقد انقسم المسلمون إلى
أحزاب : شيعة ، وخوارج ، وأمويين ، وزبيريين ، وكل يدعو الناس
إلى فكرته ، وتأييد دعوته ، واشتبكت الحروب بين هذه الطوائف ،
فقاتل الحسين جند يزيد ، وقتل ، وقاتل عبد الله بن الزبير حتى تم له
الأمر في الحجاز والعراق ، ثم انتقصت أطراف ملكه وشيكا . والخوارج
استمروا إلبا على الدولة لا تسكن لهم نائرة ولا تخمد لهم جذوة . وكان من
وراء السيوف الخطب القوية ، والعبارات الشديدة الدافعة إلى الموت ،
رجاء مثوية الرحمن ، أو طمعا في السلطان فالخطابة وجدت في تلك الفتن

معينا للقول ، وحافزا إليه ، يذكر المعترضون على بنى أمية مساوئهم ، واجترأهم على ذوى الحق ، ويرمونهم بالخروج على الدين ، ويلوكرونهم بماضى أسلافهم فى محاربة النبي صلى الله عليه وسلم والسابقين ، والأمويون يرمون أولئك بالبغى والخروج على الطاعة ، وسترى ذلك واضحا فى المختار من الخطب .

السياسة :

كان الخلفاء وولاتهم فى أشد الحاجة إلى أن يبينوا للناس سياستهم ، ليأخذوهم بها ، إذ كانت نفوس المحكومين فى قلق دائم مستمر ، وميل للخارجين ، فكان الخلفاء وأتباعهم يبينون حكمهم وعدالتهم ، وإحسانهم للناس إن أسلسوا القياد ، وأخلصوا ، ويرعدون ويرقون ، ويهددون وينذرون من يخرج أو يجحد عن الجادة ، وقد كان صوت الترهيب أظهر فى البلاد التى نبتت فيها فتن ، كالعراق والحجاز وصوت الترغيب أوضح فى البلاد التى وادعت وسامت ، بل عاوت وناصرت ، كالشام .

انظر إلى خطبة زياد البتراء بالبصرة ، وخطب الحجاج فى العراق ، وخطبة عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير ، ترى ذلك واضحا كل الوضوح .

الفتوح الاسلامية :

لم تنقطع الفتوح فى العصر الإسلامى ، ولعل الأمويين وجدوا فيها شاغلا للعرب ، يمنعهم من التفكير فى أمرهم ، والانتفاض عليهم ، فوجهوهم إلى البلدان ، لكيلا يكون بأنهم بينهم ، ففي عصر معاوية فتحت بلاد فى شمال أفريقية ، والسند ، وبعض أفغانستان ، وفى عهد عبد الملك والوليد ابنه تم الاستيلاء على شمال أفريقية ، والأندلس ، وامتد السلطان الإسلامى إلى بلاد البنجاب فى الهند ، واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى ، وفى عهد سليمان بن عبد الملك حوصرت الآستانة . والحروب كما بينا تحتاج إلى الخطابة والبيان ، وقد أسهنا فى بيان ذلك فى العصر الإسلامى السابق ، فارجع إليه :

الوفادة :

كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء في ذلك العصر لرفع شكاة ، أو لامتياخ ، أو إعلان النصره والتأييد ، وقد يدعو الخليفة بعض الوفود إليه ، ليسدى إليهم يداً ، أو يعقد حبل مودتهم ، أو يستعقبهم على سابقة منهم ، والوفود عادة من كبار المتكلمين المحيدين يلقون كلامهم في لسان ميين ، وقول حكيم ، وأسلوب محكم ، وإذا اعترض عليهم ، سددوا الجواب ، وأتوا بأحسن الخطاب . قال ابن عبدربه في الوفادة :

إنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، وتستعذب الألفاظ ، وتستجزل المعاني ، ولا بد للوفاد عن قومه أن يكون عميدهم ، وزعيمهم الذي عن قوسه يزعون ، وعن رأيه يصدون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة .

فالوفد يكون من أرباب البيان ، والوفادة روحها اللسان والحنان ، لذلك كانت كثرة الوفادة في ذلك العصر عاملا من عوامل انتشار الخطابة ، وموضوعا من موضوعاتها .

المدح والتهنئة والعزاء :

كانت الخطابة في هذا العصر تقال في بعض الموضوعات التي كان يقال فيها الشعر ، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحا في خليفة ، أو تهنئة بولاية ، أو تعزية لفقد عزيز كريم ، وقد تكون الخطبة أحيانا مشتملة على التهنئة والتعزية عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة ، فيجتهد الخطيب في أن تكون خطبته جامعة بين تعزية الواسي في فقد ، والمهنئ بنيل أمل كان مرتجى ، كما فعل كثيرون من الخطباء في عزاء يزيد في معاوية ، وتهنئته بالملك .

الوعظ الديني :

كانت سيطرة الدين على بعض النفوس دافعة لأن ينصرفوا إلى العبادة والنسك ، والتقوى والإرشاد ، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد ، والتعمق في بحثها ، وكون له رأيا فيها ، دعا إليه ، وحث عليه ، ومنهم من عكف على مناقشة الخارجين على الاسلام الهادمين لبنائه ، والرد عليهم ، فلحن بالحجة ، وقدم الدليل ، ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصري ، وواصل بن عطاء ، ومطرف ابن عبد الله الحرشي ، وبكر بن عبد الله المزني ، ويزيد بن إبان الرقاشي ، ومالك بن دينار . وأكثر هؤلاء قاص مجيد بليغ ذو منطق وجيز .

مجالس المبالاة في الخطابة :

كانت تعقد مجالس للمبالاة في الخطابة ، والسبق فيها ، وكثيرا ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة ، ليختبر مقدار بيانه ، وقوة جنانه ، وحضور بديته ، ونهوض حجته ، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز والى العراق من مجلس للخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى ، وواصل بن عطاء ، وقد نال في ذلك المجلس قصب السبق واصل بن عطاء . وقال فيه بشار مادحه يتلك الخطبة .

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته كرجل القين^(١) بلما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفح^(٢) والإغراق في الطلب

(١) القين هو الحداد .

(٢) التصفح النظر .

وقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شيء كثير من هذا النوع من المباراة ، وما كانت خطبة سحبان التي كانت من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر إلا من ذلك النوع . فإنه يروى أن وفدا من خراسان ، فيهم سعيد بن عثمان ، قدم على معاوية ، فطلب سحبان ، فلم يوجد في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فقال : تكلم ، فقال : انظروا إلى عصا تقوم من أودى ، قالوا : وما تصنع بها ، وأنت بحضرة أمير المؤمنين ، قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية ، وقال : هاتوا عصا فجاءوا بها إليه ، فرجلها برجله ، ولم يرضها ، وقال : هاتوا عصا فأخذها وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله ، حتى أشار معاوية ، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع على كلامي ، فقال معاوية : الصلاة . قال : هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد . فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سحبان : والعجم والإنس والجن (١) .

ألا ترى من ذلك القصص أن تلك الخطبة ما كان القصد منها إلا المباراة الكلامية من غير غرض منشود ، ولا موضوع محدود . وقد كانت تلك المباراة من أسباب انتشار الخطابة ، وكثرتها ، وهي تشبه المباراة الخطابية التي كانت تقوم بين فتيان أثينا في عصر بيركليس .

عوامل رقي الخطابة وعوامل ضعفها

في ذلك العصر

قال المرحوم الأستاذ محمد المهدي (بك) في وصف الخطابة في هذه العصر :

هذا عصر سارت الشجاعة فيه وراء البيان ، وملك اللسان منه ما لم يملك السيف ، وتسابق الناس فيه إلى غاياتهم ، بحسب مقالاتهم ، ونقد رأوا المثل الأعلى في الكتاب العزيز فتساموا إلى طريقه في الإقناع ، وإقامة الحجج ، واقتبسوا من لفظه ، واستعانوا بروحه فحيوا في بلاغتهم حياة جديدة . ثم قال : والعرب أقدر الناس على بيان ، فإذا كان في حكمة رائعة ، ودين قيم ، وعزيمة صادقة ، ملك الواحد منهم من قلوب الناس ما لا تملكه الدنيا بجذافيرها ، وقد سما بأنفسهم نصرهم الباهر ، وعزيتهم القديمة وأنسابهم المصونة ، وأيامهم المشهورة وأمثالهم الماثورة ، ومواقعهم المشهودة ، فلم يكن للواحد منهم إلا أن يتكلم ، أو يكلم ، ولذلك كثرت في هذا العهد خطباؤهم كثرة لم تعهد فيهم من قبل ، ولا من بعد ، وأجادوا إجادة لا نظير لها ، وتفننوا في مجامعهم ، وجمعهم وأعيادهم ، ومواسم الحج ، ومضارع السقيا ، ومشاهد الحرب ، ومنافر الجهاد ، ومرابد الأمصار ، ومحافل الملوك ، ومجالس الموعظة ، وأندية الأدب ، وحاولت كل قبيلة أن يكون خطيبها أخطب ، وكل حزب أن يكون لسانه أغلب ، لتسابق الملوك والأمراء والنسك والزهاد ، ورؤساء الأحزاب والقبائل ، كثير من دماء الناس في هذا الميدان ، حتى اثبتت نور الأذهان ، وتفجرت ينابيع الحكمة ، وفاضت بدائع البداهة في الناس .

هذا قول حق إذا كان موضوعه صدر الدولة ووسطها . أما في آخرها فقد ركزت ريجها قليلا حتى استيقظت قوية أمدا قصيرا في صدر الدولة العباسية .

والأسباب في بلوغ الخطابة ذلك الشأ هو ما بيناه في عوامل نهوض الخطابة في صدر الإسلام وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة وغيرها ، فإن تلك الأمور كان لها أثرها في ذلك العصر كما كان لها أثرها في

سابقه ، وما زالت لها قوتها وروعها في النفوس ، وقد جدت عوامل أخرى فوق تلك زادت الخطابة رفعة ونهوضا :

فالمجاذلات التي كانت تقوم بين الفرق السياسية المختلفة التي ظهرت في ذلك العصر ، بعد أن غرست أصولها في آخر سابقه ، خصوصا ما كان بين الخوارج وغيرهم ، كانت عوامل رفعة للخطابة فإنك تجد في تلك الخطب الجدلية روحا عالية ، ودقة في التفكير ، وسلامة في التعبير ، وحرصا على وزن العبارات بميزان دقيق :

اقرأ خطبة أبي حمزة الشاري التي يرحض فيها عن الخوارج الإباضية ، ويقذف غيرهم بأشنع التهم ، وكذلك خطب قطري بن النجاء وغيرهما ترى فكرا دقيقا ، وعبارات عالية ، جمعت إلى الجزالة والسلاسة روح الدين .

وقد ظهر في ذلك العصر ، خطباء من علماء الكلام ، يعظون ويدافعون عن مذاهبهم في أصول الاعتقاد ، كالحسن البصري الذي قال فيه أبو عمر بن العلاء :

ما رأيت أفصح من الحسن البصري ، ومن الحجاج الثقفي ، فقبل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن :

وكواصل بن عطاء ، فقد كان نادرة زمانه في حضور البديهة ، وسداد الجواب ، وقد كان انضمام هؤلاء إلى صفوف الخطباء مما جعل الخطبة تستفيد من دقة تفكيرهم ، وغزارة علومهم لإحكامها ، وثروة في المعاني والأفكار .

وكان الخلفاء في صدر الدولة الأموية يحثون على الخطابة ويدعون إليها ، ويعملون على ترويحها ، وكانت دوزهم متتديات لها ، يتبارى فيها أبلغ الخطباء ، وأهل اللسان والبيان ، وخصوصا إذا جاء وفد ، وكان صغار

النشء يحرصون على استماع البلغاء من الخطباء ، ليحاكوهم ، وينسجوا على منوالهم ، وقد ساد التفاخر بالقدرة على الخطابة وإجادة البيان ، لأن الخطبة كان لها الشأن الأول عند الخلفاء والأمراء ، يروى أن عبد الملك بن مروان سقطت له إحدى ثنياه ، فذكر أنه لولا الخطبة والنساء ، ما حفل لسقوطها .

وقد دفعهم التفاخر بالخطابة ، إلى أن أخذوا يزورون الكلام ، ويهينونه ، ويضعون فيه من ضروب التحسين الشيء الكثير ، وإذا قرأت خطب الحجاج تلمح فيها صناعة لفظية ، وإن لم تكن بادية التكلف . وكذلك ترى خطب كثير من خطباء ذلك العصر .

ومع عوامل الرقي الخطابي التي ظهرت في ذلك العصر ، وكان لها كل هذه الثمرات ظهرت بجوارها مظاهر ضعف نسبي ، وإن كانت قد اختفت تحت لألاء الرقي الذي بدا ، وغفلت عنها الأنظار في وسط ضجيج الرفعة التي كانت للخطابة في ذلك العصر ، ومن ذلك :

أن اللحن ابتداءً يجرى على ألسنة الخطباء ، فيروى أن الحجاج كان يفتح إن في موضع الكسر ، ويروى أن الوليد بن عبد الملك كان كثير اللحن في الخطبة ، بل في الصلاة حتى إنه يروى أنه كان يصلي مرة فقراً : « يا ليتنا كانت القاضية » ورفعها . فقال عمر بن عبد العزيز إذ بلغه ذلك عليك وأراحنا الله منك ، وقد سرى اللحن على ألسنة كثير من الفصحاء ، جاء في البيان والتبيين :

ومن اللحنين البلغاء خالد بن عبد الله القسري ، وخالد بن صفوان . وجاء فيه وقد زعم رؤية ابن العجاج ، وأبو عمر بن العلاء أنهما لم يريا قروين أفصح من الحسن والحجاج ، وغلط الحسن في حرفين من القرآن . ولا شك أن اللحن في الخطبة مع قرب العهد ، وعدم فساد السليقة مظهر من مظاهر الضعف وإن أخفته بلاغة المتكلمين .

وقد عادت العصبية الجاهلية فعاد معها التفاخر بالأحساب والأنساب ، وكثر ذلك في الخطابة ، كما كثر المدح الكاذب ، والملق الخادع ، ونفاق اللسان ، وكل هذه عوامل من شأنها أن ترجع بمعاي الخطابة القهرى ، وأن ترد عما اكتسبته من روعة وجلال في عصر الخلفاء الراشدين ، ولذا ضعف تأثير الكلام الجيد في القلوب .

يروى أن الحسن البصرى تكلم عنده رجل بمواعظ جمة ، ومعان تدعو إلى الرقة ، فلم ير الحسن قد رقى . فقال الحسن إما أن يكون بنا شر ، أوبك ، والحقيقة أن أكثر الخطباء الأمويين في ذلك العصر كانوا إما منافقين أو مستبدين ، أو جلادين ، وكل أولئك لا تصل كلماتهم إلى أعماق القلوب لأنها لم تخرج منها ، وعامر بن قيس يقول :

الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

وكانت كثرة المتشادقين من أسباب ضعف تأثير الكلام في القلوب لأن شهوة الكلام سادت ، والرغبة في الحجاج واللجاج ، وإن لم تكن لغرض أو إصابة هدف ، قد تغلبت ، إذا كثر الكلام قل التأثير ، ومن كان كثير التشديق ، كان أشد افتقارا إلى السامع ، من السامع إليه ، لشغفه أن يذكر في البلاء ، وقال الجاحظ في وصف هذا النوع من المتكلمين : ومن أسف هذا الإسفاف ، وغلب الشيطان عليه هذا الغلبة ، كانيته حاله داعية إلى قول الزور ، والفخر بالكذب ، وصرفت الرغبة إلى الناس والإفراط في مديح من أعطاه ، وذم من منعه .

ولا شك أن هذا الصنف من المتكلمين كان كثيرا في الأمويين وأنصارهم ، ولا شك أيضاً في أن سيادتهم للمنابر ، واستيلائهم عليها مؤد حتما إلى انصراف الناس عن الخطبة والخطباء ، وذلك مؤد حتما إلى ضعفها شيئا فشيئا .

وفي آخر العصر الأموي ضعفت الدواعي إلى الخطابة ، لقلة
الخروج على الخلفاء علنا ، والاتجاه إلى التدبير السري ، وتبليت الأمور
في جنح الظلام ، ولأن الخطب بين أيدي الخلفاء قد قلت ، إذ الوفود قد
قلوا ، بعد أن قل الخارجون ، واستغنى الخلفاء عن استدعاء القلوب ، وقد
علمت أن ذلك كان من دواعي القول والبيان ، ولهذا كله ضعفت الخطابة
نسبيا كما بينا ، إلى أن نهضت في صدر الدولة العباسية أمدا قصيرا كما سنبين
إن شاء الله تعالى .



الألفاظ والأساليب والمعاني

الألفاظ :

كانت ألفاظ الخطابة صافية لا خشونة فيها، ولا حوشى مع الجزالة والقررة ، كما كانت في العصر السابق ، وذلك لما اكتسبته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة التي لم تفسد النفس ، كما بينا آنفا ، فارجع إليه .

المعاني :

كانت المعاني الخطابية في ذلك العصر مختلفة باختلاف الخطباء : فخطب الخوارج سادتها المعاني الدينية ، وهى في الجملة تشبه الخطب في العصر لإسلامى من هذه الناحية ، وإنك لتقرأ خطب قطرى بن الفجاء ، أو أبى حمزة الشارى ، فتجد مشابة واضحة بينها وبين خطب الخلفاء الراشدين في معانيها وروحها ، وإن كانت الثانية لقوم سلم تفكيرهم من الاندفاع ، والخوارج لم تسلم خطبهم منه ؛ ولولا ذلك وإن في خطب الخوارج قذفا بالكفر لكثيرين ، لكانت هى وخطب الأولين من المهاجرين والأنصار خرجتا من معين واحد .

وخطباء الوعظ الدينى كالحسن البصرى ، والشعبي ، وابن سيرين ، وواصل بن عطاء ، كانت كخطب السلف الصالح من كل الوجوه ، لا من جهة المعاني فقط ، غير أنها زيد فيها أمر لم يكن في خطب السلف ، وهو القصص ، والوعظ به ، وضرب الأمثال الكثيرة ، وسوق أخبار الماضين ، ليتعظ بها السامعون لهم ، وترى ذلك واضحا كل الوضوح في خطب الحسن البصرى رضى الله عنه .

أما معاني خطباء الأمويين ومن لف لفهم ، وسائرهم في أعمالهم وعاونهم في نهجهم فقد امتازت في الجملة :

١ - بأنها كانت معاني تهديدية ، يكثر فيها الارعاد والتهديد : إذا كانت من الوالى أو الخليفة لقوم في نفوسهم شىء من السخط على الأمويين وحكومتهم ، كخطبة زياد ابن أبيه في العراق ، وخطب الحجاج فيه ، فإن تلك الخطب تشبه الصخور التى يقذف بها الخطيب وجود السامعين ، وتشبه الانذارات التى يعذر بها من يريد إيقاع عقوبة صارمة ، أو إعلان حرب داهمة ، ولا تعد خطبا يقصد بها إدناء القلوب ، وجمعها على الجادة والسير بها في طريق الرشاد .

٢ - وبأنها كان أكثرها في الفخر إذا كانت من خطباء القبائل المناصرة لهم ، كقول خطيب الأزدي عند عبد الملك : وقد علمت العرب أنا حي فعال ، ولسنا بحى مقال ، وإنا نجزي بفعلنا عن أحسن قولم ، إن للسيوف التعرف أكفنا وإن الموت ليستعذب أرواحنا وقد علمت الحرب الزبون أنا نقرع جماحها ، ونحلب صراها . وإنما كثر الفخر بين هؤلاء لعودة العصبية ، واستيلائها على نفوسهم ، وبيننا كثر عند هؤلاء الفخر ، كثرت معاني المدح والملق والتفاق في أتباع الخليفة ، وأتباع الأمراء وبطانتهم ، ومن لم عندهم حاجة ، أو يطمعون في نيل أمل .

٣ - وبأنها كانت تشتمل على السب والإفداع أحيانا ، وإنك ترى ذلك واضحا في كثير من خطب الحجاج في أهل العراق ، فإنك ترى فيها إفحاشا في الهجو ، وإفداعا . وكان الهجو العنيف الذى ساد الشعر في ذلك العصر سرى بعضه إلى الخطابة ، فأخذت منه أشطرا أو لعلهما صدرا عن ينبوع واحد ، وهو التناوب الذى فرق جماعات المسلمين ، فاستباح كل إعراض الباقيين ، ولم ترع حرمة الدين ، ولا وشائج القرى ، ولا صلة الأرحام ، وقرأ خطبة زياد ابن أبيه التى خطبها قبل أن يلتحق بمعاوية يرد بها على كتاب أرسله إليه ، وجاء فيها : العجب من ابن آكلة الأكباد ، وقائلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومسر التناق ، ورئيس الأحزاب .

يومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرعديني ، ويريق عن صحابة
جفل ، (١) لأماء فيها ، وعماء قليل تسيرها الرياح قزعا (٢) ، والذي يدلني
على ضعفه تهدده قبل القدرة ، أفمن إشتاق على يعذر ، وينذر . كيف
أرهبه ويبنى وبينه ابن بنت رسول الله ﷺ ، وابن عمه في مائة ألف من
المهاجرين والأنصار ، والله لو أذن لي فيه ، أو ندبني إليه ، لأرينه الكواكب
نهارا ، ولأسعطنه ماء الخردل .

وما في هذه الخطبة من الهجو لا يعتبر كثيرا بالإضافة إلى الهجو الذي
كثر على ألسنة خطباء هذا العصر :

٤ - والمبالغة والإغراق ، لكثرة النفاق ، والخداع واللق والمذح
فإن هذه الأمور يكون صوت الصدق فيها خافتا ، وصوت الكذب عاليا ،
والمبالغات والغلو ، ترد من أبواب الكذب ، حيث تختفى الصراحة ، هذا
إلى أن تسابق الخطباء ، في مدح الخلفاء جعل كلا يجتهد في المعاني ، والغوص
فيها ليصلوا إلى قصب السبق ، قبل غيرهم وذلك يدفعهم حتما إلى الإغراق .

اقرأ خطبة عمرو بن سعيد التي مدح فيها يزيد بن معاوية ، عند العهد
له ، فقد جاء فيها : أما يعد ، فإن يزيد بن معاوية ، أمل تأملونه ، وأجل
تأملونه ، إن استضيفتم إلى حلمه وسعكم ، وإن افتقرتم لذات يده ،
أغناكم ، جذع قارح (٣) سويق فسبق ، وموجد فمجد ، وقورع ففاز
سهمه ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا تخلف منه .

الأسلوب :

كان الأسلوب في ذلك العصر يشبه الأسلوب في عصر الخلفاء الراشدين

(١) السحابة الجفل التي لا ماء فيها لأنه أريق .

(٢) قطع السحاب المتفرقة .

(٣) شاب قوى .

في الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجميل الخطبة أحيانا ببعض أبيات الشعر ، وتقسيم الخطبة إلى مقدمة تشتمل على حمد الله ، والثناء عليه ، وموضوع ، وخاتمة .

ولكن كثر في خطب ذلك العصر الازدواج ، وهو أن تكون الخطبة مقسمة إلى فقرات متناسقة ، وإن لم تكن ذات قواف متحدة . اقرأ خطبة عبد الملك بن مروان التي خطبها بعد قتل مصعب بن الزبير في العراق تراها ذات فقرات متناسقة ، وقد كان على شاكلتها كثير من خطب هذا العصر .

وكثر أيضا الاجتهاد في تحسين الخطب ، وتجميل الكلام ، وإن كانت السليقة العربية التي امتاز بها أكثر خطباء الأمويين والحوارج ، قد سترت ذلك التكلف ، ولم تظهره ، وإنك لتلمح في خطبة الحجاج التي قالها في أول مقدمه إلى العراق ، الصناعة المحكمة ، والقصد إلى التحسين . ولعل السبب في كثرة تحسين الخطبة في ذلك العصر أن كثيرا من الخطباء كانوا يزورون كلامهم قبل إلقائه ، ويجمعون الفكرة قبل أن يتقدموا للخطبة ، وقرأ ذلك الخبر الذي جاء في العقد الفريد :

قال لبعض الخلفاء : إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعده ، فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح ، قال فأمر رسولا أن يأخذ بيده إلى المسجد ، فلم يفارقه حتى صعد المنبر .

ألا يدل ذلك الخبر على أن التهيئة قد كثرت حتى كان يتهم بها بعض المحيدين المقال ، فإنه لا اتهام في أمر يكون بعيد الحصول ، غير قريب من المؤلف المعروف . وربما كان من أسباب الاتجاه إلى تحسين الكلام وتنميقه - المباريات التي كانت تقوم بين الخطباء فإن كلا كان يحاول للسبق ، والإبداع في الأسلوب والمعاني ، ليكون الأغلب والأسبق ، ومن الأسباب أيضا أن الكلام صار شهوة ، وصار موضع فخر ، وكل ذلك

يدفع الإنسان إلى التحسين . وقد دفعهم ذلك أيضا إلى محاولة أن يضعوا أصولا للخطابة ويلقنوها الشبية ، كما كان يفعل الأثينيون في عصور ازدهار الخطابة ، فقد ورد في البيان والتبيين والعقد الفريد أن إبراهيم بن جبلة ابن مخزومة السكوني كان يعلم الفتيان الخطابة ، ومر به بشر بن المعتمر على ما بينا في القسم الأول ، وإبراهيم هذا كان من أصحاب عبد الملك ابن مروان ، وعاش إلى خلافة المنصور العباسي ، وهذا الخبر في جملته ، يدل على أن الخطابة كانت تلقن ، وتعلم في آخر العصر الأموي ، وابتداء العصر العباسي ، وأن الناس قد ابتدأوا يفكرون في وضع أصول لها ، حتى جاء العصر العباسي بترجمته وعلومه ، فترجمت الأصول الخطابية اليونانية فيما ترجم العباسي كما بيننا .

طول الخطب وقصرها :

خطب الخوارج في جملتها أميل إلى الطول ، لما كانت تشتمل عليه من الحجج والأدلة ، والمأخذ على حكم الأمويين ، وإعلان مساوئهم ، فترى خطب أبي حمزة الشاري ، وقطري وغيرهما من خطباء الخوارج فيها الطول واضحا ، وقد رويت مع طولها ، ونقائطها المصادر الأدبية كالبيان والتبيين ، والعقد الفريد ، والأمالي ، والكامل ، فدل ذلك على نفاستها وجودتها .

وخطب الوعاظ والزهاد ، كالشعبي وابن سيرين والحسن البصري أميل إلى الإيجاز ، أخذوا بمذهب السلف الصالح ، ونهى النبي ﷺ عن طول الخطبة ، ونحوفهم من أن تكون الإطالة ثثرة ، وتفهيقا ، وتشادقا ، وكل أولئك قد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

وخطب الأمويين ومن والاهم ، ومن كان على شاكلتهم فيها الطول المفرط في الطول ، وفيها المتوسط ، وفيها القصير المفرط في القصر ، فترى خطبة سحبان بن يدي معاوية ، عندما أحضره لقولها مفرطة في

الطول كما ذكرنا ، وخطب الحجاج ، وزیاد ابن أبیه و غیرهما . بین الطول والقصر ، وخطب الذین ارتج علیهم فی الخطبة قصيرة جداً ، ومن ذلك خطبة خالد بن عبد الله القسری عندما ارتج علیه ، فاعتذر قائلاً :

أیها الناس إن الكلام یجئ أحياناً ، فیتسبب سببه ، ویزب أحياناً ، فیز طلبه ، فربما طوب فائی ، وكوبر فعصی ، فالتأنی لھیة أصوب من التعاطی لأبیہ .

وقد كان بعض الخطباء یعمد إلى ذلك النوع من الایجاز من غیر ضرورة ولا ارتاج ، كما فعل یزید بن المقفع ، عند أخذ البیعة لیزید بن معاویة ، إذ قال : أمیر المؤمنین هذا - وأشار إلى معاویة - فإن هلك فهذا - وأشار إلى یزید - فمن أبی فهذا - وأشار إلى سیفه .

فقال معاویة : اجلس ، فإنك سید الخطباء .

وربما كان یدفعهم إلى ذلك للتطویل المفرط ، والقصر المفرط ، قصد التفنن ، و بیان البراعة ، وإثبات قدرتهم على الوفاء فی الطول من غیر إملال ، وعلى الایجاز الذی يعد الأكثرون البلاغة فیہ .

ولیس معنى ذلك أن تطویلهم وإیجازهم لم یکن مراعى فیہ مقتضى الحال ، بل إن مراعاة المقام كانت ثابتة فی كثير من أقوالهم ، ولكن حرصهم على الاشتہار بالبراعة كان لا یقل عن حرصهم على ملاحظة المقام ، لأن القول صار غرضاً لذاته فی ذلك العصر على ما بیناه آنفاً .

المأثور من الخطب

المأثور من خطب ذلك العصر كثير ، ولكنه إذا أضيف إلى كثرة الخطباء ، وإلى تنوع الموضوعات ، واتساع أغراض القول ، كان قليلا ، ولعل السبب في ذلك أن الرواية كان المعول فيها على المحافظة ، والنسيان قد يتطرق إليها . قال الأستاذ المرحوم المهدي (بك) : لقد نظرت في عدد الخطباء المجيدين ، فوجدته يربو على عدد الشعراء ، ولكن ما أثر عنهم من الخطب دون ما أثر عن الشعراء ، وسبب ذلك فيما أرى أن الأمة كانت حديثة العهد بالكتابة ، وكانت معتمدة على حافظتها . . على أن الذي وصل إلينا ليس في نفسه قليلا ، وإن قل بالإضافة إلى قائله ، فإن كثيرا من الخطباء المشهورين ، لا يحفظ له إلا خطبة واحدة .

الخطباء

كثر عدد الخطباء في ذلك العصر كثرة مدهشة ، وتعددت طوائفهم ، واختلفت نواحيهم ، ومذاهبهم الفكرية ، وكان لكل حزب خطباء ، ولكل فئة من الناس متكلمون »

فمن خطباء آل البيت عبد الله بن الحسن ، وزيد بن علي بن الحسين وكانا أقوم أهل زمانهما لسانا وحجة .

ومن خطباء الأمويين معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن يزيد ، وهر بن عبد العزيز وزياذ ابن أبيه ، وهو الذي يقول فيه الشعبي : ما سمعت متكلمًا ، على منبر قط فأحسن ، إلا تمنيت أن يسكت خوفا من أن يسمى ، إلا زيادا ، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاما ، والحجاج بن يوسف الثقفي .

ومن الخطباء الذين نازعوا بني أمية الخلافة عبد الله بن الزبير ومصعب
أخوه ، وكثيرون من أسرتهما .

ومن خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة ، وعمران بن قحطان ،
أبو عبيدة الأباضي ، وأبو حمزة الشاري .

ومن خطباء المجالس خالد بن يزيد بن معاوية ، وأيوب بن القرية وهو
الذي قال للحجاج وقد خافه : أقلني عثرتي ، واسقني ريقى ، فإنه لا بد للجواد
من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة . فقال له الحجاج ،
كلا حتى أوردك جهنم ، ألسن القائل : تغدوا الجدى قبل أن يتعشاكم .
ومن النساء الحسن البصري ، ومطرف بن عبد الله الحرشي ، وبكر
ابن عبد الله المزني ، ومالك بن دينار ، وكل هؤلاء قاص موجز .

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم كثيرون جداً ، وقبل أن تترك هذا الموضوع
لا بد أن نشير إلى طائفة من الموالى أجادوا الخطابة ، كالعرب ، بل ربما
فاقوا كثيرين من بلغاء الخطباء ، ومن هؤلاء الحسن البصري وقد روى أن
السيدة عائشة رضی الله عنها سمعته يتكلم ، فقالت :

من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ، ومنهم طارق بن زياد صاحب
الخطبة المشهورة التي قالها عند غزو الأندلس ، فإنه كان بربريا ،
ولم يكن عربيا .

نماذج من خطب هذا العصر

خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح

يا أهل الكوفة ، أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتركون ، ونحجون ، ولكنتي قاتلتكم لأنأمر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك ، وأنتم كارهون . إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته ، فتحت قدي هاتين ، ولا يصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزوهم غزوكم .

خطبة معاوية في المدينة المنورة

جاء في العقد الفريد لما قدم معاوية المدينة المنورة عام الجماعة ، تلقاه رجال من قريش فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرته ، وأعلى كعبك ، فوالله ما رد عليهم ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فلني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائي ، ولكنتي جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سنيات عثمان ، فأبت على ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فلني خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذني ، وتحت قدي ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه ، فإن أناكم مني

خير فاقبلوه فإن السبل إذا جاء يثرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم للفتنة ،
فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة .

رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن على رضى الله عنه ، رثاه أخوه ابن الحنفية ،
فقال رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم
الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم
الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل
الهدى وخامس أصحاب الكساء^(١) وخلف أهل التقوى ، وجدك النبي
المصطفى وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر الطيار
في جنة المأوى . وغذتك أكف الحق ، وربيت في حجر الاسلام ، ورضعت
ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتا . فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ،
لإنها غير شاكاة أن قد خير لك ، وإنك وأخاك سيدا شباب أهل الجنة ،
فعليك أبا محمد منا السلام .

خطبة زياد بن أبيه بالبصرة

جاء في البيان والتبيين : قال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن محارب ،
وعن أبي بكر الهزلي ، قال : قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبي سفيان ،
وضم إليه خراسان ، وسجستان ، والفسق بالبصرة كثير فاش ظاهر ، قال :
فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها . وقال غيرهما : بل قال : الحمد لله على

(١) أصحاب الكساء هم فاطمة وعلى والحسن والحسين والنبي ﷺ لأن النبي ﷺ ضمهم
إليه في مرط أسود عندما دعا نصارى نجران إلى مباہلته كما قال تعالى : قل تمالوا ندع أبنائنا ،
وأبنائكم . . . ه الخ .

أفضاله ، وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه ، اللهم ، كما زدتنا
نعما ، فألهمنا شكرا : أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ،
والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من
الأمر العظام ، يثبت فيه الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم
لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل
طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول ،
أتكونوا كمن طرفت (١) عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ، واختار
الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي
لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ، ويؤخذ ماله ! . هذه
المواخير (٢) المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل .
ألم تكن منكم نهاية عن دلج الليل . (٣) ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم
الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون عن المختلس ، كل أمرئ منكم
يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا ، ما أتم
بالخلماء ، ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم ،
حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا (٤) في مكانس الريب .
حرام على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا . إني
رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،
وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولي ، والمقيم بالطاعن ،
والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ،

(١) يقال طرف عينيه إذا أطبق أحد الجفنين على الآخر .

(٢) جمع ماخورة وهي بيت الزانية . فارسي معرب أو عربي مشتق من غورت السفينة
إذا ترددت في البحر ، لأن الناس يترددون عليه .

(٣) للدج : السير ليلا .

(٤) كنوسا جمع كانس . وهو المستقر . والمكانس .

حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ،
أو تستقيم قناتكم . إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة :
فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني ، فاغتمزوها (١) في ،
واعلموا أن عندي أمثاله . من نقب منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب
منه . فإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد
أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم ، وإياي
ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً دعا بها ، إلا قطعت لسانه . وقد
أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا أحداثاً ذنب عقوبة ، فمن غرق
قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب على أحد نقبنا على
قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عن أيديكم وألسنتكم
أكف عنكم يدي ولساني : ولا تظهر على أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه
عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك
دبر أذني ، وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليردد إحساناً ، ومن
كان منكم مسيئاً ، فلينزع عن إساءته ، إني والله لو علمت أن أحدكم قد
قتله السل من بغضي ، لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي
لي صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا
على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدمنا سيئس ، ومسرور بقدمنا سيئتس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم
بسلطان الله الذي أعطانا ، وننود عنكم بفيء الله الذي حولنا ، فلنا عليكم
السمع والطاعة فيما أحيينا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا
عدلنا وفيتنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصرت فلن أقصر عن
ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة ، ولو أتاني طارقاً بليل ، لا حابساً
عطاء ولا رزقا عن إبانته ، ولا محجراً لكم بعتا . فادعوا الله بالصالح

لأثمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى
يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول
له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم ،
لكان شرا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمون
أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله ؛ وأيم الله إن لى فيكم لصرعى فليحذر
كل امرئ منكم أن يكون من صرعى .

خطبة عبد الله بن همام السلولى

يعزى يزيد فى معاوية ومهنته بالخلافة

يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ،
وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله
على ما أعطيت ، وأصبر له على ما رزئت ، فقد فقدت خليفة الله ،
ومنحت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ، إذ قضى معاوية
نحبه ، فغفر الله ذنبه ، ووليت الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله
موارد السرور ، ووقفك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذائقة واشكر حباء الذى بالملك أصفاك
لا رزء أصبح فى الأقوام نعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباك
أصبحت والى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاك
وفى معاوية الباقي لنا خلف إذا نعت ، ولا نسمع بمنعاك

خطبة عبد الله بن عباس

ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق

قال ابن عباس ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق : يا بن عم ،

إني أتصبر ، ولا أصبر ، إني أتخوف عليك من هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إن هل العراق قوم غدر^(١) ، فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم ، فلينفوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج ، فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا وشعابا^(٢) ، وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة . وأنت عن الناس بعزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل ، وتبث دعائك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية .

خطبة الحسين رضى الله عنه

وقد أحس بغدر أهل العراق

أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قوله ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله » .

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير ، وقد أتتني كتبكم ، وقدمت على رسلكم ببيعكم ، ألا تسلموني ولا تتخلونني ، فإن تتمم على بيعتكم ، تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فى أسوة وإن لم تفعلوا ، ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ،

(١) جمع غدور كصبور .

(٢) الشامب جمع شطب وهو الطريق فى الجبل .

فلعنري ما هي لكم بنكر : لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ،
والمغرور من اغتربكم فحظكم أخطأتم ، ونصيتكم ضيعتم ، ومن نكث
فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته :

خطبة المسيب بن نجبة الفزاري يعلن التوبة عن التقصير في نصره الحسين

حمد الله أثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فترغب
إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ،
وجاءكم النذير ، فإن أمير المؤمنين قال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم
ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ،
وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله أخبارنا فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن
ابن ابنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت
علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره ، عودا ، وبدءا ، وعلانية ،
وسرا ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه
بأيدينا ، وجادلنا عنه بالسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصرة
إلى عشائرننا ، فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ،
وقد قتل ولده وحييه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا
قاتله ، والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى
عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقاءه لعقوبته بأمن :

أيها القوم ، ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفرعون
إليه ، وراية تحفون بها ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

خطبة عبد الملك بن مروان في العراق

دخل الكوفة بعد أن قتل مصعب بن الزبير ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا (١) الحرب ، وزبناها ، فعفرناها ، وألفناها ، ففتح بنوها ، وهى أمنا . أيها الناس ، فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن تزداد بعد الأعدار إليكم والحجة عليكم ، إلا عقوبة ، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها ، فليعد ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه :

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة كيلا ألام على نهى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا أن سوف تلقون خزيًا ظاهر العار

خطبة الحجاج حين قتل عبد الله بن الزبير

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة المكرمة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال :

ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بجرم الله ، ولو كان شيء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاة أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .

(١) زبته معناها دفعة وحرب زبون يعنى يدفع بعنفها بعضاً .

خطبة له أخرى في أهل العراق وأهل الشام

يأهل الكوفة ، إن الفتنة تلحق بالنجوى ، وتنتج بالشكوى ، وتخصد بالسيف ، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وإن أحببتموني لا تنفعوني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « ولا يفلح الساحر » وقد أفلحت ، وزعمتم أني أعلم الإسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : لأزواجكم أطيب من المسك ، ولأبنائكم أنس بالقلب من الولد ، وما أنتم إلا كما قال أخو ذبيان .

إذ حاولت في أسد فجورا فاني لست منك ولست مني
هم درعى التي استلأمت إفيها إلى يوم النصار وهم مجنى

ثم قال : بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون .

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

خطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال : أيها الناس ، لا يطولن عليكم الأمد ، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، ولا يستعقب من شيء ، ولا يزيد في حسن ، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لخلق في معصية الله ، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله ، قد فتى عليه الكثير ، وكبر عليه الصغير ، وأفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعراي ، حتى حسبه ديننا لا يرون الحق غيره . ثم قال : إنه الحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا قوة إلا بالله .

خطبة لقطرى بن الفجاءة

أما بعد فإنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات وراقت بالقليل ، وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور لا تدوم نضرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، وحائلة زائلة ، ونافذة بائدة . لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله عز وجل :

« كماء أنزلناه من السماء ، فاختلف به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ؛ وكان الله على كل شيء مقتدرا » .

مع أن امرأ لم يكن منها في حيرة^(١) ، إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا ، إلا منحتة من ضرائها ظهرا ، ولم تصله منها ديمة رخاء ، إلا هطلت عليه مزنة بلاء . وحرية إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متكررة ، وإن جانب منها اعدوذب واحلولى ، أمر عليه جانب فأوبأ . وإن ليس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما ، أرهقته من نوائها غما ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن ، إلا أصبح منها في قوادم^(٢) خوف ، غرارة غرور ما فيها ؛ فانية فإن من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى ، من أقل منها ، استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه^(٣) كم واثق بها قد فجعته وذى طمأنينة إليها قد صرعه ؛ وكم من مختال بها قد خدعته ، وكم ذى أبهة قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة قد ردته ذليلا ، وذى تاج قد كبته^(٤) لليدين والقم . سلطاتها دول ، وعيشتها رنق^(٥) ،

(١) أثر نعمته وحسن .

(٢) قوادم الطير الريش الذى فى مقدمة والمزاد هنا مظاهر الخوف .

(٣) يوبقه يهلكه .

(٤) كبه صرعه أو رماه فى هوة .

(٥) رنق كدر .

وعذبتها أجاج^(١) ، وحلوها مر ، وغذاؤها سهام^(٢) وأسبابها زحام ، وقطافها
 سلع^(٣) حبها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض
 اهتضام ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وضعيفها وسليمها منكوب .
 وجامعها^(٤) محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وزفراته ، وهول
 المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ،
 ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ألسم في مساكن من كان قبلكم أطول
 منكم أعمارا ، وأوضح منكم آثارا ، وأعد عديدا ، وأكتف جنودا ،
 وأعدت عتادا^(٥) ، وأطول عمادا ، تعبدوا أى تعبد ، وآثروها أى إيثار ،
 وظعنوا عنها بالكراهة والصغار . فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية ،
 وأغنت عنهم مما قد أملتهم به ، بل أرهقتهم بالفوادح ، وضعفتهم
 بالنوائب ، وعفرتهم للمناخر ، وأعانت عليهم ريب المنون ، وقد رأيتم
 تنكرها لمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد ،
 إلى آخر الأمد ، هل زودتهم إلا الشقاء ، وأحلتهم إلا الضنك ، أو نورت
 لهم إلا الظلمة ، وأعقبتهم إلا الندامة ، أفهذه تؤثرون ، أو على هذه
 تحرصون ، أو إليها تطمئنون ، يقول الله تبارك وتعالى : « من كان يريد
 الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك
 الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل
 ما كانوا يعملون » .

(١) الماء الاجاج المالح المر .

(٢) السام جمع سم .

(٣) للقطاف اسم لما يقطف من عنب أو نحوه ، والسلع يفتح اللام شجر مر أو الصبر

أو سم .

(٤) المحروب المسلوب .

فبئس الدار لمن يتهمها . ولم يكن فيها على وجل منها ، فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بد ، فإنما هي كما نعت الله عز وجل لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، فاتعظوا فيها بالذين يبنون بكل ريع آية ، وبالذين قالوا من أشد مناقيه ، واتعظوا بمن رأيت من إخوائكم ، كيف حملوا إلى قبورهم ، فلا يدعون ركباناً ، وأنزلوا ، فلا يدعون ضيقاً ، وجعل لهم من الضريح أكثان ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات جيران ، فهم جيرة لا يجيئون داعياً ، ولا يمنعون ضيماً ، يزارون ولا يستزارون ، حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دمعهم ، وهم كمن لم يكن ، قال الله تعالى : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين » استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، وبآل غربة وبالنور ظلمة ، فجاءوها حفاة عراة فرادى ، وظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة إلى خلود الأبد ، يقول الله تبارك وتعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ، إنا كنا فاعلين » ، فاحذروا ما حذركم الله واتنفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه .

خطبة أبي حمزة الشاربي بمكة المكرمة

جاء في كتاب البيان والتبيين : دخل أبو حمزة الخارجي مكة المكرمة ، وهو أحد نساك الأباضية ، وخطبائهم ، واسمه يحيى المختار - فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ، ولا يتقدم ، إلا بإذن الله ، وأمره ووجهه ، أنزل الله له كتاباً ، بين له فيه ما يأتي ، وما يتقى ، فلم يكن في شك من دينه ، ولا شبهة في أمره . ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمون معالم دينهم ، وولى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دينهم ، حين ولاه رسول الله

لِسَيْبِلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَةِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ ، فَمَضَى
لِسَيْبِلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، فَسَارَ
بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ ، وَجَبَى الْفَيْءَ ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ ،
وَجَمَعَ النَّاسَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَجَلَدَ فِي الْخَمْرِ ثَمَانِينَ ، وَغَزَا الْعَدُوَّ فِي
بِلَادِهِمْ ، وَمَضَى لِسَيْبِلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثُمَّ وَلِيَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَسَارَسَتْ
مَنِينُ بِسِيرَةِ صَاحِبِيهِ ، وَكَانَ دُونَهُمَا ، ثُمَّ سَارَ فِي السَّيْرِ الْأَوَّالِ بِمَا أَحْبَبَ بِهِ
الْأَوَّالُ ، ثُمَّ مَضَى لِسَيْبِلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . ثُمَّ وَلِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ
يَبْلُغْ مِنَ الْحَقِّ قَصْداً ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُ مَنَاراً ، ثُمَّ مَضَى لِسَيْبِلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
ثُمَّ وَلِيَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لَعِنَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَابْنُ لَعِينِهِ ، اتَّخَذَ عِبَادَ اللَّهِ
خَوْلًا (١) وَمَالَ اللَّهِ دَوْلًا (٢) وَدِينَ اللَّهِ دَغْلًا (٣) ثُمَّ مَضَى لِسَيْبِلِهِ ، فَالْعَنُوهُ ،
لَعَنَهُ اللَّهُ . ثُمَّ وَلِيَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ، يَزِيدُ الْخَمُورِ ، وَيَزِيدُ الْقُرُودِ ، وَيَزِيدُ
الْفُهْرُودِ الْفَاسِقِ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ اقْتَصَصَهُمْ خَلِيفَةُ خَلِيفَةٍ فَلَمَّا أَنْتَهَى إِلَى عُمَرَ
ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ ، ثُمَّ قَالَ : ثُمَّ وَلِيَ يَزِيدُ ابْنُ
عَبْدِ الْمَلِكِ الْفَاسِقِ فِي بَطْنِهِ الَّذِي لَمْ يُؤْنَسْ مِنْهُ رَشْدٌ ، وَقَدْ قَالَ
تَعَالَى فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى ، « فَلِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ »
فَأَمْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَعْظَمُ . يَأْكُلُ الْحَرَامَ ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَيَلْبَسُ الْحُلَّةَ
قَوْمَتْ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، قَدْ ضَرَبَتْ فِيهَا الْأُبْشَارَ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارَ ،
وَأَخَذَتْ مِنْ غَيْرِ حُلِّهَا ، حَبَابَةً (٤) عَنْ يَمِينِهِ ، وَسَلَامَةً عَنْ يَسَارِهِ تَغْنِيَانَهُ ،
حَتَّى إِذَا أَخَذَ الشَّرَابَ مِنْهُ كُلٌّ مَأْخُذٌ قَدْ ثَوَّبَهُ ، ثُمَّ التَفَتْ إِلَى إِحْدَاهُمَا ،
فَقَالَ : « أَلَا أُطِيرُ » نَعَمْ فَطَرَّ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، وَحَرِيقِ نَارِهِ ، وَأَلِيمِ عَذَابِهِ .

(١) عبيداً .

(٢) جمع دول وهي ما يتداول من المال .

(٣) الدغل ما فيه فساد .

(٤) نجابة وسلامة قبتان كان يجنبهما .

وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون ، بالهوى . ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ؛ فقال سبحانه : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم » ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل . فأقبل صنف تاسع ليس منها ، فأخذها كلها . تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله .

وأما هذه الشيع فشيعة ظهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين ، ولا بعلم نافذ في القرآن الكريم ، ينقمون المعصية على أهلها ، ويعملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ، جفاة عن القرآن الكريم ، أتباع كهان ، يؤملون لحيث الموتى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا ، قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ، ثم أقبل على أهل الحجاز ، فقال يا أهل الحجاز : أتعيروني بأصحابي ، وترعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا ، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء (١) عبادة ، وأطلاح (٢) سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن الكريم ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، وصل كلالهم (٣) بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت

(١) جمع نضو وهو الخفيف من التعب .

(٢) جمع طلع وهو المهرول .

(٣) الكلال التعب .

الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله ،
حتى إذا رأوا السهام قد فوقت (١) والرماح قد اشرعت (٢) ، والسيوف
قد انتضيت (٣) ، ورعدت الكتبية بضواقع من الموت وبرقت ، استخفوا
بوعيد الكتبية ، لوعيد الله ، ومضى الشباب منهم قدما (٤) ، حتى اختلفت
رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه
سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين في مناقير طالما بكى
صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها
طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال : « أوه
أوه أوه » ثم بكى ثم نزل .

خطبة للحسن البصرى

خرج الحسن البصرى يوما على أصحابه ، وهم مجتمعون ، فقال :
والله لو أن رجلا منكم أدرك من أدركت من القرن الأول ، ورأى من
رأيت من السلف الصالح ، لأصبح مهموما ، وأمس مغموما ، وعلم أن
المجد منكم كاللاعب ، والمجتهد كالتارك ، ولو كنت راضيا عن نفسى
لوعظتكم ، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها ، ولذا أبغضتها
وأبغضتكم . .

أيها الناس ، إن لله عبادا قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ،
وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا الأيام القلائل ، لما رجعوه

(١) فوق السهم جعل له فوقا وهو ما يضع فنه في القوس .

(٢) رفعت ووجهت وجهة العدو .

(٣) قد سلت .

(٤) مضى قدما متناها مضى إلى الحرب .

في الدهور الأطاول . أما الليل فقامون على أقدامهم ، يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون في فكاك رقابهم ، تجرى من الخشية دموعهم ، وتحقق من الخوف قلوبهم ، وأما النهار فجلعاء أتقياء أخفياء ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تخالهم من الخشية مرضى ، وما بهم من مرض ، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها . لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم ، منكم لدينكم بأبصاركم ، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم : « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

الخطابة في المائة الاولى

من العصر العباسى

تمهيد :

اشتد إيذاء الأمويين لآل البيت الأطهار ، وكثر القتل الذريع فيهم ، وفي أنصارهم ، وكان بجوار ذلك الإيذاء تعصب للعرب والعربية فأحرق ذلك الفرس وغيرهم ، فوجد آل البيت السبيل للانتفاض عليهم معبداً ، إذ قد مل الناس مظالمهم ، ونفروا من حكمهم ، لما شاع من قالة السوء عنهم ، ثم وجد الفرس المنتقمون لجنسيتهم مبررا للخروج وهو الانتصار لأهل البيت ، بينما وجد هؤلاء فيهم نصراء لهم يعاضدونهم في اللأواء ، ويؤازرونهم في الشديدة ، فحصرُوا دعوتهم فيهم ، لذا دبر العباسيون الأمر في وسط فارس ، وبيتوا مكرهم ، وأخفوا تدبيرهم حتى لاحت لهم للفرصة ، فاتهزوها ، وأبعدوا الأمويين عن عرش المسلمين ، وتولوه هم باعتبار أنهم أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم الأدنون ، وورثته المستحقون للخلافة من بعده ، ولم يكد الأمر يستقر لهم ، حتى انتقض عليهم أبناء على رضى الله عنهم ، لأنهم أصحاب البلاء ، وأهل الجلال ، والنضال ، ولأن العباسيين وصلوا إلى الحكم على كواهلهم ، وابتزوه منهم ، اشتد النضال بالكلام وبالسيف بين الفريقين المتناحرين كل يدعو الناس إلى تأييده ، ويرهن على صدق دعواه بما يستطيع من بيان ، ويدلى بما عنده من دليل . وقد شغل ذلك النضال أكثر مدة أبى جعفر المنصور ، حتى تم له الانتصار عليهم بالسيف ، وأهواء كثيرين من أنصاره معهم .

وقد كان العباسيون يسيئ الظن بالعرب ، لأنهم أنصار الأمويين ، شديدى الثقة بالفرس ، لأنهم أنصارهم ومقيموا دولتهم ، ولذلك كان

كبار القواد والزعماء والوزراء والتأهين في الدولة منهم ، وقد انتهزها
الفرس لنشر سلطانهم ، واحياء قديم مجدهم ، ونشر المقبور من آدابهم
وأفكارهم . ولذلك أخذت العادات الفارسية تصبغ الحياة الإسلامية
بصبغتها ، وأخذت الأفكار الفارسية ، تتورد على الذهن الإسلامي ، وتسيطر
على البيئة الفكرية ، وانتشرت بين المسلمين حكمهم ، وكثير من
معلوماتهم ، لأنهم كانوا أقوياء بذلك السلطان وأقوياء بآمالهم في إحياء
دارس حضارتهم ، وكانوا أقوياء بحضارتهم القديمة وميراثهم الفكري
الذي ورثوه عن أسلافهم .

والفكر الفارسي الذي أثر في الحياة الإسلامية ذلك التأثير كان يحمل
معه ثمرات من الفكر اليوناني ، فإن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد
فارس قبيل الإسلام . وقد كان هذا وغيره سببا في كثرة العلوم الفلسفية ،
وانتشارها بين المسلمين ، وكانت تعقد المناظرات والمناقشات في كل مكان ،
وكثير منها كان يعقد في مجالس بعض الخلفاء ، كالمأمون الذي كان معجبا
بالفلسفة اليونانية وغيرها ، بل كان هو يعد فيلسوفا حكيما ذا رأى وسط
معتلج الآراء ، ومتناحر الأفكار . وقد كانت هذه المناظرات موضوع
سبق المحيدين للقول ، فيها يتبارون في البيان وروعته ، ويتسابقون في المعاني
وإحكامها ولذلك أخذت المناظرات تحل محل الخطابة على ما سنبين إن شاء
الله تعالى في عوامل انحطاط الخطابة .

موضوعات الخطابة ودواعيها في ذلك العصر

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية ووسطها في بعض
الوجوه ، لأن كلتا الدولتين نشأت في وسط فتنه هوجاء ، كثرة العنف
قوية الأثر ، شديدة اللجب ، ولأن كليهما ما تكاد أن تستقران حتى
يخرج الخارجون من كل ناحية ، وتهدد الدولة بالتزيق ، والوحدة

بالانقسام ، والخلفاء الأوائل في كلتا الدولتين ، كانوا ذوي بيان ولسن ،
القول البليغ عدتهم وذخيرتهم . ولهذا التشابه كانت الخطابة رائجة في صدر
الدولة العباسية ، كما كانت رائجة في صدر الدولة الأموية ووسطها ،
وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين متقاربة ، ودواعيها متشابهة .

ومن الدواعي للخطابة في العصر العباسي :

الدعوة العباسية :

قامت الدعوة العباسية على إثبات حق آل البيت رضوان الله عليهم
في الخلافة ، وأنهم أولى الناس بها ، لقربانهم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولأنهم صفوة قريش المختارة ، ولأن الله سبحانه اختصهم بفضل ليس
في غيرهم ، قامت دعوة بني العباس على ذلك ، وعلى بيان مظالم الأمويين ،
واعترافهم ، وما ارتكبوه من مآثم في أول عهدهم وآخره ، وما انتهكوه
من حرمت ، وما أباحوه من دم آل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قتلوا
الحسين أولا قتله فاجرة . وقتلوا أحفاده زيد بن علي ويحيى ابنه ، وقتلوا
إبراهيم الإمام آخرها .

وذلك كله ببيان رائع ، وخطب قيمة ، وقول بارع ، وبلاغة واصلة
إلى أعماق النفوس ، مثيرة نقمة الناس عليهم ، وحافزة الأنصار على الانتقام
منهم ، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعا من موضوعات القول ،
وداعيا من أعظم دواعيه ، وأقرأ خطب داوود بن علي وغيره من خطباء
العباسيين ترى ذلك واضحا كل الوضوح .

بيان سياستهم :

لما تم الأمر لبني العباس ، كانوا يعلنون سياستهم على المنابر ، ليوازن
الناس بين حكمهم وحكم الأمويين ، وقد كان بعضهم يحاول أن ينجح في
ذلك منهج الخلفاء الراشدين ، يسن اللحظة ، ويبين أنه يقيم الحدود ، ينفذ

أحكام الله تعالى ، ويعلن سلطانه ، وانظر إلى قول السفاح في بعض خطبه :
والله لا أعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد ، ولأعلمن الدين ، حتى لا تنفع
إلا الشدة ، ولأعمدن السيف إلا في إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولأعطينكم
حتى أرى العطية ضياعا .

وانظر أيضا إلى قول داوود بن علي : لكم ذمة الله تبارك وتعالى
وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم
فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم
والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انظر إلى هذا وذاك ترى أن هذين الخطيبين يحاولان أن ينجيا في خطبهما
منهج الخلفاء الراشدين ، وإن كان العمل يتأى عن عملهم ، وكذلك كانت
خطب كثيرين منهم ، وقد كان الخلفاء يحاولون أن يتصلوا بالعامة ،
ويذكروهم العهود ، كلما جد أمر ، أو حدث شأن من الشئون ، كما
فعل أبو جعفر عند مقتل محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية ،
وعند مقتل أبي مسلم الخراساني ، وترى من كل هذا أن اتصال الخلفاء
بالشعب ، والعمل على إعلان سياستهم ، كان داعيا من دواعي الخطابة ،
وموضوعا من موضوعاتها .

الفتن :

قامت الدولة العباسية في وسط فتن كثيرة ، ولم تنته بقيامهم ، بل رأى
أبناء عمهم العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم ، وابتزوه ابتزازاً دونهم . وهم
الأولى لسابقتهم ، وقديم بلائهم ، وسالف جهادهم ، وأن الشيعة التي
ناصرت ، وأقامت ملك العباسيين شيعتهم وأن أولئك استخدموا مجدهم ،
وبنوا عليه ما أرادوا ، واستبدوا به دونهم ، لذلك شغلوا الدولة بخروجهم
وتقدموا بشرفهم التليد ، وحاضروهم العظيم ، ودعوا لأنفسهم ، ورد عليهم
المنصور بخطب قد ملأها بالأدلة التي تثبت حق العباسيين ، والبراهين على

صدق دعوهم ، وإبطال دعاوى خصومهم من بني عمهم ، وكان ذلك الخروج حافزا للبيان ، وموضوعا من موضوعاته .

ولم يكن الخروج مقصورا على العلويين ، بل خرج في عهد المهدي المقتنع الخراساني ، فشاور المهدي أهل بيته ، فكانت تلك المشاورة ميدانا واسعا للبيان الجيد ، والقول المبين ، وقد جاءت مفصلة في العقد الفريد ، فارجع إليها .

وكانت بعد ذلك — الفتنة بين الأمين والمأمون ، وفيها وجدت الخطابة مرتعا خصيبا ، وترى من هذا أن الفتن التي ادلهمت في ذلك العصر ، واتسع نطاقها ، وتوالت أحداثها ، كانت كشأنها في كل العصور عاملا من عوامل نهوض الخطابة ، وموضوعا من موضوعاتها :

الوفادة :

كان يفد على الخلفاء والأمراء ، وفود في ذلك العصر كما كان الشأن في العصر الأموي ، وإن كان ذلك أقل ، وقد كانوا يتبادلون الخطب ، فمن ذلك وفد أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم إذ جاءوا إليه يعتذرون ، وكانت تلقى الخطابة في موضوع تلك الوفادات فكانت الوفادة داعيا من دواعي الخطابة : وموضوعا من موضوعاتها .

المجالس :

كانت المجالس تعقد ، ويتسابق أصحاب اللسان والبيان في الإجابة ، وكثيراً ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية ، وكلامية ودينية وتناحر مذاهب ، تستخدم فيها كل أساليب الخطابة الرائعة من محاولة تأثير ، واجتذاب إلى فكرة ، وقد كان أولو السبق في تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام ، إذ هم أهل السبق في فنون البيان من بين الفرق الدينية ،

وامتاز من بينهم بالإجادة والفصاحة عمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتز ،
وأبو الهذيل ، والنظام ، وكثيراً ما كانت مباريات هؤلاء الكلامية ، في
مناقشة أصحاب المبادئ الهادئة للأديان .

الوعظ الديني :

وقد كان الوعظ الديني هدفا يرمى إليه الخطباء ومقصدا يقصدونه ،
وكثيراً ما كان يجرى ذلك الوعظ على السنة الخلفاء أنفسهم ، لما يعتقدونه
في أنفسهم من أنهم قادة الأمة في دينهم ، وهداتهم في معرفة أمر ربهم ،
واستمع إلى قول المنصور يرد على من اعترض عليه في خطبته بذكره الله
قائلاً : أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به ، فقد قال أبو جعفر في كلام :
وإياك وإياكم معشر الناس وأختها ، فإن الحكمة علينا نزلت وعندنا
فصلت ، فردوا الأمر إلى أهلها ، تورده موارد ، وتصدروه مصادره .
ألا ترى من هذا الرد أن خلفاء بني العباس يضعون أنفسهم موضع
المُرشدين القادة في الدين والدنيا جميعاً ، ويزعمون أنهم أعلم الناس بأمور
الدين ، فلا عجب بعد ذلك إذا كان الوعظ الديني قد راج على ألسنتهم ،
وقد ورد في كثير من خطب الرشيد ، والمأمون وعظ ديني ممتاز .

ولم يكن الوعظ مقصوراً على الخلفاء كما أشرنا ، بل كان منهم ومن
غيرهم ، لأنه مبدأ ديني سام فرض في صلاة الجمعة والحج والعيدين ،
وكان شريعة عامة تجب على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلاً ، بمقتضى إلزام
المسلمين جميعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل بما يستطيعه ،
ولذا كان الوعظ الديني غرضاً خطايا للخطابة في كل عصورها الإسلامية .

ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها

كانت الخطابة في الجملة في ألفاظها ، وأساليبها ، ومعانيها تقارب
الخطابة في العصر الأموي ، لتشابه الشئون التي دفعت الألسنة إلى البيان .

وما بينهما من فرق سببه تباعد الزمن ، واتساع نطاق الحضارة ، واستبحار المعارف ، وكثرة العلوم ، وتدويرها تلك الأمور التي امتاز بها العصر العباسي .

الألفاظ :

الألفاظ في ذلك العصر كانت تشابه ألفاظ الخطابة في العصر الأموي وصدر الإسلام ، ولكنها قد زادت عدوية ، مع الفخامة والقوة أحيانا ، والسبب في ذلك أن الحضارة قد تمكنت من النفس العربية ، وتغلغلت في ثناياها ، فسهلتها وألانتها ، ولم يعد للصحرَاء أثر قوى في نفوس خطبائهم ، فكانت الألفاظ مؤاتمة لما صدرت عنه ، ومطابقة لما اقتضاها .

المعاني :

أمور منها : والمعاني تقارب المعاني في العصر الأموي ، ولكنها زادت عليها في ١ - زيادة المبالغة والتهويل ، خصوصاً فيما يتعلق بمنصب الخلافة ومنزلة الخلفاء وذلك لما كانوا يذكرونه من نسبتهم إلى النبي ﷺ وأنها مناط العزة وسبب الرفعة ، ويبالغون فيما ينبنى على ذلك النسب من استحقاق للاستعلاء ، ولأن المبالغة تسود حيث تكبر صناعة الكلام ، ومحاولة إجادته ، وذلك كان قائماً عندما كان للخطابة سوق رائجة .

٢ - زيادة التفنن في المعاني والبحث عن دقيقتها ، والغوص وراء عميقها ، وذلك لكثرة الترجمة ، وسيادة البحوث العلمية ، فقد كان الخطباء يتالون من ثمرات الترجمة الدانية التي تخدمهم في أغراضهم البيانية ، فإذا استطاعوا أن يقبسوا مما ترجم ابن المقفع وأمثاله من حكم ، قبسوا ، وحلوا به خطبهم ، وربما حاكى بعضهم ذلك النهج في خطبه ، فبدت عميقة الفكرة ، محكمة المعنى ، انظر إلى قول المأمون في بعض خطبه في الوعظ : « واعلموا أن الدنيا ليست بدار ، فاستبدلوا ، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار ، إلا الموت

أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة ، الجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحلوه الجديد أن الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، فإنك ترى في هذا الكلام روح الفلسفة ودقتها ، وعمقها ، وحكمتها .

٣ - كثرة المعاني الدينية :

فقد كثرت هذه المعاني على ألسنة الخطباء ، خصوصاً الخلفاء ، لأنهم وثبوا إلى الخلافة باسم الدين ، لقربهم من النبي الكريم ، وبتهويلهم في مظالم الأمويين ، وخروجهم عن جادة العدل ، فطبعي أن تكون خطب الخلفاء منهم تنحو منحى دينياً إذ يؤيدون بالدين دعوتهم ، ويدافعون عن أعمالهم بوصفها به ، وبيان أنها صادرة عنه ، وواردة إليه ، واقرأ خطباء صدر هذه الدولة ، ترى ذلك واضحاً كل الوضوح ، ومن ذلك قول أبي جعفر المنصور في إحدى خطبه : أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وتأييده ، وأنا خازنه على فيته ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته ، وأقسمه بأمراته ، وأعطيه بأذنه ، قد جعلني الله عليكم قفلاً ، إن شاء أن يفتحني لأعطياتكم ، وقسم فيثكم ، ففتحني ، وإن شاء أن يقفلني أقفلني .

وقد كانت المعاني تهديدية عنيفة في بعض الأحيان ، وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة انتقاضهم ، أو لم يتعود نصرتهم ، بل عودوه الحرب والخصام ، كشأن أهل الشام ، ففي خطاب هؤلاء ترى الخطابة الحجاجية على أتم ظهورها ووضوحها .

الأساليب :

وكانت الأساليب أيضا تقارب في جعلها أساليب الخطابة الأموية ، ففيها كان الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والاقتراس من آية ، والاستشهاد بالشعر العربي المناسب ولكن زادت في أمور منها :

١ - المبالغة في تنسيق الخطبة ، وإحكام تقسيمها ، حتى أن بعضهم كان يضمن مقدمته إشارة إلى موضوعها ، وذلك لأن الخطابة أخذت تنصير علما له قواعد وأصول ، وعنى بعض الناس بنشر بعض أصولها ، وتعليم قواعدها . وقد ذكرنا لك آتفا ما كان بين بشر بن المعتمر ، وإبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني من حديث ، وهو يدل الدلالة كلها على أن الخطابة قد صارت قواعد تلقن ، وعلما يدرس ، ويتبع ذلك حتما أن يأخذ الخطباء أنفسهم بأن تكون خطبهم موافقة لقواعد النقد التي كانت مقاييس ، وموازن لوضع الخطب في مواضعها الأدبية .

٢ - وكثرة الكلام ذي الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوى ، تذهب أصدأؤه في النفس ، فتستولى عليها . وفي الحق إن الكلام الخطابي كان فيه المرسل ، وكان فيه الكلام المزدوج المقسم إلى فقرات قصيرة ، وكان فيه السجع ، ولكن المرسل كان أقلها ، والمزدوج أكثرها ، والسبب في قلة الإرسال في هذا العصر عن سابقه ، أن إعداد القول قد كثر ، وحيث كان ذلك ، قل الكلام المرسل ، ولكثرة الخطباء من الموالي ، وهؤلاء من دأبهم محاولة التحسين والتكليف ، ليعوضوا به ما نقصته سليقتهم اللغوية .

الإنجاز والاطناب

كان في خطب هذا العصر الخطب الطويلة ، والخطب القصيرة ، وكان لكل مقام ما يقتضيه ، ولكنهم كانوا إلى الطول أميل ، يختارون مواضع

البسط والاطناب ، ويكررون المعنى الواحد بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب ، مرة بالاستفهام ، وأخرى بالتقزير ، وأخرى بالنفي ، ويحاولون بذلك أن يثبتوا المعاني في نفوس سامعيهم ، ليكون الغرس بعيد الغور ، فيثمر أطيب الثمرات ، وأدناها جنى ، وهم في ميلهم إلى الطويل من الكلام دون قصيره يشبهون بني أمية ، وينهجون نهجهم ، وسرى نموذجاً من خطبهم بنوعها إن شاء الله .

أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها

قويت الخطابة في صدر الدولة العباسية ، وضاهت صدر الدولة الأموية في علوها وارتفاع شأنها ، وذلك :

١ - لأن الدولة أحيطت بنطاق من الفتن والثورات والخروج على حكامها ، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطب الرائعة ، يدافع الحلفاء بها عن أنفسهم ، ويدعون الناس إلى البقاء على تأييدهم ، ومقاومة خصومهم وليذبوا عن حياضهم ، ويلحقوا بالحجة على مخالفتهم ، والفتن دائماً تحرك الألسنة ، وتدفعها إلى القول ، إذ يلتبس الحق بالباطل ويكون الغلب لمن هو أقوى بياناً ، وأسبق خصاماً ، وقد سبق بيان ذلك كثيراً .

٢ - والحلفاء في صدر الدولة كانوا أولى الأمر والنهي ، وقد كانوا من بني هاشم الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن ، وقوة الحجة سلفهم وخلفهم في ذلك سواء ، سئل سعيد بن المسيب : من أبلغ الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال السائل إنما أعنى من دونه . فقال : معاوية وابنه ، وإن ابن الزبير لحسن الكلام ، ولكن ليس على كلامه ملح . فقال له الرجل : فأين أنت من علي وابنه ، وابن عباس وابنه ؟ فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكالمهم ، وتدنأت أحوالهم ، وكانوا كمهام الجعبة ، وبني هاشم أعلام الأنعام ، وحكام الإسلام .

وقد ظهرت مواهب بني العباس الخطابية في صدر دولتهم ، وإنان
سطلوتهم . قال الجاحظ في بيان مقدرتهم البيانية :

وجاعة من ولد العباسي في عصر واحد ، لم يكن لهم نظراء في
أصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال
الدولة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار
الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجلون
عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك ، منهم
عبد الملك بن صالح ، وسألة الرشيد ، وسليمان بن جعفر وعيسى بن جعفر
شاهدان ، فقال له : كيف رأيت أرض كذا وكذا ؟ فقال مساق^(١)
ريح ، ومنابت^(٢) شيخ . قال فأرض كذا وكذا ؟ قال : هضاب حمر ،
وبراث^(٣) عفر ، حتى أتى على جميع ما أراد . ثم قال عيسى لسليمان :
« والله ما ينبغي لنا أن نرتضى لأنفسنا بالدون من الكلام .

وترى من هذا كيف كانت منزلة هؤلاء من البيان ، وقد كانت الخطابة
قوية ناهضة ، ما كان السلطان في الدولة للخلفاء أنفسهم .

٣ — وقد كانت جمهرة الأمة في صدر الدولة ممن يقيمها القول البليغ
ويقعدها ، يفقهون مرامي العبارات ، ومرامي الكلام ، فكان من حالم
مشجع للخطباء على القول ، فلما حالت الحال ، وغلبت العجمة وماتت
النعرة العربية أو خبت ، لم يكن من القوم من يحسن الاستماع ولا من الزعماء
من يجيد البيان .

وقد أخذت الخطابة في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسيين
وتضافرت أمور في إضعافها ، ومن أعظمها أثرا ، وأبينها شأنا :

(١) المساق جميع مسقى وهو اسم مكان من سقى بمعنى ذرا يذرو .
(٢) الشيخ اسم لنبات ، والكلام كناية عن الجاهل ، وأن لا زرع إلا الشيخ .
(٣) البراث الأرض السهلة اللينة وعفر جمع عفر . عن البيضاء التي لم توطأ .

١ — إن الدواعى إلى القول ، قد ضعفت ، فقد ثبتت دعائم الدولة ، وقامت أركانها وقل الخروج عليها ، إذ قضوا ، أو كادوا يقضون على أبناء عمهم العلويين في الشرق ، وقل خلاف العباسيين فيما بينهم ، فذهب بسبب ذلك السكون أعظم دواعى الخطابة ، وإذا ضعف الداعى إلى الخطابة ، وقلت الحاجة إليها ، ضعف أمرها ، وهان شأنها .

٢ — وأن الجند وهم حماة الدولة غلبت عليهم العجمة ، إذ كان العباسيون يستعينون في حماية دولتهم ، بالفرس والترك ، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربى البليغ ، وإنما يثيرهم عصبياتهم الجنسية التى كان لها السلطان الأكبر فى ذلك العصر ، إذ حلت محل العصبيات القبلية عند العرب ، فذهبت بذلك الخطابة فى الجند حثا لهم على الجهاد ، أو إيقاظا للايثار والتقوى فى نفوسهم ، أو لإلقاء الحمية فى قلوبهم . فذهب من الخطابة داع من أعظم دواعيها ، وموضوع من أكثر موضوعاتها .

٣ — ضعف أمر العرب ، وذهاب سلطانهم ، وضياع نفوذهم ، حتى كادوا ينحازون إلى صحرائهم لا يعدونها ، وبضعف العرب ، وهم أهل الفصاحة والبيان واللسن والارتجال ضعفت الخطابة ، لأنهم أقدر الناس عليها ، إذ ليس المتعرب كالعربى ، ولا الكسبى كالطبعى ، ولا الملقن كالسلقى .

٤ — وأن الكتابة قد حلت محل الخطابة ، فقد اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أو الوالى أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شىء ، أناب كتابه عن خطابه ، فأرسل إليهم كتابا يقرأ ، ويرجع إليه آنا بعد آن ، وبذلك استغنى عن الخطابة فى أخصر موضوعاتها .

٥ — ووقعود الخلفاء عن الخطابة ، وإنابة غيرهم فى الصلاة

بالناس ، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليدا لخلفائهم ، ومحاكاة لأمرائهم ،
والناس للوكلهم تبع ، وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب ،
وقلة احترامهم له ، وهذا ضعفت الرغبة في القول .

وإذا كانت الخطابة قد ركدت لهذه الأسباب ، فقد خلفها فن من القول
صاحبها زمنا ، ثم انفرد بعدها بالسلطان ، وذلك الفن هو المناظرة ، يتفق
مع الخطابة في الارتجال ، ومحاولة الغلب بالبيان ، والسبق باللسان ، ويخالفها
في الموضوع ، وقد سادت المناظرات ذلك العصر ، لأن الحياة العقلية كانت
لها السيادة ، وعظم أمر العلم فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم ، وصارت
مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية ،
وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام ، وإيضاح البيان ، والتأثير
بالإقناع بعد الإفحام .

الخطباء

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر ، أقوامهم بيانا وأشدهم تأثيرا ، وأقدرهم على الإدلاء بالحجة خطباء الهاشميين : عباسيين وعلويين ، ومن خطباء العباسيين داوود بن علي بن عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن علي ، وصالح بن علي ، وابنه عبد الملك بن صالح ، وسليمان بن جعفر الذي قال فيه البصIRON بالكلام من أهل مكة عند ما وليها : إنه لم يرد عليهم أمير مند عقلوا الكلام ، إلا وسليمان أبين منه قاعدا ، وأخطب منه قائما .

ومن خطباء العلويين محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية ، وأخوه إبراهيم ، وجعفر الصادق ، والعباس بن الحسين ، وكان مقربا من الرشيد والمأمون ، حتى قال فيه المأمون : من أراد أن يسمع لهوا بلا حرج ، فليسمع كلام العباس .

ومن عرف بالخطابة من غير الهاشميين خالد بن صفوان ، وابن عمه شبيب ، والفضل بن عيسى ، وابنه عبد الصمد ، وهما من الموالي ، ومن الموالي أيضا جعفر بن يحيى البرمكي ، والفضل بن سهل ، وأخوه الحسن ، وطاهر بن الحسين ، وابنه عبد الله بن طاهر ، وغير هؤلاء كثيرون .

نماذج من خطب هذا العصر

خطبة داود بن علي بعدبيعة أبي العباس السفاح

الحمد لله ، شكرا شكرا شكرا ، الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس ، الآن أقشعت^(١) حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من ميزغه وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه^(٢) ورجع الحق إلى نصابه ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم .

أيها الناس ، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر ، لنكثر لجينا ولا حقيانا^(٣) ، ولا نخفر نهرا ، ولا نبني قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم^(٤) حقنا ، والغضب ، لبني عمنا ، وما كثرنا^(٥) من أموركم ، وبهظنا^(٦) من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا^(٧) ونحن على فرشنا ، ويشند علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلهم لكم ، واستشارهم بفيثكم وصدقاتكم ، ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم

(١) أقشعت تفرقت وحنادس جمع حندس وهي الظلمة .

(٢) المتزع مكان التزوع والرمى والمراد عاد الأمر إلى أهله .

(٣) اللجين الفضة . والعقيان الذهب .

(٤) ابتزاز الشيء أخذه بالقهر والغلبة .

(٥) كثره الأمر إذا اشتد عليه .

(٦) بهظه الأمر ثقل عليه .

(٧) أرمضه الأمر أوجعه و1T .

فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تبا تبا (١) لبني حرب بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار القانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا (٢) الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وستهم في البلاد ، التي استلذوا بها تسربل الأوزار ، وتجليب الآصار (٣) ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا (٤) في ميادين الغنى جهلا باستدراج الله ، وأما لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا ، وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدالنا (٥) الله من مروان ، وقد غره الله بالغرور ، أرسل لعدو الله في عنائه ، حتى عثر في فضل خطامه (٦) ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، وبحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا — إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، إنه كره أن يخلف بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطع عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه (٧) شدة الوعك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين

(١) تبا معناها هلاكا ، فهو دعاء عليهم بالهلاك والخسار .

(٢) غشوا معناها باشروا الجرائم وارتكبوها .

(٣) الآصار جمع اصر وهو الذنب والوزر .

(٤) الركض العدو ، وحث الفرس ليعدو .

(٥) أدالنا معناها جعل الدولة لنا .

(٦) الخطام ما يوضع في أنف البعير .

(٧) سار فيه وارتفع فيه .

بالعاقبة ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع
للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها ، بأبدال الدين ، وانتهاك
حريم المسلمين الشاب المتكهل المتمهل ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ،
الذين أصلحوا في الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى « فعبج
الناس له بالدعاء » .

ثم قال : يا أهل الكوفة ، إنا والله ما زلنا مظلومين ، مقهورين على
حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج (١)
بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم له تنتظرون ، وإليه
تتشقون ، فأظهر فيكم الخليفة من بني هاشم ، وبيض به وجوهكم ،
وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم
بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الأياله (٢) فخلوا ما آتاكم الله بشكر
والزموا طاعتنا ، ولا تتخذوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل
أهل بيت مصرا ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير
المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبي العباس) فاعلموا أن هذا
الأمر فينا ، ليس بخارج منا ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

خطبة أبي جعفر المنصور بعد هزيمة النفس الزكية

يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو يابغتم
غيرنا لم تبايعوا من خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء ولد علي بن أبي طالب

(١) الانلاج

(٢) حسن الأياله

الخطبة المنصورة بعد هزيمة النفس الزكية

(١) الانلاج التمكن من الظفر والنفوذ .

(٢) الأيالة حسن السياسة مصدر آل الملك الرعية يتولها ساسها بكياسة .

تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير ،
فقام فيها علي بن أبي طالب ، فتلطخ (١) ، وحكم الحكمين ، فافترقت عنه
الأمّة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه
وبطائنه وثقاته ، فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان
فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فلدس إليه معاوية : إني
أجعلك ولي عهدي من بعدى ، فخدعه فانسلك له مما كان فيه ، وسلمه
إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة ، فيطلقها غدا ، فلم
يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي ،
فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في
الفتن ، أهل هذه المدرة (٢) السوداء (وأشار إلى الكوفة) ، فوالله ما هم
بحرب فأحاربها ، ولا سلم فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه
وأسلموه حتى قتل . ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه أهل الكوفة ،
وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه ، أسلموه ، وقد أتى محمد بن علي
فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له :

إنا نجد في بعض علمنا إن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا
أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عبي داوود بن علي ، وحذره
غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم (٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة .
ثم وثب علينا بنو أمية ، فأमतوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، ووالله ما كانت
لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، ويسبب خروجهم ،
فنفرتنا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ، ومرة بالشرقة ،

(١) تلوث .

(٢) المدرة البيلة .

(٣) تم على خروجه يعني صمم .

بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا

أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عبي داوود بن علي ، وحذره

حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ،
ودمع بحكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى
الله عليه وسلم ، فقر الحق قراره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع
دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور
فيها على قرارها ، من فضل الله فينا ، وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلما
وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته
وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلا على وجبنا عن عدوهم لبست الخلتان الجهل والجب
فاني والله يأهل خراسان ، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ،
بلغني عنهم بعض السقم والتعرم^(١) وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يا فلان ،
فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم منالا يعملون عليه فخرجوا حتى
أتوهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا
شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلا بايع بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم ،
وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتاسهم الخروج
على ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين ، ثم نزل ، وهويثلو على
درج المنبر « وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياهم من قبل ،
لأنهم كانوا في شك مريب » .

خطبة أخرى لأبي جعفر المنصور قالها بعد قتل أبي مسلم

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تسروا
غش الأئمة ، فإنه لم يسر أحد قط منكرا ، إلا ظهرت في آثار يده ، أو
فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه لأعزاز دينه ، وإعلاء حقه ، وإنا لن

(١) التعرم : التبرع .

(٢) التعرم : الفساد والشر والفتنة .

نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروقه
هذا القميص ، أجزرناه (١) خبيء هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبابح
الناس لنا على أنه من نكث بنا ، فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا
عليه حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه .

خطبة لسليمان بن علي

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادي
الصالحون ، إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .

قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل . الحمد لله الذي صدق
عبده ، وانجز وعده ، وبعثاً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ،
والقى إرثاً ، والدين هزوا وجعلوا القرآن عضيضاً (٢) لقد حاق بهم
ما كانوا به يستهزئون . وكأين ترى من بثر معطلة ، وقصر مشيد ، ذلك بما
قدمت أيديهم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، أمهلوا والله ، نبذوا الكتاب
وأجهدوا العترة (٣) ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل
جبار عنيد ، ثم أخذهم ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً (٤) .

خطبة المأمون بعد أن قتل الأمين

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال : أيها الناس ، إني
جعلت الله على نفسي أن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك

(١) أجزرناه جملناه يجرزه أى يقطعه ونخبىء الغمد هو السيف .

(٢) جعلوا القرآن عضيض أى جعلوه متفرقاً في الأخذ به . يؤمنون ببعض الكتاب
ويكفرون ببعض .

(٣) العترة الأسرة والمراد أسرة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) الركز الصوت الخفى .

دما عمدا لا نخله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ، ولا نخله تحرم على ، ولا أحكم بهوى فى غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان فى الله وله . جعلته كله لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً . أتى أبى به رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسأله إياى عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلاً ، وللنكال متعرضاً وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته .

خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر وقد تهباً لقتال الخوارج فقال : إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاه أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته الذين شنوا ، وتمردوا ، وشقوا عصا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ومرفقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم » .

فليكن الصبر معكم الذى إليه تلجئون ، وعدتكم التى بها تستظهرون فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمركم الله بلباسها ، غصوا بأبصاركم ، وأخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائركم ، فازعين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً ، لعلكم تفليحون .

أيديكم الله عز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنصر .

(تم بحمد الله)

فهرست الموضوعات

صفحة	
مقدمة الطبعة الأولى	٣

القسم الأول

أصول الخطابة

علم الخطابة	٩
٩ - تعريفه وثمرته ١٠ - علاقة علم الخطابة بالمنطق ١٠ - علاقة علم الخطابة بعلم النفس ١١ - علاقة الخطابة بعلم الاجتماع ١٢ - تاريخ علم الخطابة ١٩ - الخطابة	

تعريفها . أقيمتها . موضوعاتها . فائدتها . طريقة تحصيلها

٢٠ - موضوعها ٢١ - فائدتها ٢٣ - طريقة تحصيلها !

٢٣ - ١ - فطرة مواتية وسليقة تلائم الخطابة ٢ - دراسة أصول الخطابة ٣ - قراءة كلام البلغاء ٤ - الاطلاع على كثير من العلوم التي تتصل بالجماعات ٥ - الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب ٦ - ضبط النفس واحتمال المكاره ٧ - الارتياض والممارسة	
---	--

٢٨ - أصول الخطابة

تكوين الخطبة

٢٨ - مقدمة ٢٨ - الإيجاد ٢٩ - الأدلة ٣٠ - المواضيع ٣١ - المواضيع الذاتية : ١ - التعريف ٢ - التجزئة ٣ - التعميم ثم التخصيص ٤ - العلة والمعلول ٥ - المقابلة ٦ - التشابه وضرب الأمثال	
---	--

٤١ - المواضيع العرضية: ١ - الدين ٢ - العادات ٣ - تتبع آثار السلف ٤ - أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة ٥ - الشهادات والمواثيق ٦ - القوانين .

٤٨ - الآداب الخطابية : ١ - آداب الخطيب الخاصة به ٢ - صدق اللهجة ٣ - التودد من السامعين .

٥٥ - صفات الخطيب : ١ - قوة الملاحظة ٢ - حضور البديهة ٣ -طلاقة اللسان ٤ - رباطة الجأش ٥ - القدرة على مراعاة مقتضى الحال .

٥٧ - صفات الخطيب الخمس : ١ - قوة العاطفة ٢ - النفوذ وقوة الشخصية ٣ - أن يكون ثقة ٤ - العجمل في الشارة والملابس ٥ - سعة الاطلاع .

٥٩ - العيوب البيانية : ٥٩ - القسم الأول : بيان المراد والوصول إلى الغرض ٦٠ - القسم الثاني : عيوب النطق ٦٤ - القسم الثالث ، العيوب الصوتية .

٦٥ - إثارة الأهواء والميول

٦٥ - مقدمة في الإقناع الخطابي . ٦٧ - قواعد عامة لإثارة الأهواء والميول ٦٧ - الاعتقاد بصحة ما يدعو إليه ٦٨ - المشاركة الوجدانية ٧١ - النفوذ ٧٣ - اللذة والألم ٧٦ - الغرائز ٧٩ - بواعث الانتباه ٧٩ - الجدة . والغرابة . والتغيير ٨٠ - التكرار والتوكيد .

٨٢ - إثارة الأهواء نحو المراد مباشرة ٨٢ - البغض والمحبة ٨٣ - الرغبة والنفور من أمر ٨٤ - القرح والحزن ٨٧ - الأمل واليأس ٩٠ - الغضب والخوف ٩٢ - الرحمة .

٩٥ - التنسيق ٩٦ - المقدمة : ٩٦ - حسن الافتتاح ١٠١ - المقصد ١٠٢ - تقسيم الخطاب ١٠٥ - الإثبات ١٠٥ - التبيان .

- (١) الأقيسة الخطابية والمنطقية ١٠٨ - الأقيسة وأصاليب الخطابة
١٠٨ - الاستدراج ١١٠ - القصص ١١١ - الأقيسة الاضهارية وذو الحدين
والتمثيل والخلف ١١٢ - القياس الاضمارى ١١٢ - القياس ذو الحدين
١١٢ - التمثيل ١١٣ - قياس الخلف .
١١٤ - التنفيذ : هو أن يبين الخطيب بطلان ما يدعيه الخصم
١١٨ - الخاتمة .

١٢٠ - التعبير

- ١٢٣ - الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى .

١٢٦ - الانشاء الخطابى

- ١٢٦ - الألفاظ ١٣١ - الأسلوب ١٣٤ - المقاطع ١٣٥ - خاتمة
فى الكلام فى التعبير .

١٣٧ - الأداء

- ١٣٧ - التهيئة ١٣٩ - طرق التحضير .

١٤٢ - الارتجال

- ١٤٢ - الخطيب فى حاجة إلى الارتجال ١٤٣ - تعقيب بعض
الخصوم على كلام الخطيب بالنقض ١٤٤ - المران على الارتجال .

١٤٥ - النطق

- ١٨٥ - تجويد النطق ١٤٦ - مجانية اللحن وتحرى عدم الوقوع فيه
١٤٧ - التمهّل فى الإلقاء .

١٤٨ - الصوت

- ١٤٨ - يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعانى ١٤٩ -
أن يجعل صوته مناسباً لسعة المكان .

تبادل الخطب بين الدول - ١٥١ - الاشارات

١٥١ - الاشارات هي الخطبة الصامتة أم هي لغة التفاهم العامة ١٥٢ -
يجب أن تسبق الإشارة القول ١٥٢ - لا يصح أن تتكرر الإشارة ١٥٢ -
الوقفه هي أحسن حال للوقفه الخطابية .
١٥٣ فنون الخطابة

١٥٣ - الخطب السياسية ١٥٥ - الخطب النيابية ١٦٢ - الخطب
الانتخابية ١٦٦ - خطب النوادي والمجتمعات ١٦٧ - خطب المؤتمرات
السياسية .

١٦٩ - الخطابة القضائية

١٧٠ - مرافعة النيابة ١٥٧ - مرافعات المحامين ١٧٩ - إعداد
المرافعات ١٨١ - إعداد الردود ١٨٣ - ترتيب المرافعة ١٨٤ - طرق
الإدلاء بالمرافعة ١٨٦ - لغة المرافعة .

١٨٨ - خطب الوعظ الديني

١٨٨ - تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس إليه ١٩٤ - الوعظ
والمارشدون ١٩٨ - العلم بمناشيء الأمم والتاريخ ١٩٨ - علم النفس
١٩٩ - علم الأخلاق ١٩٩ - علم الاجتماع ٢٠٠ - الحلم وسعة الصدر
والتواضع والصبر على الأذى ٢٠١ - أقسام الوعظ ٢٠١ - خطب الدعوة
إلى الإسلام أو الدفاع عنه ٢٠٤ - خطب التعليم الديني للعامة ٢٠٥ -
خطب تثبيت الإيمان وتقويته ٢٠٥ - فضائل الإسلام ٢٠٧ - خطب
الإصلاح ومجاربة المنكرات ٢٠٧ - الإنشاء الديني .

٢١٠ - الخطب العسكرية

٢١٠ - قال بطل الحروب نابليون ٢١١ - خطبة الإمام علي بن أبي طالب
رضي الله عنه في مجيئه قبيل واقعة صفين .
٢١٢ - المحاضرات العلمية العامة

٢١٤ - خطب التأبين

٢١٤ - خطب التأبين قسمان ٢١٥ - أجود الخطب التأبينية .

٢١٦ - خطب المدح والشكر

٢١٦ - خطب المدح والشكر قسمان : قسم تاريخي تقريري - ذكر المناقب والصفات .

القسم الثاني

تاريخ الخطابة العربية في عصور ازدهارها

٢١٩ - الخطابة في العصر الجاهلي والحاجة إليها

٢١٩ - إلمامة موجزة ٢٢٠ - كلمة هانيء بن قبيصة قبيل موقعة ذي قار .

٢٢٣ - موضوعات الخطابة

٢٢٣ - إثارة المحبة وإيقاظ الحماسة وتثبيت القلوب ٢٢٣ - الصلح
٢٢٤ - المفاخرة والمنافرة - الدعوة إلى الفضيلة ونبد الخرافات -
الدعوة إلى الوحدة العربية ٢٢٥ - الرثاء وللغزاء - الوصايا - خطب الزواج .

٢٢٦ - مرتبة العرب في الخطابة

٢٢٦ - مقاله أبو حيان التوحيدي في مقايساته ٢٢٧ - مقاله الجاحظ في البيان والتبيين ٢٢٨ - موازنة الجاحظ ٢٢٨ - لم تكن أكثر خطب اليونان والرومان إرتجالية ٢٢٩ - الخطيب العربي يعد في الطبقة الأولى بين خطباء الأمم .

٢٣٠ - ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها

٢٣٠ - الألفاظ ٢٣١ - المعاني : معاني الخطب الجاهلية ٢٣٢ -

- الأسلوب ٢٣٤ - الإيجاز والإطناب .
- ٢٣٦ - الخطيب الجاهل وعاداته .
- ٢٣٦ - الخطيب العربي يخطب قوماً اشتهروا بالفصاحة واللسن
- ٢٣٧ - من عادات العرب في الخطابة .
- ٢٣٨ - من المأثور خطب العرب في الجاهلية
- ٢٣٨ - كثرة الخطباء في الجاهلية وقلة المروى من الخطب
- ٢٣٩ - ما جاء في صبح الأعشى - أمية العرب وخطبهم .
- ٢٤١ - نماذج من خطب الجاهليين
- ٢٤١ - كلمة قبيصة بن نعيم حين قدم على امرئ القيس مع وفد بني أسد ٢٤١ - جواب امرئ القيس .
- ٢٤٢ - وصية زهير بن حباب الكلبي بنيه - وصية ذى الأصابع العدواني
- ٢٤٣ - خطبة لمروث الحير في الصلح ٢٤٤ - خطبة عبد المطلب عم النبي ﷺ بين يدي ذى نواس .
- ٢٤٤ - خطبة أبي طالب في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها ٢٤٤ - خطبة أكرم بن صيفي في قومه عند ما جاءه نبي النبي صلى الله عليه وسلم ٢٤٥ - نصيحة الحمنة بنت قيس لجدها الربيع بن زياد
- ٢٤٧ - الخطابة في صدر الإسلام
- ٢٤٧ - تمهيد :
- ٢٤٧ - الحياة الإسلامية في صدر الإسلام ٢٤٧ - الأحوال الدينية
- ٢٥٠ - الأحوال الاجتماعية ٢٥٠ - نحو العصية أو سترها إلى حين
- ٢٥١ - انتقال العرب من البداوة ٢٥١ - الأحوال السياسية
- ٢٥٣ - دواعي الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر
- ٢٥٣ - بيان الأحكام الشرعية ٢٥٤ - المشاورة ٢٥٤ - شورى

عامة ٢٥٥ - الجرية الشخصية ٢٥٦ - الجهاد في سبيل الله ٢٥٦ - ولاية الأمر ٢٥٧ - الدعوة إلى الوحدة - الفن الداخلية .

٢٥٨ - عوامل رقى الخطابة ٢٥٨ - القرآن الكريم ٢٥٩ - ما قاله الجاحظ في إعجازه ٢٦٠ - أثر القرآن الكريم في مناوئيه - إحداهما : بما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم - ثانيها : أخذ الخطباء ينهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال ٢٦١ - الحديث النبوى الشريف ٢٦٣ - للحديث النبوى الشريف أثران في الخطابة - إحداهما : من ناحية تأثيره في اللغة - ثانيها : ترطيب اللسان مما أثر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . ٢٦٤ - الحضارة - تكوين حكومة نظامية - الوعظ الدينى ٢٦٥ - الألفاظ والأساليب والمعاني ٢٦٥ - الألفاظ ٢٦٦ - المعاني ٢٦٨ - الأسلوب ٢٧٢ - طول الخطب وقصرها

٢٧٤ - الخطيب في صدر الاسلام

٢٧٤ - ما يعاون الخطيب على اجتذاب النفوس إليه ٢٧٢ - القول الجملى

٢٧٦ - الخطباء والمروى من الخطب

٢٧٦ - إمام الخطباء سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ٢٧٦ - لم يكن المروى بمقدار كثرة الخطابة

٢٧٧ - اختار من خطب هذا العصر

٢٧٧ - خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الأنصار ٢٧٦ - خطبة الوداع ٢٨١ - خطبته صلى الله تعالى عليه وسلم في مرض الموت ٢٨١ - خطبة سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة بين حق الأنصار في الخلافة ٢٨٢ - خطبة أبى بكر الصديق في السقيفة بين حق المهاجرين ٢٨٣ - خطبة أبى بكر رضى الله تعالى عنه حين أشير عليه بترك المرتدين ٢٨٣ - خطبة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ٢٨٤ - خطاب أخرى لعمر بن الخطاب ٢٨٥ - خطب عثمان وطلحة

وعلى بن أبي طالب عندما استشار عمر بن الخطاب المسلمين في خروجه
على رأس الجيش إلى فارس

٢٨٥ - خطبة عثمان بن عفان ٢٨٥ - خطبة طلحة ٢٨٦ - خطبة
على بن أبي طالب ٢٨٧ - خطبة عثمان بن عفان

٢٨٧ - خطبة لعلي بن أبي طالب في الحث على القتال

٢٨٨ - خطبة أم الخير بنت الحريش

٢٩٠ - الخطابة في العصر الأموي

٢٩٠ - تمهيد :

٢٩٢ - الحياة العربية في العصر الأموي ٢٩٢ - الأحوال السياسية

٢٩٣ - الأحوال الاجتماعية ٣٩٥ - الأحوال الدينية

٢٩٦ - دواعي الخطابة وموضوعاتها في العصر الأموي

٢٩٦ - الفن ٢٩٧ - السياسة - الفتح الإسلامية ٢٩٨ - الوفادة

- المدح والتهنئة والعزاء ٢٩٩ - الوعظ الديني - مجالس المذاكرة في الخطابة

٣٠٠ - عوامل رقي الخطابة وعوامل ضعفها في ذلك العصر

٣٠٠ - قال المرحوم الأستاذ محمد المهدي (بك) في وصف الخطابة

٣٠٢ - خطبة أبي حمزة الشاري ٣٠٣ - من اللحنين البلاء خالد ابن

عبد الله العسري وخالد بن صفوان

٣٠٦ - الألفاظ والأساليب والمعاني

٣٠٦ - الألفاظ - المعاني ٣٠٨ - الأسلوب ٣١٠ - طول

الخطب وقصرها

٣١٢ - المأثور من الخطب

٣١٢ - الخطباء ٣١٢ - ما قاله الشعبي في زياد ابن أبيه
٣١٣ - من خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة ٣١٣ - من النساك
الحسن البصري

٣١٤ - نماذج خطب هذا العصر

٣١٤ - خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح ٣١٤ - خطبة
معاوية في المدينة المنورة ٣١٥ - رثاء الحنفية لأخيه الحسن ٣١٥ - خطبة
زياد ابن أبيه بالبصرة ٣١٨ - خطبة عبد الله همام السلولى يعزى يزيد
في معاوية وبهنته بالخلافة ٣١٨ - خطبة عبد الله بن عباس ينهى الحسين
عن الخروج إلى العراق ٣١٩ - خطبة الحسين رضى الله تعالى عنه وقد
أحسن بغدر أهل العراق ٣٢٠ - خطبة المسيب بن نجبة الفزارى يعلن التوبة عن
التقصير في نصرة الحسين ٣٢١ - خطبة عبد الملك بن مروان في العراق
٣٢١ - خطبة الحجاج حين قتل عبد الله بن الزبير ٢٢٢ - خطبة لعمر ابن
العزير رضى الله تعالى عنه ٣٢٣ - خطبة لقطري ابن الفجاءة
٣٢٥ - خطبة أبى حمزة الشارى بمكة المكرمة ٣٢٨ - خطبة الحسن البصري .

٣٣٠ - الخطابة في المائة الأولى

من العصر العباسى

٣٣٠ - تمهيد :

٣٣١ - الخطابة ودواعيها في ذلك العصر ٣٣٢ - الدعوة العباسية -
بيان سياستهم ٣٣٣ - الفن ٣٣٤ - الوفادة - المجالس ٣٣٥ - الوعظ
الدينى ٣٣٥ - ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها ٣٣٦ - الألفاظ - المعانى

٣٣٧ — كثرة المعاني الدينية ٣٣٨ — الأساليب ٣٣٨ — الإيجاز
والإطّاب ٣٣٩ — أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها

٣٤٣ — الخطباء

٣٣٤ — نماذج من خطب هذا العصر

٣٣٤ — خطبة داود بن علي بعد بيعة أبي العباس السفاح
٣٤٦ — خطبة أبي جعفر المنصور بعد هزيمة النفس الزكية ٣٤٨ — خطبة
أخرى لأبي جعفر المنصور قالها بعد قتل أبي مسلم ٣٤٩ — خطبة المأمون
بعد أن قتل الأمين ٣٥٠ — خطبة عبد الله بن طاهر

٣٥١ — فهرست الموضوعات

(انتهى)

قام بمراجعة تجارب الطبعة الثانية لهذا الكتاب (الخطابة) الذي مضى على طبعته الأولى ما يقارب الخمسين عاماً . كما أشرف على إخراجه على تلك الصورة السيد / (محمد عبد الغنى السيد) رئيس حسابات دار الفكر العربى التى نرجو أن ينتفع بها المسلمون سائلين المولى جل وعلا أن يجزى مؤلفه (الإمام محمد أبو زهرة) جزاء العاملين المجاهدين ، وأن يجعله مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

كما نرجو أن تصدر الطبعة الثانية من مؤلفه الجليل

تاريخ الجدل

الذى مضى على طبعته الأولى ما يقارب الخمسين عاماً .
ولله الفضل والمن علينا أجمعين :

مؤلفات الامام الشيخ محمد أبو زهرة

والتي تقوم دار الفكر العربي بملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

- خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (في مجلدين)
- المعجزة الكبرى (القرآن)
- أبو حنيفة : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- مالك : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- ابن حنبل : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- الشافعي : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- الإمام زيد : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- ابن تيمية : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- ابن حزم : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- الإمام الصادق : حياته . عصره . آراؤه . فقهه
- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي (الجريمة)
- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي (العقوبة)
- تاريخ المذاهب الإسلامية (جزآن)
- الأحوال الشخصية
- أحكام التركات والموارث
- أصول الفقه
- الملكية ونظرية العقد
- شرح قانون الوصية
- محاضرات في الوقف
- محاضرات في عقد الزواج وآثاره
- محاضرات في التصرانية
- الوحدة الإسلامية

- مقارنات الأديان
- الدعوة إلى الإسلام
- تنظيم الإسلام للمجتمع
- في المجتمع الإسلامي
- تنظيم الأسرة وتنظيم النسل
- الولاية على النفس
- موسوعة الفقه الإسلامي (جزءان) بإشراف الامام محمد أبو زهرة
- العلاقات الدولية في ظل الإسلام
- التكافل الاجتماعي في الإسلام
- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام
- العقيدة الإسلامية

تحت الطبع

- تاريخ الجدل (الطبعة الثانية)
الذي مضى على طبعته الأولى ما يقارب الخمسين عاماً

• • •

وتطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

دار الفكر العربي

والمكتبات الشهيرة بالقاهرة والعالم العربي

رقم الايداع ٦٢١ لسنة ١٩٨٠

مطابع الحجوى - القاهرة - عابدين

تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتب العربية

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي
ت ٤٣٦٧٦٥٠ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤

